

حكمة الحق

مجلة شهرية تعنى بالحراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
نُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص بالمجالات الإسلامية والصحية



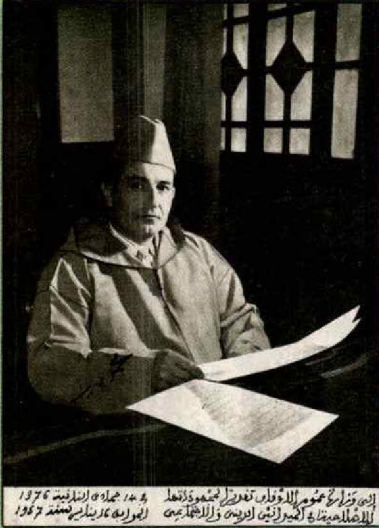
السنة السابعة والخمسون - العدد 412 رمضان 1436 هـ / يونيو 2015 م

412

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالمراسع الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 412 رمضان 1436 هـ / يونيو 2015م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا عمالة العكر والثقافة والإصلاح في هـندله
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تملك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة ”دعوة الحق“ بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
بمملكة المغرب محمد الخامس طيب الله ثراه
في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 32 10 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

من المعلوم أن إمارة المؤمنين صفة حكومية توجب لمن فلكه الله إياها القيام بحماية الدين، وسياسة الدنيا. والقول بالحماية مؤذن بالاضطرار الشعائر الدينية، ورعاية الشؤون الإسلامية. ومن موجباتها: العناية بصلبة العلم والعلماء، وهذا ما جرى به العمل في سنن الأولين، واستمر النهوض به لدى الملوك العلويين، إلى المنفول عنهم شدة التعلق بالدين، والتمسك بسنة المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم، وأنشأوا لخدمة المعاهد والمؤسسات، وعقدوا من أجله المجالس والمناظرات، تحت مسمى المجالس العلمية السلطانية، التي كان يرأسها ملوك الدولة العلوية الشريفة، بحضور حذاق العلماء ورجال الدولة العظام، وخدام الشريعة الأوفياء.

والناظر في لصيغة إحياء أمراء المؤمنين لعقد المجالس يحددها سنة مصرخة، في سيرهم العصرية، يعرضون على حضورها والمشاركة فيها بكروس علمية، وتبليغات فقهية، ولصائب حديثة، ومباحث عقدية، فكانوا بكلها أشجارا يثمرون، والناس يسمعون، بهديهم يقتدون، وإلى علمهم يحمرون.

وجريا على هذا السنن وفصحا من ذلك العن، فقد أعاد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، على إحياء الكروس السنوية في رمضان من كل عام، وأضفى عليها من كريم رعايته، وجميل عنايته، ما حقق للمرأة المغربية الحضور بمجلسه، والمشاركة في حضرته، وشرف النيل من حكمته، قال تعالى: "يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" (سورة البقرة: 268).

وفي سياق التعريف بعقد المجالس، يسعد هيئة مجلة الدعوة الحق أن تقدم للمهتمين والسادة الباحثين مقالات علمية تعرف بالمجالس السلطانية: تاريخا، وموضوعا، ومنهجيا، وتبلي آفاقها السنوية على الخصوصية المغربية الخاصة للشوايت الشرعية.

وعسى أن يكون ما قدم فيها نافعا في بابه، آمين، والحمد لله رب العالمين.

ملف العدد
المجالس العلمية
السلطانية بالمغرب

الدروس الحسنية الرمضانية أصالتها ومميزاتها

د. عبد الحق المريني

مؤرخ المملكة

الناطق الرسمي باسم القصر الملكي

فكرة المجالس العلمية هي فكرة قديمة في تاريخ الدولة الإسلامية، تعيد إلى أذهاننا المجالس العلمية التي كانت تعقد في صدر الإسلام بحضور الخلفاء والملوك والأمراء والعلماء والقضاة... وقد برزت في المغرب في العهدين المرابطي والموحدي (وكان يحضرها في العهد الموحي الخليفة الموحي)، وكان يطلق عليها بالمغرب "مجالس الفقهاء"، ولم يطلق عليها مصطلح "المجالس العلمية" إلا في العهد المريني ثم السعدي، وفي العهد العلوي احتضن ملوك الدولة العلوية هذه المجالس العلمية السلطانية (ابتداء من العهد الإسماعيلي)، وشجعوها وأمروا بفتح باب المناقشة بين العلماء. وكان العلماء من ملوك هذه الدولة يدلون بدلوه في هذه المساجلات. وكان من فضائل هذه المجالس ومن نتائج أعمالها أنها "أعادت الاعتبار" إلى أصول الشريعة الإسلامية بدل التمسك "بالخلافات الفرعية المذهبية" عند إصدار الأحكام والفتاوي.

واشتهر من بين هؤلاء الملوك سيدي محمد بن عبد الله الملك العالم، كان يصطفى نخبة من العلماء للمذاكرة والدراسة في حله وترحاله، وكان يعقد معهم الجلسات العلمية، ويذاكرهم في الحديث وروايته، وفي "غريبه وصحيحه وسقيمه"، ويبعث للغائبين منهم "بالرسائل العلمية". كما كانت همته منصرفة أيضا إلى علوم التفسير والسيرة والفقهاء. له تأليف عديدة في علوم الحديث والفقهاء والتصوف، من أشهرها: "الفتوحات الإلهية"، وهو تأليف في الحديث، كتب مقدمة هذا الكتاب المحدث الرباطي سيدي المدني بلحسني رحمه الله. وقد استجلب سيدي محمد بن عبد الله عددا من العلماء والمحدثين والفقهاء من جهات مختلفة من المملكة المغربية، وأقامهم بمدينة مراكش، ووزعهم على مساجدها ليدرسوا العلم، ويفقهوا الناس فيه، ويؤموا بالمصلين، ويقوموا بالوعظ والإرشاد وخصوصا في أيام الجمعة.

فكانت هذه المجالس "المحمدية" بمراكش أساس اجتماع المجالس العلمية الحديثية عند ملوك الدولة العلوية. وقد اقتفى أثره الملك العادل المولى سليمان - الذي كان من المشجعين للحركة السلفية بالمغرب -، فقد نالت دراسة الحديث في عهده بالمجالس العلمية مقاما متميزا، كأصل أساسي من أصول الشريعة الإسلامية، وإن كانت دراسة المختصرات الفقهية قد نالت أيضا حظها من العناية والاهتمام.

كما كان ابن أخيه المولى عبد الرحمان بن هشام ضالعا في علم الحديث، وعالما بأغلب العلوم الدينية الأخرى. وكان له مجلس علمي تنعقد حلقاته مدة أشهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة تدرس فيها علوم الحديث.

وكان أعضاء المجلس العلمي للمولى الحسن الأول "يتنقلون مع السلطان حيثما حل وارتحل". وكان السلطان مولاي عبد الحفيظ عالما كبيرا ومحدثا ولغويا وشاعرا، ومؤلفا ومحاورا للعلماء لا تخلو مجالسه العلمية بفاس ومراكش من مناقشات يثيرها المولى عبد الحفيظ نفسه، وكانت تثير كثيرا من الردود، وخصوصا من طرف الشيخ العلامة محمد بن عبد الكبير الكتاني. وكانت تعقد هذه المجالس العلمية في شهور رجب وشعبان ورمضان بمدينة مراكش لما كان خليفة لأخيه المولى عبد العزيز بها. وقد حضر يوما بالمواسين ختما للفقهاء محمد بن ابراهيم السباعي ودرسا للشيخ أبي شعيب الدكالي رغبة منه. وكان للمولى عبد الحفيظ ولوع كبير بصحيح الإمام البخاري، فقد جمع علماء العدوتين وأمرهم بدراسته، وكان من بينهم شيخ جماعة رباط الفتح الشيخ المكي البطاوري من الرباط، وأبو الحسن علي عواد من سلا. وقد جمع الشيخ المكي البطاوري دروسه التي كان يلقيها في حضرة السلطان مولاي عبد الحفيظ في كتاب طبع سنة 1946م، تحت عنوان "الدروس الحديثية في المجالس الحفيظية"، وتوجد نسخة منه بالخزانة الحسنية. ومن مؤلفات السلطان العلوي مولاي عبد الحفيظ: "كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع" ألفه للرد على "المتقولين الذين حادوا عن مناهج السنة"، و"ياقوتة الحكام في مسائل القضاء والأحكام"، و"نظم مصطلح الحديث"، و"السيرة النبوية" إلى غيرها من المؤلفات في علوم اللغة والتاريخ والأصول. وكان العلماء والمحدثون خلال المجالس العلمية الحفيظية يحصلون في نهايتها على إكرام السلطان نقدا أو عينا. كما كان المولى عبد الحفيظ ناظما وشاعرا، نظم كثيرا من المتون "كالجواهر اللوامع في نظم جمع الجوامع"، وله ديوان سفري نظمه سنة 1913م، (طبعة حجرية) بعنوان: "نفائح الأزهار في أطياب الأشعار".

وسار ابن أخيه مولاي يوسف المغفور له محمد الخامس رحمة الله عليه على نفس الخطة الحميدة. "فكان يحيي في كل شهر رمضان الدروس العلمية الحديثة التي كانت تحضرها الهيئة المخزنية ونخبة جلييلة من علماء المغرب". وكان يدرس في حلقاتها كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وما تشتمل عليه من حكم وأحكام الأصول.

ولقد كان حلقات الدروس العلمية التي كانت تعقد أيضا طيلة السنة بمساجد الرباط وزواياها في عهد مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه أثرها البارز في تحدي السياسة الفرنسية "التي كانت ترمي إلى تقويض المقومات المغربية الدينية والقومية" والوطنية. وكانت هذه الحلقات العلمية تستمر من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء. وقد أثبت المرحوم الفقيه محمد بن محمد الأزرق في "مذكراته" قائمة لهذه الحلقات العلمية وعلمائها. وقد عرف بالمحدثين في هذه الدروس المرحوم الأستاذ عبد الله الجراري في كتابه: "أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين".

وهكذا كما يقول الشاعر :

عهود من الآباء توارثها الأبناء ❀ بنوا مجدها لكن بنوهم لها ابني

وقد ورث العاهل المغربي جلالة الملك الحسن الثاني رحمة الله عليه هذه السنة الحميدة عن أجداده الميامين تيمنا بالقرآن الكريم، وتبركا بأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم طبقا للحديث الشريف: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده" إلى آخر الحديث، فسار على النهج الصالح بإحياء هذه السنة الكريمة - علما "بأن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" -، وحافظ عليها وجدد في شكلها وتوجيهها، وبث فيها روحا جديدة، وجعل يستدعي لها طائفة من علماء الإسلام من المشرق والمغرب وصفوة من علماء المسلمين المنتمين لمختلف القارات، وأصحاب السمو الملكي الأمراء وأعضاء الحكومة، ورؤساء المجالس بالبرلمان، ومستشاريه والسفراء المسلمين، وعلية القوم وأولي الأمر في جميع المجالات المدنية والعسكرية.

ومن مميزات هذه المجالس العلمية الحسنية أنها أصبحت بمثابة ندوة إسلامية عالمية واسعة تعقد في المغرب كل شهر رمضان، تكون فرصة للتلاقي وتلاقح الأفكار، وتمتين الروابط بين علماء المسلمين، كما أنها تفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، وتفتح أبصارهم على تشريعاته الدنيوية والدينية، وتبرز من خلالها العطاء الفكري والحضاري الإسلامي المتميز، "على أساس من التفتح

الفكري الناضج والاستيعاب العلمي الواعي، و"الاستنباط الدقيق". ومن مميزاتها كذلك، أنها تنقل محاضراتها إلى الناس كافة عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، فيستفيد منها العالم والطالب، الحاضر والغائب، وأصبح بذلك الانتفاع بها والاسترشاد بهديها ميسرا للجميع على حد سواء، وقد اعتادت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - تخليدا لهذه الدروس الحسنية وتنفيذا للتعليمات الملكية السامية - أن تترجمها للغات الحية، وتسجلها على "أشرطة فيديو"، وتخرجها في مجلدات خاصة لأجل تجسيد هذه الدروس وتوثيقها ليستفيد منها جيل بعد جيل في المغرب وخارجه، وهذه منقبة أخرى من المناقب العلمية الحسنية.

ومن معالم هذه الدروس أنها تكون - بعد إلقائها - موضوعا للمناقشة بين العلماء الحاضرين ومناسبة للحوار العلمي، وذلك لإبراز بعض النظريات الأخرى التي لن يتأتى لها الإدلاء بالحضرة المولوية، تطبيقا للحكمة القائلة:

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل فضيلة ❁ ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

ومن أنجم هذه الدروس الحسنية وعلمائها الفطاحل - عبر السنوات الماضية الذين وافاهم الأجل المحتوم بعد أن "أفادوا ونوروا الأفكار وفتحوا الصدور للعلوم النافعة" المرحومون بكرم الله الأساتذة: علال الفاسي (هو أول من ألقى الدرس الحسني الأول بالضريح الحسني - في رمضان 1381هـ (1962)، وتناول فيه "تحليلا عميقا للسيرة النبوية)، والرحالي الفاروقي، ومحمد الفاضل بن عاشور (التونسي)، وعبد الله كنون، وأحمد عبد الرحيم عبر البر (المصري)، وفاروق النبهان (السوري)، وحسن الزهراوي، ومولاي عبد الواحد العلوي، وصبحي الصالح (اللبناني)، والفقيه الورزازي، والشيخ المكي الناصري، والشيخ محمد الأزرق، والغازي الحسيني... وغيرهم، إلى جانب الأحياء من العلماء والدكاترة الأجلاء، وشيوخ الجامعات الإسلامية والعربية، والمفتين الذين أتحفوا بمحاضراتهم النيرة في هذه الدروس الحسنية كلما حل شهر رمضان بهذه الربوع المغربية.

وقد توج جلاله الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه هذه الدروس الرمضانية، بأن عمد بنفسه في السنوات الماضية إلى المساهمة الفعلية في إلقاء بعض دروسها مبرهنا بذلك على مشاركته الفعالة في العلوم الدنيوية والدينية، وعلى قدرته الفائقة على معالجة العلوم وطرق باب الاجتهاد "بمعرفة شاملة وشخصية علمية مستقلة".

ففي شهر رمضان من سنة 1386هـ (1966م)، ألقى المغفور له الحسن الثاني درسا دينيا شرح فيه الحديث النبوي: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه،

وذلك أضعف الإيمان"، وشرح جلالته الرؤية هنا ليس بمعنى المشاهدة بالعين بل الرؤية مع الحكمة والتبصر، وفسر القلب بمعنى خلق المرء وسيرته وأمانته، وبما يفتيه عليه ضميره لإصلاح ما فسد في وسط أسرته وعمله. وكان موضوع المحاضرة التي ألقاها جلالته في رمضان 1387هـ (1967م)، بالضريح الحسني هو شرحه القيم للحديث الشريف: "كم من رجل لو أقسم على الله لأبره"، فتحدث جلالته في شرحه عن مهام الراعي وعن الإسلام كخاتمة للرسالات السماوية، وعن الأديان السماوية الأخرى ومدلولها، وعن أنبيائها ورسُلها، وختم بالكلام عن معجزة القرآن وشمول الرسالة المحمدية. كما ألقى جلالته درسا آخر في رمضان 1388هـ (1968م)، تناول فيه رحمه الله تفسير قوله تعالى: "إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"، أبان فيه جلالته عن اطلاع وخبرة بدقائق التنزيل، وعن فهم نير وحكمة صائبة. فتحدث فيما تحدث عنه عن الأمانة في الإسلام وشرحها بالمسؤولية وعن المعنى الحقيقي للساعة، وعن الدين والنصيحة إلى آخر ما جاء في تفسير جلالته. كما اختتم جلالته الدروس الحسنية برمضان 1398هـ (1978م)، بدرس في التفسير، فسر فيه جلالته الآية القرآنية الكريمة: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير". وقال جلالته رحمه الله في تفسيره: إن الله تعالى صنف الساعة أصنافا: فهناك الساعة الاجتماعية والأخلاقية، وهناك الساعة السياسية، وهناك الساعة الكونية. فالساعة الأخلاقية والاجتماعية هي أن تلد الأمة ربتها فتندم المقاييس، وتندم الموازين، وتتخرب البيوتات، أما الساعة السياسية فهي أن يقلد الناس أمر المسلمين غير المؤهلين، وهي المقصودة بالحديث الشريف: "إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فانتظر الساعة". ثم تعرض جلالته فيما تعرض له إلى الحديث عن الديمقراطية مبرزاً بأن أحسن نظام لتسيير المسلمين هو النظام الملكي الدستوري أو النظام الجمهوري البرلماني المبني على الديمقراطية الحقة... - وشرح الملك الراحل رحمه الله - في اختتام الدروس الحسنية لرمضان 1410هـ (1990م) قول رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له". بقوله: "فها نحن بصدد العلم الذي ينتفع به، وإن المواضيع التي درست أثناء هذا الشهر المبارك العظيم حاولت أن تكون مواضيع تلم بجوانب حياة المسلم، عربيا كان أم عجميا، إفريقيا كان أم أسيويا، أمريكا أو أوروبا، حاولت أن تكون ملمة بجوانب حياته الخاصة والمدينة والوطنية، والله الحمد فقد شفت تلك الدروس غليلنا وأصابنا هدفنا، وبلغت غايتنا، ذلك أنها أظهرت لنا أن المسلم ودينه توأمان، لا يمكن أن ينفصل بعضهما عن الآخر. فحينما نقول الدين، يعتبر الناس كلهم وحتى من المسلمين

أننا نعني بذلك العبادات فقط، والحالة هذه أنه إذا كنا نقول دائما: الدين المعاملات فعلينا أن نزيد أن الدين هو السلوك، والسلوك - أظن - أكثر مسؤولية من المعاملات، لأن في المعاملات يدخل دائما شخص ثالث أو أشخاص آخرون، أما في السلوك فيبقى المرء مسؤولا شخصا أمام مرآته التي هي سلوكه. فإذا كان في سلوكه يتمشى ويعيش بتعاليم القرآن وبتعاليم السنة النبوية وبالتعاليم الأخلاقية المسلمة، سيكون ذلك المواطن الصالح الذي لا يرتكب الفواحش ولا يزيغ عن الطريق المستقيم، ويؤدي ضرائبه ويكون منتظما في سيره، كان بسيارة أو دراجة أو حاملة لركاب أو شاحنة للأثقال، إذا كان سلوكه هو لا ضرر ولا ضرار، وإذا كان سلوكه إمطة الأذى عن الطريق - وفي هذا الباب كثير ما يقال - أصبح المواطن المسلم، كيفما كانت لغته وجنسه ولونه وقارته، صاحب سلوك مسؤولا يمكن لجاره أن يعتمد عليه، ويمكن لبلديته أن تعتمد عليه، ويمكن لوطنه الصغير أن يعتمد عليه، وبالتالي يمكن لأسرته الكبيرة، أسرة لا إله الله محمد رسول الله أن تعتمد عليه، لأنه رجل تسليح بسلوك القرآن وكماله وتممه بسلوك خاتم الأنبياء وأفضل المخلوقات في الكون ﷺ.

وقد تشبث خير خلف لخير سلف أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، بهذه السنة الحميدة: سنة ترأس الدروس الحسنية الرمضانية، وضمن استمراريتها، وعمل على تطويرها حسب ما يقتضيه المقام، وانفتح جلالته أعزه الله على دعاة جميع التوجهات الإسلامية الصحيحة لإلقاء محاضراتهم في هذه المجالس "المحمدية". ويبقى أهم قرار سامي أقره جلالته في هذه الدروس الرمضانية هو إشراك المرأة المغربية العاملة فيها. وهذه سابقة أولى في العالم الإسلامي أحدثها جلالته تكريما للمرأة واعترافا بعملها وكفائتها ومقدرتها على التبليغ والإرشاد، وإصلاح ما فسد في مجتمعنا إلى جانب الرجل الذي لا تقل عنه ذكاء وحكمة وخبرة واقتدارا. وكانت أول من تبوأ كرسى الدروس الحسنية الرمضانية أمام جلالته العاملة الدكتورة رجاء الناجي المكاوي الأستاذة بجامعة محمد الخامس (رمضان 1424هـ - 2003م)، وألقت درسها في موضوع "نظام الأسرة في الإسلام". وتوالت بعدها العالمات المغربيات في كل رمضان للمشاركة في الدروس الحسنية بدروسهن النيرة حسب تخصصهن وكفاءتهن ودرجتهن في العلم.

وجعل جلالته حفظه الله، من إقامة هذه الدروس العلمية مناسبة ليتقبل جلالته في نهايتها - تشجيعا للعلماء والأساتذة المبرزين - مؤلفاتهم ومنتوجاتهم الفكرية القيمة في مختلف فنون المعرفة. وهكذا، يكون جلالته أعزه الله حريصا في كل مناسبة على تشجيع المثقفين والمفكرين والخطباء والمحاضرين الأكفاء، لينهضوا بثقافة بلادهم ويوؤوها المكانة اللائقة بها بين الثقافات والحضارات العالمية. أيده الله وسدد خطاه.

المجالس العلمية السلطانية بالمغرب

د. محمد عز الدين المعيار الإدريسي
رئيس المجلس العلمي المحلي
مراكش

مدخل

ترجع جذور المجالس العلمية في الثقافة العربية الإسلامية إلى فجر الإسلام، بل إلى ما قبله، إذ عرف العرب المجالس والأندية في الجاهلية، كدار الندوة حيث كان يجتمع حكماء قريش وشيوخها...

كما كانت للنساء مجالس خاصة بهن، وفي الصحيح من حديث أم زرع عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: "جلس إحدى عشرة امرأة في الجاهلية فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتنمن من أخبار أزواجهن شيئاً" الحديث¹.

أما بعد البعثة فقد كان المسلمون يجتمعون - في البداية - في دار الأرقم بن الأرقم... ثم أصبحت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم، بعد الهجرة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، للفقهاء والدين والتربية والتعليم، وبدأ تحليق الناس لدرس العلم في المسجد، في عصر الصحابة، وقد حلق أبو هريرة، وعبد الله بن عباس وغيرهما...².

ومن مجالس التابعين الشهيرة مجلس الحسن البصري (ت 110هـ) في قصة اعتزال واصل بن عطاء الغزال حلقاته وقوله: "اعتزلنا واصل" معروفة³.

ومن المجالس العلمية المهيبة، مجلس إمام دار الهجرة مالك بن أنس في المدينة المنورة

قال يحيى بن يحيى: "سمعت ابن أبي هند يقول: ما هبت أحدا هيبتي عبد الرحمان بن معاوية حتى حججت فدخلت على مالك، فهبته هيبة شديدة صغرت هيبة ابن معاوية"⁴.

1 - صحيح البخاري: كتاب النكاح باب حسن المعاشرة مع أهل الحديث 5189 وانظر فتح الباري: 217/10-237.

2 - الفكر السامي: المجلد الأول: 287.

3 - الملل والنحل للشهرستاني: 69/1.

4 - تاريخ العلماء لابن الفريسي: 191/1 - نشر وتصحيح السيد عزت العطار.

ولم يتفرد الرجال بمجالس العلم والأدب دون النساء في الإسلام، بل كان لهن حظهن من ذلك، نشير منها على سبيل المثال، إلى مجالس ثلاث سيدات من خيرة النساء، من بنات الصحابة رضي الله عنهم وعنهن، وهن: عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية أم عمران (ت 101هـ) وسكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت 117هـ) و هند بنت النعمان بن بشير، والمكتبة العربية الإسلامية: حافلة بأخبار مجالس العلم والأدب وأحاديثها في كتب مفردة مستقلة، أو ضمن كتب ذات صلة بالموضوع وفيها من أخبار المجالس السلطانية الشيء الكثير منذ بداياتها مع تولي معاوية بن أبي سفيان (ت 60هـ) رضي الله عنه الخلافة حيث أضحت مجالسه ومن جاء بعده من ملوك بني أمية بالعاصمة دمشق مقصد أهل العلم والأدب خاصة على عهد عبد الملك بن مروان (ت 86هـ) وابنه الوليد (ت 96هـ) من بعده.

وفي العصر العباسي ازدهرت مجالس العلم والأدب ازدهارا واضحا بفضل تعلق الخلفاء والأمراء والكبراء في ذلك العصر، بالعلم والفكر والأدب وعنايتهم بأهل ذلك عناية فائقة مع توفير شروط النهضة العلمية ومستلزماتها، خاصة على عهدي الخلفيتين العباسيين هارون الرشيد ثم ابنه المأمون من بعده، حيث كانت مجالسهما من أعظم المجالس وأحفلها مما سجلته الكتب التي اعتنت بمجالس العلم والأدب.

تاريخ المجالس العلمية السلطانية بالمغرب

لا يوجد اليوم من النصوص والوثائق ما يفيد وجود مجالس علمية سلطانية في العهد الإدريسي، مع تقدير أن فترة التأسيس مرحلة دقيقة، تحفها كثير من المضاعف، وتطبعها سياسة إرساء دعائم الدولة، وجمع شمل الأمة، قبل التفكير في أي شيء آخر، لكن دون أن يغيب عنها الطموح إلى تحقيق نهضة علمية، كفيلة بتحقيق ازدهار البلاد ورفي العباد في مستقبل الأيام...

ولعل خير ما يدل على هذا التطلع، دعاء المولى إدريس الأزهر وهو يضع الحجر الأساس لبناء مدينة فاس: "اللهم اجعلها دار علم وفقه، يتلى بها كتابك، وتقام بها حدودك، واجعل أهلها مستمسكين بالسنة والجماعة، ما أبقيتها"⁵.

ولا عجب فقد كان المولى إدريس نفسه من العلماء، وصفه ابن زرع بأنه كان "فصيحا بليغا أديبا عاملا بكتاب الله تعالى قائما بحدوده، راويا لحديث النبي ﷺ عارفا بالفقه والسنة والحلال والحرام وفصول الأحكام"⁶.

5 - الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع : 45.

6 - نفسه : 30.

كما أحاط نفسه ببعض العلماء كقاضيه عامر بن محمد بن سعيد القيسي تلميذ الإمامين مالك بن أنس وسفيان الثوري، وككاتبه عبد الله بن مالك المالكي الخزرجي الأنصاري⁷.

ثم كان من ملوك الأدارسة بعده يحيى بن إدريس بن عمر "أعلى بني إدريس قدرا وصيتا ... فقيها حافظا للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان"⁸.

والظاهر أن ما عرفه المغرب من فتن وقلاقل بعد وفاة إدريس الثاني طيلة حكم الدولة الإدريسية إلى أن انتهى أمرها بكتابة الأمير يحيى بن إدريس بن عمر بالبيعة لعبيد الله الفاطمي صاحب إفريقية ... لم يكن ملائما لمجالس علمية سلطانية.

كما أن الفترة التي جاءت بعد العهد الإدريسي إلى قيام دولة المرابطين، كانت فترة قلقة مضطربة ...

نعم عرف العهد الإدريسي قمما علمية شامخة، خلدت كتب التراجم والرجال أسماءهم بما يستحقونه من تقدير وإكبار، كما وفد على المغرب علماء من المشرق والأندلس وإفريقية مثل علماء الربرض النازحين من قرطبة، وعلماء القيروان الفارين من ظلم العبيديين وتسلطهم، والذين ادخر الله لهم تأسيس جامع القرويين بمبادرة سيدة منهم هي أم البنين الفهرية في عهد يحيى بن محمد بن إدريس.

بداية المجالس العلمية السلطانية بالمغرب

لعل أقدم مجلس علمي سلطاني بارز بالمغرب، هو ذلك المجلس الذي انعقد في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، بجامع ابن يوسف بمراكش لمناظرة محمد المهدي بن تومرت، والذي انتدب له قاضي المرية محمد بن أسود⁹، بحضور عدد من فقهاء المرابطين.

قال صاحب المعجب : "... فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب، كان قد شارك في جميع العلوم، إلا أنه لا يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان، وكانت لديه فنون من العلم "... ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة"¹⁰.

7 - نفسه: 32، 35.

8 - الأنيس المطرب بروض القرطاس: 96.

9 - هو أبو بكر محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن أسود الغساني من أهل المرية، روى عن أبي علي الغساني وغيره وله رحلة إلى المشرق لقي فيها أبا بكر الطرطوشي وأبا الحسن بن مشرف وغيرهما وشوور ببلده لمعرفته ومنصبه واستقضي بمرسية فلم تحمد سيرته فيها، ثم صرف عن ذلك وسكن مراكش وتوفي بها في رجب من سنة 536هـ - الصلة: 584/2 وله ترجمة ضافية في المعجم في أصحاب القاضي الصديقي: 130-132 وفيه : وتوفي بمراكش في نكته سنة 536 انظر : التشوف: 119 وما بعدها.

10 - المعجب: 271-272.

ويبدو من خلال ما أحاط بذلك اللقاء المشهود من مبالغة وغموض أنه ما يزال في أمس الحاجة إلى مزيد من البحث والدراسة لسبر أغواره والكشف عن أسرارهِ ...

في هذا العهد - إذن - انطلقت المجالس العلمية بالمغرب، في عصر ازدهرت فيه العلوم والآداب والفنون، حتى أشبهت حضرة مراكش حضرة بغداد في صدر دولة بني العباس¹¹، واجتمعت ليوسف بن تاشفين وابنه علي من بعده، قامات علمية وأدبية شامخة من أمثال ابن رشد الجد وأبي بكر بن العربي والقاضي عياض وميمون بن ياسين الصحراوي اللمتوني وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأبي بكر بن القصيرة وغيرهم ...

المجالس السلطانية على عهد الموحدين

أصبحت هذه المجالس تسمى على عهد الموحدين بالمجامع، ويحضرها عدد من كبار علماء المغرب والوافدين عليه من أقطار أخرى وفق ترتيب معلوم حيث تنعقد تحت الرئاسة الفعلية للخليفة، الذي يفتتح المجلس بنفسه، بمسألة علمية معينة، يلقيها مباشرة أو بالإشارة، ثم يعود في النهاية ليتولى الختم بالدعاء والوزير يؤمن جهرًا لإسماع من بُعد من الناس¹².

واستدعي لهذه المجالس فطاحل العلماء من المغرب والأندلس كأبي زيد السهيلي (ت 581هـ) وأبي عبد الله بن الفخار المالقي (ت 590هـ)، وأبي محمد بن الفرس، وأبي محمد عبد الله بن محمد بن ذي النون الحجري (ت 591هـ) ... استدعاه المنصور إلى مراكش، وأجلسه بجامعها الأعظم لإسماع الحديث النبوي، فأسمع في نحو سنة خمسة وخمسين ديواناً¹³.

ومنهم أبو بكر بن زهر الوزير الطبيب (ت 595هـ) "ذكر عنه ابن الجدة أنه كان يحفظ كتاب البخاري بأسانيده"¹⁴ وأبو الحسن علي بن محمد ابن الحصار (كان حيا سنة 606هـ) كان محدثا راوية ... ألف كتاب "المدارك في رفع الموقوف ووصل المقطوع من حديث مالك" سكن مدينة مراكش¹⁵ وأبو عمر أحمد بن هارون بن عات النفزي من شاطبة (ت 608هـ): قال في عنوان الدراية في سياق الحديث عن أبي الخطاب ابن دحية الكلبي وامتحانه في المشرق في أحاديث بأسانيد ذكروها له حولوا

11 - المعجب: 243.

12 - نفسه: 485.

13 - صلة الصلة: 114-119/3 مظاهر النهضة الحديثية: 9/2 - التكملة.

14 - الأنيس المطرب: 271.

15 - صلة الصلة: 124/4.

متونها، وأنه أعاد الأمور إلى نصابها: "وأخبرني شيخنا أبو عبد الله الخطيب أن مثل هذه الحكاية اتفقت لأبي عمر ابن عات بمراكش في كتاب مسلم بيت الطلبة منها...¹⁶.

ومنهم عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري (ت 616هـ)¹⁷ وعمر ابن محمد الصنهاجي (ت 622هـ)¹⁸ وعمر بن محمد القيسي (ت 626هـ)¹⁹ وأبو الحسن ابن القطان (ت 628هـ)²⁰ وعمر بن مودود بن عمر شرف الدين أبو البركات الفارسي (ت 639هـ) ... ورد مراكش في حدود 635هـ أسمع الحديث وكتب الرقائق والتصوف، روى عنه جماعة من أهلها ومن المستوطنين بها من غيرهم²¹ وأبو عبد الله بن المواق المراكشي (ت 642هـ) قام بالتعقيب على نقد شيخه ابن القطان (بيان الوهم والإيهام)²² وأبو الحسن علي بن عبد الله ابن قطرال (ت 651هـ)²³ كان يستضعف القول بالإجازة²⁴ وأبو بكر محمد بن أحمد ابن محرز الزهري (ت 655هـ)²⁵ وغيرهم.

ومن بركات هذه المجالس، أنه كان من علمائها عالم اسمه يحيى بن أبي الحجاج (ت 590هـ) أحضره المنصور الموحي مجالسه بعد تحقق ما استخرجه من تفسير ابن برجان من خلال كلامه على سورة الروم (الم غلبت الروم) "أن فتح بيت المقدس سيكون في الوقت الذي فتح فيه على المسلمين، حيث وضع وعين ما كان أغمض فيه ابن برجان وأبهم، فبقي المنصور مرتقبا ومعتنيا في نفسه به حتى كان ذلك على حسب ما قاله"²⁶.

وإلى جانب هذه المجالس السلطانية، كانت هناك مجامع أميرية، كمجالس الأمير أبي زكرياء يحيى بن يوسف بن عبد المومن الموحي - على سبيل المثال -، ومن كان يحضرها عبد الواحد

16 - عنوان الدراية للغبريني: 272.

17 - مدخل إلى تاريخ العلوم: 62.

18 - نفسه: 139-237.

19 - نفسه: 237-235.

20 - الذيل والتكملة: س 8/ق 1/ ص 165 - 195.

21 - الذيل والتكملة: 243-240/1/8.

22 - مدخل إلى تاريخ العلوم: 91/2.

23 - الذيل والتكملة: س 8/ق 1/ ص 154-159.

24 - صلة الصلة: 144/4.

25 - عنوان الدراية: 283 / مدخل إلى تاريخ العلوم: 62.

26 - كتاب صلة الصلة لابن الزبير: 254/5 - تحقيق: د. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب (طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب).

المراكشي صاحب كتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" ومن هذه المجالس في هذا العصر، مجلس صاحب سبته الأمير أبي يحيى بن أبي زكرياء.

قال المقرّي في "نفح الطيب": "قال ابن سعيد: أخبرني والدي فقال: كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن، فجرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين إلى آخر القصة²⁷.

كما كانت هناك مجالس خاصة، يعقدها بعض العلماء في بيوتهم في إطار حلقات علمية، كمجلس علي بن عبد الله الأنصاري أبي الحسن بن قطرال (ت 651هـ) فكان كثير من طلبة العلم بمدينة مراكش يتتابونه - بداره - للرواية عنه²⁸.

أقدم نصين في صفة المجالس الحديثية بالمغرب

أحاط ملوك الموحدون المجالس العلمية عامة، ومجالس الحديث بصفة خاصة بعناية فائقة، وكان من أبرز محدثي المغرب الكبار في هذه الحقبة وأبعدهم صيتاً، أبو الحسن علي بن القطان الكتامي الفاسي المراكشي (562-628هـ).

كان يعقوب المنصور يؤثره على غيره من طبقته، ومن أجل ذلك عينه لقراءة الحديث الذي يقرأ بين يديه، ومن الطريف اللطيف، أنه كانت العادة اتباع القارئ البسملة والتصلية، بالدعاء للمنصور بالرضى، لكن ابن القطان حين فرغ من التصلية، عرضت له حبسة كانت تعتريه أحياناً، فمكث قليلاً ثم قال: ورضي الله عنكم، فاستبشر لذلك المنصور وقال: "هكذا ينبغي أن يقرأ الحديث من يقرأه بين أيدينا، فاصلاً بين الدعاء لنا، والتصلية المتبعة بالبسملة، وبين حديث النبي ﷺ"²⁹.

وكان يتولى السرد في هذه المجالس، علماء أجلاء، مثل أبي عبد الله محمد العجلاني الفاسي (ت 609هـ) فقد كان المعين لقراءة الحديث بين يدي الأمراء والسلاطين...

ولعل هذا النص والذي قبله، أقدم ما وصل إلينا في وصف المجالس الحديثية المملوكية بالمغرب، وعلى هذه السنة التي سنّها الموحدون، سار ملوك المرينيين، ثم السعديين والعلويين إلى الآن كما سيأتي مفصلاً...

27 - نفح الطيب: 138/2.

28 - الذيل والتكملة: السفر 8 / القسم 1 / ص 155 تحقيق: د. محمد بن شريفة (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية).

29 - نفسه: س 8 / ق 1 / ص 169.

المجالس السلطانية في العصر المريني

عرف هذا العصر نهضة علمية مباركة بفضل عناية المرينيين بالعلم والعلماء وشغفهم بذلك حيث أسسوا المعاهد والمدارس والخزائن والمكتبات ومساكن الطلبة وكان السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق "معظما للعلماء مقربا لهم"³⁰.

وظهر في هذا العصر علماء مغاربة فطاحل في تخصصات مختلفة كابن رشيد السبتي المحدث والرحالة الشهير، وأبي محمد بن عبد الملك المراكشي المحدث والمؤرخ الناقد الفذ، وأبي العباس أحمد بن عثمان بن البناء العددي مفخرة المغرب في الرياضيات وغيرها من العلوم، وأحمد بن زروق محتسب الصوفية، ومحمد بن آجروم صاحب الآجرومية الذائعة الصيت، ومحمد بن بطوطة الطنجي الرحالة الشهير وغيرهم.

ومن العلماء الكبار الوافدين في هذا العصر على المغرب محمد بن إبراهيم الآبلي الشيخ المحقق نسيج وحده في العقلية، وابن خلدون وابن الخطيب وابن جزري والمقري وابن مرزوق وغيرهم...

وللإشارة فإنه ابتداء من عهد المرينيين سيترسخ اسم "المجالس العلمية" بعد أن كانت تسمى في عهد الموحيدين بالمجامع، وقد أشار أبو العباس الونشريسي في المعيار³¹ إلى مجلس علمي سلطاني أقيم في فاس بين يدي الخليفة المريني للنظر في مسألة نزلت بتلمسان واختلف رأي الفقهاء فيها، وكان ذلك أول سنة 879هـ.

كما عرفت مراكش أوائل العهد المريني، مجلسا علميا وأديبا للأمير أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، أنعش الحياة الثقافية بهذه المدينة العالمة، بعد فتورها إن لم نقل بعد موتها، مع انقراض الدولة الموحدية.

المجالس السلطانية في العصر السعدي

من أبرز مجالس هذا العهد مجالس أحمد المنصور الذهبي خاصة منها:

أولا - مجلس صحيح البخاري: اشتهر سرد صحيح الإمام البخاري وقراءته بالمغرب عند المتأخرين بأبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن غازي العثماني المكناسي الإمام الحافظ شيخ

30 - الأنيس المطرب بروض القرطاس: 389.

31 - المعيار المغرب: 88/10.

الجماعة (ت 919هـ)، كان يُسمَع صحيح البخاري في كل رمضان وله عليه كما قال أحمد بابا التمبكتي في النيل: تقييد نبيل³² وعلى منواله سار المغاربة من ذلك العهد إلى اليوم.

وعلى ذلك كان المنصور الذهبي حيث كان "إذا دخل رمضان سرد القاضي وأعيان الفقهاء كل يوم سفرا من نسخة صحيح البخاري وهي عندهم مجزأة على خمسة وثلاثين سفرا، في كل يوم سفر إلى يوم العيد، فإذا كان يوم سابع العيد ختم فيه البخاري وتهياً له السلطان أحسن تهية، إلا أن العادة الجارية عندهم في ذلك أن القاضي يتولى السرد بنفسه، يسرد نحو الورقتين من أول السفر ويتفاوض مع الحاضرين في المسائل، ويلقي من ظهر له بحث أو توجيه ما ظهر له ولا يزالون في المذاكرة فإذا تعالى النهار، ختم المجلس وذهب القاضي بالسفر فيكملة سردا بداره، ومن الغد يسرد سفرا آخر وهكذا، والسلطان في جميع ذلك جالس قريبا من حمى الحلقة قد عين لجلوسه موضع"³³.

قال الإفرائي: "رأيت بخط الشيخ القصار ما صورته: وقلت لما أجاز سيدي رضوان بن عبد الله الجنوي أمير المؤمنين السلطان أبا العباس أحمد المنصور ما نصه³⁴:

روى البخاري أمير المؤمنين ❀ الحسني المنصور ذو الفتح المبين
عن الولي سيدي رضوان ❀ عن سيدي سفين السفياني

وكان المنصور "إذا قرئ بين يديه البخاري أو غيره صدرت منه أبحاث رائقة واعتراضات فائقة لا يمكن التقصي منها ولا الجواب عنها" على حد تعبير صاحب النزهة³⁵.

وإلى جانب ذلك كان يورد إشكالات صعبة...³⁶، كما كان علي بن منصور الشيطمي ابن المرابط من أهل مراكش يورد كثيرا من الأسئلة الدالة على رسوخ قدمه في الفنون...³⁷.

ثانيا - مجلس أوقليدس - إقليدس - : قال المقرئ في روضة الآس: "كان أحمد المنصور الذهبي قد فتح الله عليه في فهم كتاب أوقليدس من غير شيخ لعزة وجوده في المغرب..."³⁸.

32 - نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي: 582 - تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة - منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس ليبيا.

33 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفرائي: 231 - تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي.

34 - نزهة الحادي: 211-212.

35 - نزهة الحادي: 214.

36 - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأحمد بن محمد المقرئ: 36 (المطبعة الملكية - الرباط).

37 - نفسه: 173.

38 - نفسه: 35 وانظر: نزهة الحادي: 211.

وكان الحسن المسفيوي من أهل مراكش من يتولى قراءة أوقليدس بين يدي المنصور...³⁹

ومن ثم فلا غرابة أن يعتبر بعض العلماء أحمد المنصور مجدد ذلك القرن قال مفتي مراكش عبد الواحد الفيلاي من قصيدة في الموالد الشريفة مخاطبا المنصور الذهبي :

ففيك أقول والنصوص شواهد ❁ أحاديث صحت ليس فيها منازع
بكم رأس ذا القرن جدد ديننا ❁ وفاضت بحور للعلوم دوافع⁴⁰

المجالس السلطانية على عهد الدولة العلوية

عرفت المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة نهضة كبيرة يتعذر الحديث عنها جميعها في مثل هذا الموجز وحسبنا هنا بعض الإشارات من قيام الدولة إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، على أن نستوفي الحديث عن هذه المجالس المنيفة إلى اليوم في مقال قابل بحول الله⁴¹.

في هذا السياق نقدم بعض النماذج على سبيل التمثيل: من ذلك مجالس السلطان المولى الرشيد، وكان كما في الجيش العرمرم "مجا في جانب العلماء، مؤثرا لأغراضهم، معظما لحرمتهم، رافعا لأقدارهم..." وكان مجلسه غاصا بأهل العلم يتجاذبون فيه أطراف الحديث ويتناشدون غرائب الأشعار⁴².

وعلى هذا النهج سار من بعده خلفه السلطان المولى إسماعيل الذي وصفه سان لوي سفير لويس الرابع بقوله: "أما أخص أوصافه فهو الاعتقاد الراسخ في الدين لا تأخذه في الله لومة لائم مستحضر لأي القرآن في كثير من أحواله مضح بنفسه في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمته وبالجمل، فإنه لم يظهر ملك ذو قوة وثبات على أصول الدين مثل مولاي إسماعيل منذ قرون".

ووصفه الفرنسي مويط وهو خارج للاستسقاء يوم 17 مارس سنة 1680م فذكر أنه كان قد ارتدى كساء باليا وسخا، وتعمم بعمامة بالية ثم خرج من القصر رفقة حاشية بلاطه حفاة حاسري

39 - روضة الآس: 163-164.

40 - نزهة الحادي: 234 وانظر تعليق الإفرائي في الصفحة بعدها.

41 - انظر: كتاب "المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة" للأستاذة آسية الهاشمي البلغيثي ففيه من الوصف الممتع، والتفاصيل الدقيقة لهذه المجالس ما يشفي الغليل...

42 - الجيش العرمرم: 117/1.

الرؤوس يتبعهم جمهور المدينة على هيئة ماثلة فزار في هذا الموكب جميع أضرحة الأولياء واستمر ذلك من الصباح إلى الرابعة عشية⁴³.

وهي بعض ملامح شخصية المولى إسماعيل الذي ظل على الرغم مما حققه من انتصارات باهرة، وإنجازات رائعة، متواضعا لله سائرا على سنن السلف الصالح يقتفي أثرهم ويعض بالنواجذ على الكتاب والسنة، ومجالسه العلمية السلطانية - رحمه الله - كثيرة ومتنوعة تأتي في طليعتها مجالس تفسير القرآن الكريم وما تتوج به من حفل ختمه.

ومما تناقلته كتب التاريخ في هذا الصدد استدعاء السلطان المولى إسماعيل العلماء عام (1101هـ) إلى قصره في مكناس لحضور ختمة قاضية أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي لتفسير القرآن الكريم فحضرها وأكرمهم ووصلهم جميعا (9).

وكان مما ميز هذا العصر الإسماعيلي ازدهار الحديث وعلومه ازدهارا كبيرا، وكذلك ما كان للمرأة المغربية العاملة من دور في النهضة العلمية ومن أبرز الأمثلة على ذلك المشاركة الوازنة في هذا المجال للأميرة العاملة خاتمة بنت بكار - أشهر زوجات المولى إسماعيل - وهي التي حاجت علماء المشرق وأسهمت في التأليف في علوم الحديث بتعاليقها على فتح الباري لابن حجر.

فإذا ما انتقلنا إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله فسنجد قد اهتم بهذا الأمر اهتماما عظيما وقطع به إلى الأمام أشواطا بعيدة.

ومعلوم أن مقر إقامة السلطان المولى محمد بن عبد الله كانت بمراكش، حين كان خليفة لأبيه، ثم لم يلبث أن جعلها عاصمة لملكه بعد تربيته على عرش أسلافه الميامين، واشتهر باقتفاء أثر أحمد المنصور الذهبي في المجالين العلمي والأدبي⁴⁴.

وقد جمع حوله ثلة من كبار علماء المغرب، يسردون له كتب الحديث ويناقشون معانيها، ويؤلفون له ما يستخرجه منها وفق توجيهاته كما اعتاد في الغالب أن يجلس بعد أداء صلاة الجمعة داخل مقصورة الجامع بمراكش، وحوله فقهاؤها ومن يستدعيه من علماء فاس وغيرهم للكلام على الحديث الشريف، واستحضار معانيه وأحكامه⁴⁵.

43 - مذكرات من التراث المغربي 45/4.

44 - انظر: الجيش العرمرم: 241/1.

45 - الاستقصاء: 66/8.

ويعتبر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بحق مرسخ كثير من تقاليد المجالس العلمية السلطانية بالمغرب خاصة الحديثية منها، لتعلقه بالحديث النبوي الشريف واشتغاله به والتأليف فيه بعد أن قضى مرحلة الشباب في العكوف على الأدب والتاريخ وغير ذلك من المعارف مما ندم عليه فيما بعد كما عبر عنه بمثل قوله: "والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة" وكان قبل ذلك قد كاد يحفظ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على كبره.

ولا عجب فقد كان كما نقل أكنسوس عن القائد أبي مروان عبد الملك "من نظراء الرشيد والمأمون وعبد الملك بن مروان ويعقوب المنصور والمنصور بن أبي عامر وأمثالهم"⁴⁶.

وقال مولاي عبد السلام نجل السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سياق حديثه عن والده: "كان له ولوع بمجالسة الفقهاء واعتناء عظيم بهم وبمذاكرتهم وإلقاء المسائل الغريبة عليهم وتعجيزهم بها يريد بذلك مباسطتهم واستخراج ما عندهم من ذلك..."⁴⁷.

وبعد فللحديث بقية خصوصا وأن هذه المجالس العلمية السلطانية عرفت تطورا فاق كل التوقعات حيث أصبحت في الأول تنعقد من حيث الزمان موزعة على شهور: رجب، وشعبان، ورمضان، وهو ما كان معمولاً به على عهد جلالة المغفور محمد الخامس طيب الله ثراه. أو الاقتصار على شهر رمضان وحده، وهو ما استقر عليه الأمر على عهد جلالة المغفور له الحسن الثاني قدس الله سره، حيث أصبحت تنطلق في الأيام الأولى من شهر رمضان، وتنتهي بختم صحيح الإمام البخاري في ليلة القدر المباركة.

وقد سارت منذ ذلك العهد إلى عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله على درب الرقي والتطور بخطى ثابتة واعية بدقة العصر ومتطلباته، دون أن تقطع الصلة بالماضي التليد في إيجابياته وإشراقه، مما سيأتي تفصيل القول فيه في مقال قادم بحول الله وعونه.

46 - الجيش العرمم: 265/1.

47 - الجيش العرمم: 214/1.

المجالس السلطانية في العصر المريني

ذ. أحمد بلخيري
أستاذ باحث، فاس

مقدمة:

كل من تناول الحديث في موضوع المجالس السلطانية يتبادر إلى ذهنه التساؤل عن المرحلة التاريخية التي برزت فيها الظاهرة والتطورات التي مرت بها.

وفكرة المجالس العلمية فكرة قديمة في تاريخ الدولة الإسلامية، وقد برزت في المغرب في العهد المرابطي والموحدي، وكان يطلق عليها مجالس الفقهاء، ولم يطلق عليها المجالس العلمية إلا في العهد المريني ثم السعدي¹.

المجالس العلمية في العهد الموحدي:

يستشف من خلال المعجب للمراكشي عند الحديث عن جامع سير المصامدة وأخبارهم، أن الخلفاء الموحدين حرصوا منذ بداية نشأة الدولة على عقد هذه المجالس، وقد جرت عاداتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر، وسموهم طلبة الحضر، ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ، فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه، كان عبد المومن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم² ويعطي المرحوم المنوني عند الحديث عن حضارة الموحدين وازدهار المعارف بالمغرب خلال هذه المرحلة معلومات ضافية عن هذه المجالس التي يطلق عليها مجامع الخلفاء.

1 - عبد الحق المريني: نشر في ميثاق الرابطة يوم 2010/05/7.

2 - عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب شرحه واعتنى به الدكتور صلاح الدين الهواري ط: 1، 2006 ص 246.

مجامع الخلفاء:

كانت هذه المجامع يعقدها خلفاء الموحدين مع أشياخ الموحدين وكبار العلماء من الواردين عليهم من مختلف الجهات، وكانت حافلة بالمذاكرة والمناظرة في أنواع العلوم لما كان يحضرها من علماء وأدباء وأطباء وفلاسفة من مغاربة ومن الواردين على المغرب، ولم تكن هذه المجامع خاصة بفن بل كانت تتناول غير ما فن، وكان لكل فن مجلس، فهناك مجلس للمذاكرة في الآداب، ومجلس للمذاكرة في العربية وهلم جرا.

وكانت هذه المجالس مطبوعة بطابع النظام حتى في ترتيب الجلوس فكان يجلس إلى جانب الخليفة خطيبه فقاضي الجماعة بمراكش فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم، وكان يجب أن يراعي الحاضرون في هذه المجامع ما يجب لمجالس الخلفاء من التزام الجد والمحافظة على الآداب الملوكية³.

وعدد المنوني العديد من أسماء العلماء الحاضرين بهذه المجالس نقلا عن المصادر الموحدية والتي تشير إلى أن الأمراء الموحدين بدورهم كانوا يعقدون هذه المجالس.

مجامع الأمراء:

والأمراء هم الآخرون كانت لهم مجامع علمية منها مجالس الأمير أبي زكرياء يحيى ومن كان يحضرها عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب، ومنها مجلس صاحب سبتة الأمير أبي يحيى الذي ضم أبا الوليد الشقندي وأبا يحيى بن المعلم الطنجي، حيث وقعت المناظرة في المفاضلة بين الأندلس والمغرب وكان من فوائد هذا المجلس أن كتب كل من الشقندي وأبي يحيى الطنجي رسالته⁴.

الازدهار الثقافي في العصر المريني

يجمع جل المؤرخين على التطور الفكري والعمراني الذي شهده المغرب خلال فترة الحكم المريني ورعايتهم للعلم والعلماء وتشجيع دور العلم، بل هناك من أكد أن هذا العصر امتاز على الخصوص بنهضة أدبية كبرى لم يسبق للمغرب أن عرفها من قبل والدليل على ذلك بروز عدد كبير من الشخصيات العلمية والأدبية ووجود إنتاج فكري ضخم⁵.

3 - محمد المنوني: حضارة الموحدين دار توبقال سلسلة المعرفة التاريخية ط: 1989 ص 30.

4 - محمد المنوني: حضارة الموحدين ص 32.

5 - محمد بنشقر: النهضة الأدبية والفنية على عهد بني مرين مجلة البحث العلمي ع 13 يناير 1968 ص 33.

وكان بنو مرين في جملتهم على جانب كبير من الثقافة العربية بل كان بعضهم مبرزين في ميادين العلم والأدب، وكان بلاطهم مدرسة تعج بالأساتذة ورجال العلم يقصدونه من كل حذب وصوب، فكلما بلغت شخصية في الأدب أو في الفكر إلا وجد اسمها ضمن مشاهير العلماء الذين كانوا يعيشون في ظل ملوك بني مرين وأمرائهم⁶.

بل إن بعض ملوك بني مرين كانوا يعيشون حياة علمية أدبية إلى جانب حياتهم السياسية والحربية، ويختارون لمرافقتهم حاشية فيها، الفقيه والمحدث والمؤرخ والشاعر والكاتب والتعاليمي والمهندس والطبيب⁷.

ويؤكد الأستاذ محمد الفاسي أن القرن الثامن الهجري من العصور التي ازدهرت فيها العلوم والآداب في المغرب العربي كما امتاز بتبادل ثقافي واسع النطاق، مما جعل علماء هذا العصر وأدباءه وكتابه يجوبون هذه الأقطار آخذين بعضهم عن بعض ومشتغلين في الوظائف العلمية والقضائية والحكومية⁸.

المجالس السلطانية في العصر المريني الأول

تعتبر سنة 667هـ البداية الشمولية للحكم المريني بالمغرب، كما يعتبر التاريخ ذاته مبدأ العصر المريني الأول، من حكم أبي يوسف يعقوب إلى وفاة أبي سعيد الأول عام 731هـ.

ويأتي في مقدمة عوامل الازدهار الثقافي في العصر المريني الأول بناء المدارس وإلحاق خزائن الكتب ببعضها والإنفاق على العلماء والطلبة وإجراء المرتبات على الشعراء⁹.

وكان بعض سلاطين وأمراء هذه الفترة على جانب من الثقافة يعقدون المجالس العلمية للمذاكرة والمناظرة، كما أن جميع هؤلاء يقدرون رجال الفكر ويرفعون مكانتهم، فهذا أبو يوسف ماهد الدولة كان من عاداته بعد صلاة الصبح أن يقرأ بين يديه إلى وقت الضحى كتب السير والقصص وفتوح الشام فيستمع إليها ويناقش الحاضرين في مشكلاتها، وفي ليالي رمضان يسمر مع العلماء ليذاكرهم في فنون العلم إلى ثلث الليل الأخير¹⁰.

6 - محمد بنشقرن: مجلة البحث العلمي ع. 14، 15 دجنبر 1969 ص 67.

7 - عبد القادر زمامة: بنو مرين بفاس مجلة البحث العلمي ع. 27 يوليو 1977 ص 271.

8 - ابن قنفذ: أنس الفقير وعزالحقير اعتنى بنشره محمد الفاسي منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي 1965 "ب".

9 - محمد المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين منشورات كلية الآداب بالرباط 1979 ص 193.

10 - محمد المنوني: ورقات عن الحضارة، مرجع سابق ص 194.

وترد إشارات متعددة عن هذه المجالس لدى ابن أبي زرع في الذخيرة، وكان الأمير عبد الواحد رحمه الله محبا للآداب والتاريخ مقربا للعلماء والفقهاء والشعراء يذاكرهم واختص بمجالسته ومناذمته ومسامرته جماعة من أهل الأدب والفقهاء منهم القاضي الزكي يوسف بن حكم وكان من أهل الأدب البارع مشاركا في علوم كثيرة أخذ عن جماعة من فقهاء الأندلس وإفريقية وأدبائها، وكان من جلسائه الفقيه القاضي الأديب البليغ البارع علي بن محمد المغيلي ومنهم الفقيه الأديب مالك بن المرحل وكان يكتب له الرسائل، ومنهم الفقيه الأديب أبو عمران التميمي ومنهم عبد العزيز الملزوزي¹¹ الذي يشير في أرجوزته نظم السلوك إلى اهتمام أمراء بني مرين الأوائل بالقضايا العلمية إلى جانب انشغالهم السياسية والحربية.

سيرته إن يقرأ الكتاب ✱ ويذكر العلوم والآداب
يقرأ أولا كتاب السير ✱ والقصص التي بكل خبر
ثم فتوح الشام باجتهاد ✱ وبعده المعروف بالأنجاد
سؤاله تعجز عنه الطلبه ✱ ومن لديه من أجل الكتب
مجلسه ليس به فجور ✱ ولا فتى في قوله يجور¹²

وكان الشاعر الملزوزي من المشاركين في المجالس السلطانية المرينية كما يشير إلى ذلك الأستاذ عبد الله كنون.

وكان المنصور شديد التقريب للملزوزي فرافقه في جميع حركاته، وأما ولده وولي عهده الأمير أبو مالك فإنه اتخذ الملزوزي من بطانته وأهل مجلسه¹³.

ومن خلال هذه الحيوية المشهودة استعادت الثقافة المغربية نشاطها في ظل العصر المريني الأول، كانت فاس بفضل مدارسها وجامع القرويين موطنًا للعلوم الشرعية واللسانية¹⁴ حتى أطلق عليها دار فقه المغرب وهو ما أشار إليه صاحب القرطاس فهي في القديم والجديد دار علم وفقه وحديث وعربية وفقهاؤها الفقهاء الذين يقتدي بهم جميع فقهاء المغرب لم يزل ذلك على مر الزمان¹⁵.

11 - علي بن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية دار المنصور 1972 ص 123.

12 - أبو فارس عبد العزيز الملزوزي، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية الرباط 1963 ص 77.

13 - عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة دار ابن حزم ط: 2010 ص 950.

14 - محمد المنوني: ورقات عن الحضارة، مرجع سابق ص 201.

15 - ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور الرباط 1973 ص 36.

دور المجالس السلطانية في ترسيخ المذهب المالكي

لم يدخر المرينيون جهدا في إظهار أنفسهم كحماة رسميين للإسلام السني المالكي قصد توطيد دعائم ملكهم¹⁶ فما الذي فعله بنو مرين لتكوين كفاءات فقهية تتبنى المذهب المالكي وتسد الفراغ الحاصل في هذا الباب بمجموع التراب الذي شملته إمبراطوريتهم؟

إنهم أنشأوا سلسلة من المدارس في جهات متعددة من المغربين الأقصى والأوسط، وكونوا في عصر عظمتهم مجلسا علميا يضم أبرز الشخصيات الفقهية والقضائية والفكرية¹⁷ وهو ما خلص إليه الأستاذ القبلي، لذا فإن حكام فاس الجدد لم يلبثوا أن قرروا الشروع في إقامة المدارس السنية مباشرة أي منذ سنة 675هـ. وذلك رغبة منهم في الإعلان رسميا عن تمذهبهم الأساسي بمذهب مالك¹⁸.

يعد ترسيخ دعائم المذهب المالكي بعد الهزات التي تعرض لها خلال الحكم الموحيدي من بين دواعي إنشاء المجالس العلمية. وعلى كل حال فإن مذهب أهل السنة سواء في الاعتقاد أو الفقه قد توطد منذ هذا العصر في المغرب¹⁹. ذلك أن المرينيين عبروا عن ولائهم للمذهب المالكي الذي أصبح اختيارا نهائيا بالنسبة للمجتمع في جملته، وتبنوا العقيدة الأشعرية، وهكذا حسمت مسألة الاختيارات العقدية والمذهبية في العصر المريني والتزم بها كل من المجتمع والدولة كما مثلت أرضية أساسية للتوافق بين الحاكم والمحكوم²⁰ وهكذا عاد المذهب المالكي للظهور وظهر الارتياح على لسان العديد من الشعراء منهم مالك ابن المرحل الذي قال في هذا الصدد:

لا تخالف مالكا في رأيه ❀ فيه يأخذ أهل المغرب²¹

ويتجلى الحرص على أصول الاعتقاد بالمذهب المالكي دون سواه في هرم السلطة المرينية مجسدا في السلطان أبي الحسن من خلال الصورة التي نقلها ابن مرزوق في المسند الصحيح، كان رضي الله عنه على ما كان عليه من الاشتغال يعمر مجالسه بالقراءة والمذاكرة، وقرئ بين يديه إرشاد أبي المعالي

16 - إبراهيم حركات: الحياة الدينية في العهد المريني مجلة البحث العلمي ع. 29 - 30 1979 ص 209.

17 - إبراهيم حركات المرجع السابق ص 230.

18 - محمد القبلي: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل دار توبقال للنشر المعرفة التاريخية 1987 ص 113.

19 - عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي ط: 2 طنجة 1960 ص 184.

20 - محمد القبلي إشراف وتقديم تاريخ المغرب تحيين وتركيب منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب 2011 ص 257.

21 - محمد المنوني: ورفات عن الحضارة مرجع سابق ص 233.

فكان يصغي لما يلقي من أدلة أهل السنة وبيان مذهبهم فإذا عرضت أدلة المعتزلة والخارجين عن مذاهب أهل السنة يقول "دعوا هذا" ومهما ذكر مذهب من المذاهب الملفوطة ينهى عن الخوض فيه ويزجر ذاكره.²²

المجالس السلطانية في عهد السلطان أبي الحسن

السلطان أبو الحسن:

هو أكثر ملوك بني مرين شهرة تعرضت لسيرته العشرات من المصادر التاريخية، وكان نسيج وحده في العز والجلالة وبعد الصيت وفخامة الأثاث فمهد الملك وبنى المدارس الظرفية والمباني الشريفة، وقطع دهره في الجد فلا يرى إلا في مجلس معظم إلا لتدبير أو علم يدرس أو نسخ قرآن²³ وفي مدة توليه الحكم أكثر من مجالسة العلماء والأدباء ومذاكرتهم ومحدثهم وكان شديد الإلف لهم لا يصبر على مفارقتهم.²⁴

وقد خصه ابن مرزوق بتأليف خاص، والمعلومات المتوفرة عن ابن مرزوق تسمح لنا بأن نكون فكرة عن المسند الصحيح باعتباره مؤلفا ذا طابع خاص نظرا لإحاطته الثقافية الشاملة ولمعاصرتة ولعاشيته المؤلف للسلطان أبي الحسن ولمشاركته الفعالة المباشرة في أحداث الفترة.²⁵

ويبرر ابن مرزوق ذلك بقوله:

وخبرت من سيره الجميلة وخصاله الكريمة وشاهدت من شيمه العظيمة ما أعتقد أني اختصت في عصره بمعرفته.²⁶

وصمم ابن مرزوق كتابه لكي يسرد سيرة السلطان أبي الحسن من خلال فصوله الخمسة والخمسين فحمل الباب العشرون عنوان محبته في العلم وإيثاره لمن اتصف به.²⁷

22 - محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق الدكتورة ماريّا خيسوس بيغيرا الجزائر 1981 ص 133.

23 - محمد مقديش: نزعة الأنظار وعجائب التواريخ والأخبار تحقيق علي الزواري، محمد محفوظ دار الغرب الإسلامي ط: 1، 1988 المجلد الأول ص 525.

24 - عبد الله كنون: النبوغ المغربي مرجع سابق ص 188.

25 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 59.

26 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 59.

27 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 260.

المجلس السلطاني لأبي الحسن من خلال التعريف لابن خلدون والمسند لابن مرزوق

اعتبره العلماء ركنا هاما لإرساء دعائم النهضة الفكرية التي عرفها المغرب المريني، فإن ما عمله المرينيون يجعلهم حريين بلقب دولة العلم²⁸ وقد ترك لنا ابن خلدون في التعريف برحلته وابن مرزوق في المسند لوحة دقيقة للهيئة العلمية المشكلة لمجلس أبي الحسن، فعند الحديث عن مناقبه العلمية يواصل ابن مرزوق حديثه قائلا:

ولنسرد الآن من حضرني ذكره من المشاهير الملازمين له ممن شاركته وأدركته وعاشرته أولا فأولا من حين مقدمي عليه إلى زمن وفاته²⁹.

أبو عبد الله السطبي: الفقيه الإمام خزانة مذهب مالك مع مشاركة تامة في الحديث واللسان، إمام الفريضة والمدرس في حضرته والمفتي، مكبا على النظر والقراءة والتقيد لا تراه أبدا إلا على هذه الأحوال حتى في المجلس السلطاني، وكان معظما عند إمامنا، قليل فضول اللسان لا يتكلم في المجلس حتى يسأل مات رضي الله عنه شهيدا غريقا³⁰ نعتة ابن خلدون بشيخ الفتيا وإمام مذهب مالك كنت أتاب مجلسه وأفدت عليه³¹.

أبو عبد الله الرندي:

الفقيه الحافظ النحوي أصل السلف الفاسي المستقر كان حافظا للمذهب إماما في العربية مقدما في النظر، وكان مكرما ملحوظا وقورا في مجالسه، له تأليف حسن أبان عن مقدار تعرفه وحفظه شرح فيه تفريع ابن الجلاب شرحا عجيبا لم يظهر من تواليه غيره وكانت كثيرة كما قيل³².

التسولي التازي:

الفقيه الإمام الحافظ التاريخي المشارك الفاضل أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر التسولي، كان قارئ شيخ الشيوخ أبي الحسن الصغير وكان قد جمع لذلك حفظ التاريخ المتقدم والقريب العهد والمعرفة بقبائل مرين، وكان أجمل الفقهاء محاضرة وأجمعهم مشاركة، وكثر استعماله في السفارات والتردد في الأمور المهمة³³.

28 - عبد الله كنون: النبوغ المغربي ص 185.

29 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 261.

30 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 261.

31 - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر المجلد السابع دار الكتب العلمية ط: 1992 ص 458.

32 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 262.

33 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 262.

ابن عبد الرزاق الجزولي:

الفقيه الإمام القاضي الخطيب أبو عبد الله بن عبد الرزاق الجزولي، نادرة وقته ووحيد عصره أخذ عن كبار المشايخ بفاس ثم رحل إلى تونس فأخذ بها عن جماعة من علمائها كان له التقدم بعلم الأصول بفاس وكان يعقد لذلك مجلسا في جامع القرويين لا يتخلف عنه فقيه معروف، وكان مؤيدا في الكتابة قد طاوله القلم والبيان مع براعة الخط وجودته³⁴.

عبد المهيمن الحضرمي:

الفقيه الإمام علم الإعلام أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي نادرة وقته وأعجوبة زمانه أحفظ الناس بعلم اللسان واللغة والأدب مع إمامته وتقدمه في علم الحديث والمعرفة برجاله كان هذا الفقيه آية في الحفظ والضبط والإتقان كان صاحب العلامة وإمام الكتبة واحد علماء الحضرة وأهل الشورى³⁵.

وصفه ابن خلدون بإمام المحدثين والنحاة، لازمته وأخذت عنه سمعا وإجازة الأمهات الست وكتاب الموطأ والسير لابن إسحاق وكتاب ابن الصلاح في الحديث كانت له خزانة من الكتب تزيد عن ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون³⁶.

أبو عبد الله الأبلي:

الأستاذ التعاليمي المحقق المشارك شيخ المغرب في العلوم العقلية وإمام وقته انتفع به في تونس وبلاد إفريقية خلائق وحصلت له مشيخة على الجميع ثم قدم المغرب في مدة المولى أبي عنان ولازم مجلسه وقرأ عليه المولى المذكور وحضر السلطان جنازته³⁷.

ابنا الإمام:

بعد استيلاء أبي الحسن على مدينة تلمسان لازمه الشيخان الإمامان الأوحدان إماما عصرهما أبو زيد عبد الرحمان وأبو موسى إبننا الإمام، رحلا إلى تونس فلازما علماءها ورحلا إلى المشرق فكان

34 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 263.

35 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 264.

36 - ابن خلدون كتاب العبر مرجع سابق ص 459.

37 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 267.

لهما به ظهور، ناظرا الحافظ تقي الدين بن تيمية وكان قاضي القضاة جلال الدين القزويني يثني عليهما كثيرا ويقول "بمثلهما يفخر المغرب"³⁸.

ابن الصباغ:

الفقيه أبو عبد الله محمد الصباغ من أهل مكناسة كان مبرزاً في المنقول والمعقول عارفا بالحديث وبرجاله، وإماماً في معرفة كتاب الموطأ وإقراءه أخذ العلوم عن مشيخة فاس ولقي شيخنا الأبي ولازمه واختاره السلطان لمجلسه فاستدعاه ولم يزل معه إلى أن هلك غريقاً³⁹.

أبو عبد الله الفشتالي:

ومن لازم مجلس مولانا المرحوم ولحق بعلماء حضرته القاضي أبو عبد الله الفشتالي نخبة المغرب ونادرة فقهاء فاس علماً وأدباً وحسن مشاركة استعمله في سماع الشكايات وفي الزكوات وألزمه حضور مجالسه العلمية⁴⁰.

أبو العباس الزواوي:

الأستاذ العلامة المشارك الذي لم ير في عصره أطيب نعمة ولا أحسن صوتاً ولا أنداء لم أر في المشرق والمغرب نظيراً له، هذا مع إتقان الضبط وإحكام الروايات وعلو السند له تصانيف في القراءات والعربية نظماً ونثراً⁴¹ يصفه ابن خلدون بأنه كان إماماً في القراءات وذا صوت من مزامير آل داود وكان يصلي بالسلطان التراويح ويقرأ عليه بعض الأحيان حزبه⁴².

ابن رضوان:

يقول عنه ابن خلدون، وكان ابن رضوان هذا من مفاخر المغرب في براعة خطه وكثرة علمه وإجادته في فقه الوثائق والبلاغة والترسيل عن السلطان وحوك الشعر والخطابة على المنابر لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان⁴³.

38 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 266.

39 - ابن خلدون كتاب العبر ص 470.

40 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 268.

41 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 269.

42 - ابن خلدون كتاب العبر ص 470.

43 - ابن خلدون كتاب العبر ص 460.

ويورد ابن خلدون قصيدة أبي القاسم الرحوي شاعر تونس في مدح ابن رضوان والعلماء القادمين مع السلطان منها:

هم القوم كل القوم أما حلومهم ❁ فأرسخ من طودي ثبير وثلان
فلا طيش يعرفهم وأما علومهم ❁ فأعلامها تهديك من غير نيران⁴⁴

ولم تقتصر مهمة هذه النخبة من العلماء على الأمور العلمية والدينية بل تجاوزتها إلى مهمة السفارات لدى الأمراء الحفصيين والزيايين وأمراء الأندلس، فعند الحديث عن ابن مرزوق يشير ابن الخطيب إلى المهمات التي أوكلت إليه من طرف السلطان أبي الحسن وأبي عنان، مما يبرز مقدار الثقة والحظوة التي بلغها علماء المجالس السلطانية. والسلطان في كل يوم يزيده رتبة فكان يستعمله في السفارة عنه إلى صاحب الأندلس ثم سفر عنه إلى ابن أدفونش ملك فشتالة في تقرير الصلح واستنقاد أبي تاشفين كان أسر يوم طريف⁴⁵ بل بعثه السلطان أبو عنان إلى تونس ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى⁴⁶.

وبالإضافة إلى الحظوة المعنوية والمكانة التي تمتع بها علماء البلاط المريني فقد كانوا يستفيدون من المرتبات والهدايا وإغداق النفقات عليهم. وأما كاتب السر وهو الفقيه الإمام العالم أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي فله كل يوم مثقالان من الذهب وله مجسران يعني قريتين يتحصل منهما متحصل جيد وله رسوم كثيرة على البلاد ومنافع وإرفاقات⁴⁷.

الكتب المتداولة بالمجالس السلطانية

أفرد ابن مرزوق الباب الحادي والعشرين من المسند الصحيح فيما كان يؤثره السلطان أبو الحسن من العلوم، كان أحب الأشياء إليه سماع الحديث يقرأ بين يديه، وكان يستكثر من سماع جامع البخاري قرأته عليه مرات⁴⁸ وقرأت بين يديه غير مرة كتاب الشفاء وفضله معروف وثناء الجلة عليه مشهور، وقرأت بين أيديهم السيرة لابن إسحاق تهذيب ابن هشام، وقرأت بين أيديهم كتاب الاكتفاء للإمام أبي الربيع سليمان الكلاعي وختمته ثلاثاً، وقرأت بين أيديهم كتاب الحلية للحافظ أبي

44 - ابن خلدون كتاب العبر ص 460.

45 - ابن خلدون كتاب العبر ص 473.

46 - ابن خلدون كتاب العبر ص 474.

47 - محمد المنوني ورقات ... مرجع سابق ص 309.

48 - ابن مرزوق المسند الصحيح مرجع سابق ص 971.

نعيم الأصبهاني وكتاب المدهش لابن الجوزي مرات، وجملة وافرة من تفسير الثعالبي وتفسير القرطبي، إلى غير ذلك مما قرأته في مدة ملازمتي له من كتب الوعظ والحديث، ومن كتب التاريخ، والكتب المرفوعة له كتأليف أبي عبد الله العزفي والقصائد المرفوعة له كالمولديات وغيرها وقرأت بين يديهم الأربعين التي خرجتها من مرويته، وهي في جملة الكتب المحبسة بجامع القرويين وهي بخط المولى أبي عنان رحمه الله⁴⁹.

المجالس السلطانية في عهد أبي عنان:

أبو عنان:

هو ملك العلماء وعالم الملوك، الأديب المناظر المحاور الفقيه المحدث الشاعر مكرم الأدباء ومتفقد العلماء ذو الخط الحسن الحافظ للقرآن الكريم العارف بناسخه ومنسوخه، العارف بالمنطق وأصول الدين والحساب⁵⁰ ويقول صاحب رقم الحلل: هو السلطان أبو عنان الملك الكبير المجدد المحظوظ العالم العلم البعيد الهمة المترامي إلى الغاية⁵¹.

وخلص الأمر لكف فارس ❀ باني الزوايا الكثر والمدارس
واستجلب الأمثال الكبار ❀ والنبهاء العلية الأخيارا

هو الملك العالم بالمفروض والمندوب، ماثور العلم والكرم وكانت الملوك تبجله ومقصده تعجله ولا تؤجله⁵².

مجلسه:

من أعظم المجالس العلمية والأدبية في عصره، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق بحرصه الشديد على أن يضم هذا المجلس أشهر الشخصيات الثقافية من فحول الشعراء وفطاحل العلماء كأبي الحسن علي الخزاعي، والكاتب الشهير محمد بن جزى الكلبي مدون رحلة ابن بطوطة وأبي العباس أحمد بن عبد المنان⁵³ ويستعرض ابن خلدون في التعريف أبرز علماء المجلس العلمي لأبي عنان مبتدأ بنفسه بتوليته الكتابة عن السلطان.

49 - ابن مرزوق المسند الصحيح ص 277.

50 - ابن الحاج النميري: فيض العباب وإفاضة قدح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب دراسة وإعداد الدكتور محمد بن شقرون دار الغرب الإسلامي ط: 1991 ص 124.

51 - ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول المطبعة العمومية بحاضرة تونس 1316 ص 102.

52 - إسماعيل ابن الأحرر: نثر الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان حققه محمد رضوان الداية ط: 2، 1987 ص 69.

53 - ابن الحاج، فيض العباب مرجع سابق ص 130-131.

ابن خلدون:

وعاد أبو عنان إلى فاس وجمع أهل العلم للتحقيق بمجلسه وجرى ذكرى عنده وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، فكتب إلى الحاجب يستقدمني ونظمي في أهل مجلسه العلمي ثم استعملني في كتابة التوقيع بين يديه وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة وحصلت من الإفادة منهم على البغية⁵⁴. وكان في جملة المجلس العلمي يومئذ الأستاذ محمد بن الصفار من أهل مراکش إمام القراءات لوقته ومنهم قاضي الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد المقرئ برز في العلوم إلى حيث لم تلحق غايته⁵⁵، ومنهم صاحبنا الإمام العالم فارس المعقول والمنقول صاحب الأصول والفروع أبو عبد الله محمد الشريف الحسني ويعرف بالعلوي⁵⁶، ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحيى البرجي كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الإنشاء واستبحر في الأدب وبرز في النظم والنثر⁵⁷.

وعند الحديث عن تكوين يحيى بن خلدون الفكري يشير الأستاذ حاجيات بأن الاتصالات التي أجراها عبد الرحمان بن خلدون وأخوه يحيى مع الكثير من فقهاء فاس وأدبائها وكتاب الدواوين ممن كان لهم صيت ذائع فتحت لهم أبواب قصور السلطان المريني⁵⁸ ويختتم ابن خلدون لائحة المشيخة العلمية بقوله، ولما جمع السلطان مشيخة العلم للتحقيق بمجلسه والإفادة منهم، استدعى شيخنا أبا عبد الرزاق فكان يأخذ عنه الحديث ويقرأ عليه القرآن برواياته في مجلس خاص إلى أن هلك رحمه الله⁵⁹.

وتضم خزانة القرويين مخطوطا برقم 643 يتضمن أسماء أعضاء المجلس العناني بكامله⁶⁰ واهتم أبو عنان بالعلم والعلماء إذ أمر ببناء مدرسة عظيمة قرب شالة، وإعطاء الكساء الرفيعة والملابس الفخمة البديعة للطلاب والمدرسين⁶¹.

54 - ابن خلدون كتاب العبر مرجع سابق ص 477.

55 - ابن خلدون كتاب العبر مرجع سابق ص 478.

56 - ابن خلدون كتاب العبر مرجع سابق ص 479.

57 - ابن خلدون كتاب العبر مرجع سابق ص 480.

58 - يحيى بن خلدون: بغية الرواد، المرجع السابق ص 21.

59 - ابن خلدون: تاريخ العبر ص 481.

60 - إبراهيم حركات مرجع سابق ص 232.

61 - ابن الحاج، فيض العباب مرجع سابق ص 131.

وفي الميدان التربوي برهن أبو عنان عن كفاءة أثارت الانتباه، وعبرت عن اتجاهات متحررة ترمي إلى محاربة التقليد ونبد الطرق المعتمدة على الحفظ والاستظهار، والاهتمام بملكة النقد والتحليل والمناقشة والاستنباط والاستدلال⁶² وفي هذا المجال يورد المقرئ في أزهار الرياض الحادثة المعروفة بين السلطان أبي عنان والشيخ الصرصري ولما كمل غرض أبي عنان من بناء مدرسته المتوكلية بفاس، قال انظروا من يقرئ بها الفقه فوق الاختيار على الشيخ الصرصري الحافظ، ولما جلس بها واتسع صيته وجه إليه أبو عنان من يسأله في مسائل التهذيب، وطالبه بتحقيق ذلك وإتقانه ... فانقطع انقطاعا فاحشا ولما أضجره ذلك نزل عن كرسيه وانصرف كئيبا في غاية القبض. ولما اشتهر ذلك عنه، وجه إليه أبو عنان فلما مثل بين يديه آنسه وسكنه ثم قال له أنا أمرت بذلك، كي تعلم ما عندك من العلم وما عند الناس، وتعلم أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد، فلا يجب أن تتكل على حفظك وتقتصر على ما حصل عندك ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدي عن ملاقة من يرد من العلماء، والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدر ذلك في ربتك عندنا إنشاء الله⁶³.

خاتمة:

بعد نجاح المرينيين في تأسيس دولتهم والاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي والعمراني الذي عرفه المغرب في عهدهم رفعوا لواء النهضة العلمية بتشجيع العلماء على التدريس والتأليف، والعمل على تغليب آراء أهل السنة في مجالسهم العلمية.

وسعى المرينيون إلى الاعتناء واستقطاب النخب المؤثرة والحصول على تركيبة مختلف الفعاليات الدينية لتوجهات الدولة واختياراتها من خلال الإشراف على الخطط والمؤسسات المؤطرة للحياة الدينية والعلمية⁶⁴ وكان انتصار المالكية العامل الرئيسي للوحدة الدينية والمذهبية في ربوع الشمال الإفريقي.

62 - ابن الحاج، فيض العباب ص 132.

63 - شهاب الدين المقرئ: أزهار الرياض في أخبار عياض الجزء الثالث ضبطه وحققه إبراهيم الأبياري مصطفى السقا المعهد الحليفي للأبحاث المغربية ص 27-28.

64 - محمد القبلي: تاريخ المغرب تحيين وتركيب ... ص 301.

المجالس العلمية على عهد الدولة العلوية مشكاة للتحصيل الدراسي ومنازة للإشعاع الثقافي

ذ. عبد الإله لغزاوي
الرباط

تبلور المجالس ظاهرة حضارية انتشرت بصورة واضحة في مختلف المجموعات البشرية على الصعيد العالمي منذ عصور سحيقة في التاريخ، فمن أجل التواصل الديني، والتكامل الاجتماعي، والتوازن النفسي، والإنجاز الثقافي، والتشاور السياسي، والبناء الاقتصادي، تم عقد المجالس للسمو بهذه الأدوار، والرقى بهذه الوظائف.

و"المجلس" بصفة عامة "مجتمع القوم سواء أكان صغيرا يضم بضعة أشخاص، أم كان كبيرا يتسع لعشرات. يجلس كبير القوم أو عالمهم أو رئيسهم ويتحلق حوله أو بين يديه بقية الحاضرين حسب مكانتهم من السن أو المنزلة الاجتماعية أو المنزلة العلمية"¹.

وتمارس هذه المجالس حضورها واشتغالها في فضاءات مختلفة كالمعابد، والمساجد، والزوايا، والمدارس، والمعاهد، والمنازل، والقصور، والدواوين، والمنشآت الرسمية، والمرافق العامة، والحدائق والمنتزهات².

وتتنوع إلى مجالس عامة وخاصة، وإلى مجالس الاسترواح والمنادمة، ومجالس المذاكرة العلمية، ومجالس الذكر والموعظة، ومجالس التدريس والتحصيل، ومجالس التداول والاستشارة، وتدير الدولة والشؤون الإدارية، وتبعاً لذلك قد يكون المجلس "مجلس سمر وفكاهة وطرب، أو مجلس

1 - محيي وهيب الجبوري: مجالس العلماء والأدباء والخلفاء مرآة للحضارة العربية الإسلامية: ص 38، دار الغرب الإسلامي، ط بيروت، ط 1، عام 1427هـ - 2006م.

2 - يضاف إلى كل هذا المجالس التي كانت تتم في الأسواق ومن أمثلتها سوق "عكاظ" الشهير في زمن الجاهلية، وسوق "هردوار" بالهند، وسوق "نوفكروود" بروسيا، وسوق "الجمناسيوم" باليونان، وقد شكلت هذه الأسواق مجالا لانعقاد المنتديات الفكرية ومدارسه القضايا العلمية والأدبية واللغوية.

انظر: جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة وتعليق حسين مؤنس: ج 3، ص 37، طبعة دار الهلال (ب ت).

علم ودين، أو مجلس أدب وشعر...، وقد تكون هذه المجالس عفوية لا إعداد لها، وقد يكون لها إعداد وتنظيم وفق برامج مهياة وأوقات محددة³.

وتعتبر المجالس العلمية ذات شأو رفيع لما لها من أهمية بالغة في التربية والتكوين، وتلاقح الأفكار، وتداول المعرفة، عبر ما يجري فيها من إلقاء وإلقاء وإملاء وشرح ومذاكرة ومحاور، ويمكن تصنيفها إلى قسمين:

مجالس التدريس والتحصيل والتعليم، وتشكل حلقات دراسية يلتف فيها الطلبة حول شيخ عالم يتلقون عنه العلوم والمعارف، وتنعقد "برغبة من المدرس أو بطلب من أحد أصدقائه أو طلبته، أو مؤدى عنها من طرف الجهة المسؤولة"⁴.

مجالس المذاكرة والمحاور التي يتم انعقادها خارج المؤسسات التعليمية بالبلاط والمنازل والمنتزهات، وتجسد منتديات للمطارحات الفكرية والمناقشات العلمية، والتحلي " بأدب الحوار والمناظرة، والأخذ والرد، وإثراء المجالس بالعلم والأدب وفق أسلوب رفيع من الحوار والنقاش والجدل"⁵.

وقد عرفت المجالس العلمية في عهد الدولة العلوية ازدهارا كبيرا، وانتشارا واسعا في الحواضر والبوادي بفضل الجهود المبذولة من طرف السلاطين الذين شجعوا على تلقي المعارف تدريسا ومذاكرة، وتلقينا وحوارا، وتحصيلا ومناقشة، ببناء المساجد والمدارس، وإنشاء المعاهد، والزيادة في الرواتب، وتوزيع الهبات والمنح، وتقدير العلماء، وتوفير الكتب، وتوظيف الطلبة المتخرجين في مناصب سامية، وحضور حلقات الدرس وحفلات الختم، وعقد المجالس في البلاط السلطاني، وبفضل هذا التحفيز أصبح للعلم سوق نافقة، وأضحت معاهد التدريس تنتشر بكثافة في مختلف ربوع المملكة، وتعج بالعشرات من المدرسين الفطاحل، ويحج إليها الطلبة من كل فج عميق.

أولا: مجالس التحصيل الدراسي

حظيت مجالس التحصيل الدراسي بعناية فائقة في العهد العلوي الزاهر، بفضل السياسة الناجحة التي انتهجها الملوك العلويون في الحياة الثقافية نشطت المعاهد العلمية على نحو ملموس

3 - مجالس العلماء والأدباء والخلفاء: ص 38.

4 - إبراهيم أنوار: نقل المعرفة في المغرب المبرني وإفريقية الحفصية إلى منتصف القرن 8هـ/4م، ص: 22، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، مطبعة دار المناهل عام 2011م.

5 - مجالس العلماء والأدباء والخلفاء: ص 8-9.

وواضح في مختلف المراكز العلمية كجامعة القرويين بفاس، وكلية ابن يوسف بمراكش، والمساجد الكبرى بمكناس، والرباط، وتطوان، وطنجة، وشفشاون، والعرائش، وسجلماسة، وتارودانت، وتيزنيت، والصويرة، وآسفي...

واستطاعت الزوايا أن تساهم بقسط وافر في بعث النهضة العلمية في العصر العلوي، وضمت هي الأخرى مجالس للإقراء أشرف على تنشيطها علماء أجلاء ومدرسون أكفاء كالفقيه محمد الرهوني، والموسوعي عبد العزيز الوزجاني بالزاوية الوزانية بوزان⁶، والرحالة الصوفي أبي سالم العياشي بالزاوية الحمزاوية جنوب مدينة ميدلت⁷، والعلامة الشهير أحمد بن ناصر، والمشارك الوجيه أحمد الجزولي الهشتوكي بالزاوية الناصرية بتامكروت بدرعة⁸، والشيخ الدراكة عبد القادر الفاسي، والمدقق المتمكن عبد الرحمن الفاسي بالزاوية الفاسية بحومة القلقلين بفاس⁹، والمدرس المؤرخ الحسن بن محمد الهداجي المعداني، والفقيه الواعية محمد بن عبد الكريم العيدوني بالزاوية الشرقاوية بأبي الجعد¹⁰، والمربي النفاعه الشيخ أبي بكر بناني وابنه زين العابدين بناني بالزاوية البنانية الدرقاوية بمدينة الرباط¹¹، والداعية المثابر محمد بن عبد الكبير الكتاني، والشيخ الإمام جعفر بن إدريس الكتاني بالزاوية الكتانية بفاس¹².

1- مجالس التدريس والتعليم:

من أجل نقل المعرفة إلى الفئات المستهدفة، وفتح ذهن الطلبة على العلوم التي تغني ثقافتهم في المجال الديني واللساني، وتمكينهم من الفهم العميق للوجود الكوني والإنساني؛ انعقدت مجالس

6 - عبد الإله لغزاوي: الممارسة الثقافية للزاوية الوزانية معالجة في التفكيك والتركيب: ص: 482-489 رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. 1986م.

7 - عبد الله بنصر العلوي: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب: ص 84-96، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المغرب 1419هـ-1998م.

8 - أحمد بن محمد عمالك: جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي: ج 2، ص 347/ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة أبي رقرق بالرباط، 1427هـ-2006م.

9 - نفيسة الذهبي: الزاوية الفاسية التطور والأدوار حتى نهاية العهد العلوي الأول: ص 205 و326، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1422هـ-2001م.

10 - أحمد بوكاري: الزاوية الشرقاوية، زاوية أبي الجعد إشعاعها الديني والعلمي: ص 223-226، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1406هـ-1985م.

11 - محمد بن علي دينية: مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط: ص 188-232، مطابع الإيتقان، الرباط، عام 1406هـ-1986م.

12 - يوسف الكتاني: مدرسة الإمام البخاري في المغرب: ج 2، ص 519 و527، دار لسان العرب، بيروت.

الكراسي العلمية التي تحلق حول شيوخها الآلاف من الطلبة منذ انبثاق الدولة العلوية إلى يومنا هذا.

وكانت هذه المجالس تمارس اشتغالها المشع، وحضورها المتألق في فضاءات مطبوعة بالتعدد والتنوع، كما هو الحال في المساجد الكبرى والصغرى، والمدارس والزوايا والأضرحة، وخير مثال على ذلك أن العلامة أحمد بن عبد النبي تصدى لتدريس الأجرومية والألفية، وسيدي خليل، وعلم الأصول، والبلاغة، والحديث، والتفسير، والسيرة النبوية بأماكن مختلفة بمدينة سلا، كالمسجد الأعظم، ومسجد ابن عباد، وضريح سيدي عبد الله بوشاقور، ومسجد الباشا عبد الله بن سعيد، والزاوية الناصرية، والزاوية الدرقاوية، والزاوية التهامية، والزاوية القادرية، والزاوية المباركية¹³.

وبخصوص المسار الزمني لهذه المجالس والكيفية التي يتم التلقين بها فإن "الدروس العلمية تبتدئ بعد صلاة الفجر عقب الورد القرآني بسائر المساجد مرتين في اليوم على اختلاف فنونها إلى صلاة العشاء الأخيرة، يجلس الأستاذ مستقبلاً القبلة ويصطف أمامه التلاميذ والطلبة في حلقات مترابطة يستمعون لإملاءاته وشروحه للنص المدروس وتحليله، وبأيديهم نسخ من شرح المتن أو المقروء"¹⁴.

ومن زاوية أخرى فقد تنوعت المواد الدراسية، والمتون والكتب من شروح وحواش وتعاليق وطرر، فقد انبرى الشيوخ الملقنون إلى تدريس الفقه والأصول، والفرائض والعقائد، والتفسير والحديث، والسيرة النبوية، والقراءات القرآنية بمنظومة المرشد المعين، ومختصر الشيخ خليل، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وتحفة ابن عاصم، ولامية الزقاق والقوانين الفقهية، وشرح المختصر للمواق، وشرح التاودي ابن سودة على التحفة، وورقات إمام الحرمين، وجمع الجوامع للسبكي، وتفسير الجلالين، وتفسير ابن عطية، وتفسير البيضاوي، وكتب الصحاح الستة وشروحها، وشمائل الترمذي، وشفاء عياض، والسيرة النبوية لليعمري، والدرر اللوامع لابن بري.

وفي المجال اللغوي والأدبي والصوفي والمنطقي وعلوم الرياضيات والتوقيت والطب تم تدريس مقدمة ابن أجروم، ومنظومة الألفية، ومغني اللبيب، ولامية الأفعال، وشرح الأجرومية للأزهري، وشرح المكودي وابن عقيل للألفية، وشرح بحرق للامية الأفعال، وتلخيص المفتاح

13 - الصديق بن محمد بوعلام: شيخ الجماعة بمدينة سلا العلامة أبو العباس سيد أحمد بن عبد النبي (1302-1392هـ) حياته وآثاره: ص 115، دار أبي رقراق، ط 1، عام 2011م.

14 - عبد الله الجراري: من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا: ج 1، ص 190، مطبعة الأمانة، الرباط، 1391هـ-1971م.

للقزويني، وأساس البلاغة للزمخشري، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، ومنظومة الخرجية في العروض، والكمال للمبرد، وشرح المعلقات السبع للقزويني، وديوان الحماسة، ومقامات الحريري، وبديع الزمان الهمذاني، والسلم المرونق في المنطق، وحكم ابن عطاء الله، ورسالة القشيري، ورسائل ابن عباد، وإحياء علوم الدين للغزالي، ومنية الحساب لابن غازي، ورسالة المارديني في التوقيت وتذكرة الأنطاكي في الطب وأرجوزة الرسموكي في الحساب، وكشف الأسرار للقلصادي¹⁵.

لقد انكب شيوخ التدريس على تلقين هذه المقررات الدراسية بالعمل على تحليلها بشرح الغريب، وكشف المغلق، وتقريب الأدلة، وتصوير المسائل، وبيان المبهم، وحسن التقرير، وتلخيص المشتت¹⁶، ويعتمد العالم في تلقينه على سارد يتولى سرد المتن، فبعد ما يقرأ جزءاً منه "يتدخل الشيخ المعلم بما ينبغي من شرح أو تعليق أو إضافة"¹⁷.

ولحسن الحظ فإن كتب التاريخ تنطوي على ذكر أسماء الطلبة النابهين الذين تولوا سرد المتون في مجالس العلماء، كأحمد بن محمد المرتضى الكبير الذي كان قارئ مجلس القاضي عبد الواحد الدويري، ومحمد بن إبراهيم المراكشي، الذي كان السارد لأخيه العباس بن إبراهيم السملالي في مجالسه العلمية الخاصة بالحديث والتوحيد والفقه في جامع رياض العروس ليلا مدة ست سنين، وأحمد بن محمد الرشيد الذي أخذ عن الشيخ أبي الفيض حمدون بن الحاج، وأضحى القارئ بين يديه في شرح الشيخ الطيب بن كيران على المرشد المعين بجامعة القرويين¹⁸.

لقد شهد العصر العلوي العدد الهائل من الشيوخ والمدرسين المساهمين بقسط وافر في تنشيط الحياة العلمية والدراسية في مختلف الحواضر المغربية، وبفضلهم تم نقل المعارف إلى الأجيال الصاعدة، والحفاظ على مقومات الثقافة العربية والإسلامية دراسة وتأليفاً ومناقشة، ويأتي في طليعة هؤلاء:

- العلامة محمد التاودي ابن سودة الذي انبرى إلى تدريس العلوم الدينية واللغوية وأضحى "شيخ الجماعة في وقته ودهره، ومن ألفت إليه العلوم بالزمام في عصره، وقد تضلع من جميعها، واعتكف على تفهمها وتفهمها، وأخذ عنه خلق كثير، وجم غفير"¹⁹.

15 - الممارسة الثقافية للزاوية الوزانية: ج 1، ص 258 - 264.

16 - صديق بن الحسن القنوجي: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم: ج 1، ص 209-210، دار الباز، مكة، 1978م.

17 - جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية: ج 2، ص 280.

18 - العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغيات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ج 2، ص 418-426-452.

19 - محمد بن جعفر الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس: ص 123، طبعة حجرية فاسية 1316هـ.

- القاضي بفاس محمد العربي بردلة الذي كان له الباع الطويل في تدريس البخاري والمدونة ومختصر خليل، وتسهيل ابن مالك، ومختصر السعد على التلخيص، ومختصر ابن الحاجب، وجمع الجوامع للسبكي، وتفسير القرآن، والحكم العطائية، والرسالة والموطأ²⁰.

- والموسوعي المثار عبد القادر بن علي الشيخ أبي المحاسن الفاسي، انبرى لتدريس التفسير، والصحيحين، والشمال، والرسالة لابن أبي زيد، والإحياء للغزالي، ومختصر خليل، وأخذ عنه الجم الغفير من العلماء كأبي سالم العياشي، وعبد السلام القادري، ومحمد بن الحسن المجاصي، وعبد السلام جسوس²¹.

- نابغة المغرب في العلوم العقلية والرياضية في المنتصف الأول من القرن العشرين محمد بن محمد العلمي، أستاذ الأجيال في تدريس الرياضيات والحساب والفلك والتوقيت والفرائض بجامعة القروين²².

- وبمكناس ذاع صيت الحسن بن رحال المعداني الفقيه النظار خاتمة العلماء المحققين²³، و"صاعقة الفقه المالكي في وقته، وصاحب التدريس بمكناسة الزيتون"²⁴، انكب على تدريس العلوم الدينية واللغوية بشغف ولهفة، فكان له "صبر هائل في مجلس الإقراء... يجلس للدرس عند طلوع الشمس ويتمادى إلى الزوال من غير ملل ولا ضجر"²⁵.

- وبالرباط تصدى للتدريس الشيخ محمد بن المكي البطاوري الذي أوقف حياته على تلقين الأجرومية بشرح الأزهري، وألفية ابن مالك بشرح المكودي، وأوضح المسالك لابن هشام، ولامية الأفعال بشرح التادلي، وسلم الأخضر بشرح بناني، ومنظومة الطيب بن كيران في البيان بشرح البوري، وجمع الجوامع، وصغرى السنوسي والموطأ، وشمال الترمذي، والأربعين النووية، والبردة،

20 - عبد الكبير بن هاشم الكتاني: زهرة الآس في بيوتات أهل فاس، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني: ج.1، ص 128، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، عام 1422هـ-2002م.

21 - السلطان مولاي سليمان العلوي: عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجدد: ص 39، المطبعة الجديدة فاس، 1347هـ.

22 - محمد بن الفاطمي ابن الحاج السلمي: إتحاف ذوي العلم والرسوخ بتراجم من أخذت عنه من الشيوخ: ص 131-140 دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء.

23 - محمد بن محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: 334، دار الفكر بيروت (ب.ت.ط).

24 - محمد بن الطيب القادري: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، ج 3 ص 294، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1407هـ-1986م.

25 - عبد الرحمن ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس: ج.3، ص.7. المطبعة الوطنية بالرباط، ط 1، عام 1349هـ-1931م.

والهمزية، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، والمختصر الخليلي، وألفية العراقي في الحديث، ولامية العجم ومقامات الحريري²⁶.

- وبمراكش انتصب للتعليم الموسوعي المتمكن الوزير علي بن محمد المسفيوي المراكشي حيث أخذ عنه جم غفير من الطلبة دروسا نافقة في ألفية ابن ممالك مع التوضيح، وحواشي إرشاد المسالك، ومختصر الشيخ خليل، ولامية الزقاق، والتحفة، وصغرى السنوسي²⁷.

- وعرفت مدينة تطوان حركة علمية نشيطة من أشهر رواد مجالسها العلمية الشيخ علي بن محمد بركة الأندلسي الذي أقرأ في مسجدها الأعظم التفسير والحديث والفقه²⁸.

وعلى يد هؤلاء العلماء الشيوخ وأضرابهم من الجهابذة تخرج العدد الهائل من رجال العلم والثقافة والفكر في العهد العلوي الزاهر الحافل بالمفاخر، وتعج كتب الفهارس بمعلومات ضافية وإفادات شافية عن حركة التلمذ، ودينامية الأخذ والتلقي، وجاذبية الإقبال على المجالس العلمية.

ومن أجل التدليل على هذه الحقيقة نجد الحسن بن مسعود اليوسي يأخذ الرسالة والمختصر الخليلي والخلاصة وجمع الجوامع عن الشيخ أبي بكر بن الحسن التطافي، والرسالة وصغرى السنوسي والقليصادي عن محمد بن السيد الحسني والألفية ولامية الأفعال والخزرجية عن عبد العزيز الفيلاي²⁹، ونعائين عبد القادر بن أحمد الكوهن يتلقى تكوينه عن عبد القادر ابن شقرون في صحيح البخاري، وشفاء القاضي عياض، وعن محمد الهواري في تلخيص المفتاح، والسلم المرونق، وصغرى السنوسي، وعن الطيب ابن كيران في التفسير، وصحيح مسلم، ومسند الدارمي، وموطأ مالك والحكم العطائية، والمرشد المعين، وألفية ابن مالك³⁰، ونشاهد أحمد ابن عجيبة يتلقى عن محمد الورزازي التلخيص والسبكي والألفية ومختصر خليل، وعن محمد بن العباس الألفية، وقواعد ابن هشام، وعن عبد السلام ابن قریش تفسير القرآن الكريم، وشمائل الترمذي³¹، وفي هذا الاتجاه

26 - عبد الله الجراي: شيخ الجماعة محمد المكي البطاوري: ص 30-31، ط 1 عام 1398هـ-1978م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

27 - الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام: ج 7، ص 31.

28 - أحمد الرهوني: عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي: ج 4، ص 110، منشورات جمعية تطاون اسمير، مطبعة الخليج العربي تطاون، عام 1424هـ-2003م.

29 - الحسن بن مسعود اليوسي: فهرسة اليوسي تحقيق حماد اليوسي، ص 116 و 121، مطبعة دار الفرقان، الدار البيضاء، ط 1، عام 2004م.

30 - عبد القادر بن أحمد الكوهن الفاسي: إمداد ذوي الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد، منشور ضمن كتاب ثلاث فهارس مغربية، ضبط وتصحيح وتعليق عبد الرحمن سعيدي، ص 7-9-10 دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، عام 1425هـ-2004م.

31 - أحمد بن عجيبة: الفهرسة تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ص 31، دار الغد العربي، ط 1، عام 1990م.

يخصب المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان تجربته التعليمية بالمسجد الأعظم بمكناس، فيتلمذ للشيخ التهامي الحداد، والحسن بن اليزيد، والطيب بن العناية، ومحمد السوسي، ومحمد العرائشي، ثم يرحل إلى فاس فيدرس بالقرويين عن محمد القادري، والمهدي الوزاني، والعباس التازي، والفاطمي الشراي، وأحمد بن المامون البلغشي³²، وعلى المنوال نفسه نسج المؤقت الفلكي محمد بن عبد الرازق في تكوين شخصيته الثقافية، ففي مدينة مراكش بجامعة ابن يوسف يأخذ الألفية بالمكودي، والموضح والمختصر بالدردير، والعشماوية عن أحمد بن المحجوب المراكشي، ويدرس التحفة بالشيخ التاودي، والألفية بالمكودي، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد عن أبي شعيب البهلوي، ثم شد الرحلة إلى فاس فأخذ التوقيت والتعديل والهندسة والحساب والرياضيات عن الشيخ محمد فتحا العلمي³³.

وبفضل مجالس التحصيل والتدريس هاته ازدهر التصنيف في مجال الشروح والخواشي، وظهر إلى الوجود مؤلفات ثمينة في ميدان كتابة الفهارس ومعاجم الشيوخ ونصوص الإجازات³⁴.

2- مجالس التوريق والافتتاح والختم:

وهناك مجالس أخرى مغايرة لمجالس التدريس والتعليم وتفاوقها بما تمتلكه من سمات خاصة تدعى بمجالس "التوريق" وهي مجالس استثنائية يتم عقدها لاستمالة المتلقي إلى النصوص المقررة بكيفية متميزة دون اللجوء إلى التحليل والتفسير والشرح...

فالتوريق إذا "تقنية معرفية تقوم على السرد والإلقاء والتفنن في قراءة كتب العلم على مسامع الحاضرين، والاسترسال في ذلك بكيفية معلومة وطريقة مخصوصة تراعى فيها رخامة الصوت، وحسن الإلقاء، والإلمام بأشكال الوقف، والسكت، والمد، والإعراب... والغاية من ذلك استمالة المتلقي، واجتذابه بإيقاع الكلمة، وجمال النطق والتلفظ بها...، وتشمل هذه الكتب عادة كل ما يمت

32 - عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة: سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، تنسيق وتحقيق محمد حجي: ص 124 - 125 دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 1، عام 1417هـ-1997م.

33 - محمد بن الفاطمي الشهير بابن الحاج: إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين: ص 269 - 270، ط 1 عام 1012هـ-1992م، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.

34 - يكتنز التراث الثقافي المغربي ثروة مهمة في مجال الشروح والخواشي والفهارس والإجازات طبع بعضها والقسم الأكبر منها ما زال مخطوطا، ويحتاج إلى جهود متضاعفة من أجل تداوله وإخراجه وتحقيقه، ونذكر من نأذجها شرح محمد الطالب بن الحاج على لامية الأفعال، وشرح محمد جسوس لتوحيد رسالة لأبي زيد القيرواني، وشرح محمد التهامي البوري على منظومة الطيب ابن كيران في المجاز والاستعارة، وحاشية محمد بن قاسم القادري على شرح خالد الأزهرى لبردة المديح للبوصيري، وحاشية المهدي الوزاني على شرح التاودي ابن سودة على تحفة ابن عاصم، وفهرسة التاودي ابن سودة، وفهرسة أبي سالم العياشي المسماة "اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر" ونصوص إجازات عبد الحي الكتاني، وعبد الرحمن ابن زيدان، ومحمد المنوني.

بصلة إلى السيرة النبوية، والشئائل، وأحاديث الرسول ﷺ، والمدائح النبوية والوعظ والتصوف والتاريخ...، وكان معظم الوراقين من رواد القراءات القرآنية والتجويد، ورجال السماع والمدائح لإتقانهم لفن الإلقاء والسماع³⁵.

ومن الكتب التي لقيت صدى كبيرا وإقبالا ملحوظا في كراسي التوريق كتاب دلائل الخيرات للجزولي، والحلية لابن نعيم، والسيرة النبوية للكلاعي، والرسالة للقشيري، وإحياء علوم الدين للغزالي، وصيد الخاطر لابن الجوزي، وذخيرة المحتاج للمعطي الشرقاوي، وتفسير القرآن للبيضاوي.

وتقدم الحوالات الحبسية لأوقاف المدن المغربية تفاصيل مهمة حول أسماء الوراقين وروايتهم، وأسماء الكتب المسروقة، وأزمة السرد، كما هو الشأن في حوالات مكناس، وفاس، وتازة، ومراكش، وتطوان، كما توثق هذه الحوالات للنشاط الوقفي على مجالس التوريق والوعظ من أجل أن تبقى مستمرة في أداء وظيفتها، وتحفيز المورقين على بذل مزيد من الجهد في سرد الكتب المورقة، وتوصيل محتواها المعرفي إلى أكبر عدد من الناس المتحلقين حول مجلس الوعظ.

وتبعاً لذلك يمكن أن نتوقف عند بعض الأسماء التي تألفت في النهوض بوظيفة الوراقة على مستوى عال ورفيع في بعض الحواضر المغربية، ففي مدينة فاس يطالعنا اسم الوراق إدريس بن بوعبيد التادلي الذي انبرى إلى توريق كتاب الحلية بظهر صومعة جامع القرويين، واسم محمد الديب الأندلسي المورق بضريح الولي الصالح سيدي أحمد الشاوي عام 1142هـ واسم الكاتب الأديب أحمد بن محمد الكرودودي الذي تولى توريق كتاب "الحلية" بظهر منار المسجد الأعظم³⁶.

وبمدينة مكناس أصبح للتوريق شأو كبير بفضل العمل الدؤوب الذي بذله الوراقون بالمسجد الأعظم، والزوايا المنتشرة في جهات مختلفة من المدينة، وخير مثال تقدمه في هذا الصدد زاوية سيدي عبد القادر العلمي التي كان يسرد فيها صحيح الإمام البخاري، و"يختار لسرده ذوو الفصاحة والأصوات العذبة خلال شهور رجب وشعبان ورمضان كل يوم بعد صلاة العصر إلى آذان المغرب، ويختتم يوم سادس وعشرين رمضان بإحياء ليلة القدر المباركة"³⁷.

35 - الممارسة الثقافية للزوايا الوزانية: ص 236 - 237.

36 - زهر الآس في بيوتات فاس: ج 1، ص 212، 406، وج 2، ص 458.

37 - محمد أمين العلوي: سيدي قدور العلمي وزاويته بمكناس: ص 435، منشور ضمن كتاب "وقفات في تاريخ المغرب دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، تنسيق عبد المجيد القدوري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، عام 2001م.

وآخر من أدركناه ينهض بهذه المهمة في الزاوية العلمية هاته العلامة الأريب، الأديب اللبيب، الخطيب البليغ، الشاعر المبدع ذو الصوت الرخيم محمد بن محمد المعطي بنعبود الذي ساهم بقسط كبير في توريق صحيح البخاري في الشهور المذكورة إلى أخريات حياته لا في الزاوية العلمية فحسب بل في المسجد الكبير أيضا، حيث ورث عمل التوريق بالمكانين معا (المسجد والزاوية) عن أجداده وأسلافه³⁸.

وعرفت مدينة وزان - دار الضمانة حضورا متوهجا في ميدان التوريق، حيث كان المسجد الأعظم يزخر بوراقين ممتازين نالوا مكانة عالية في الثقافة الإسلامية، وضربوا بسهم وافر في فنون السماع، وفصاحة القول، وحسن الإلقاء، وتبعنا لذلك يمكن أن نخرج على ذكر مؤسس الزاوية الوزانية الشيخ مولاي عبد الله الشريف الذي كان وراقا ممتازا، وساردا بارعا، أقبل بشغف كبير على سرد حكم ابن عطاء الله بشرح ابن عباد، والقوت لأبي طالب المكي، ورسالة القشيري، وعوارف المعارف للسهروردي، وكتاب الغنية، وكتاب فتوح الغيب لعبد القادر الجيلالي، وكتاب جواهر الأسرار لعيسى بن عبد القادر الجيلالي، وكتب الشيخ أحمد زروق³⁹، كما يمكن أن ننوه بأسماء أخرى وازنة أسدت لمجالس التوريق خدمة جليلة كالمرورق محمد الخلطي الذي كانت أجرته 260 مثقالا عام 1383هـ، والمرورق عبد السلام بن الجيلالي الذي سرد عند الفجر كتبا متنوعة بأجرة قدرها 40 مثقالا، والمرورق الممتاز أحمد الجرفطي الذي كان يتقاضى أجرة 80 مثقالا، واختص بسرد دليل الخيرات، وكتب الوعظ، والسيرة النبوية⁴⁰.

أولى المغاربة اهتماما خاصا للاحتفال بالمعرفة، فقد وضعوا نصب أعينهم ما تستحقه المناسبات التعليمية من تقدير وعناية، لاسيما في افتتاح المجالس العلمية وفي اختتامها، وأصبح هذا السلوك الحضاري زمن العهد العلوي تقليدا راسخا جرت به العادة في مختلف الحواضر المغربية.

وقد اقتصر حفلات الافتتاح على استهلال تدريس صحيح البخاري دون غيره من الكتب الست الأخرى، وباقي مجالس مختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية والنقلية والكونية، وهي من

38 - عبد العزيز بن عبد الجليل وعبد الرحمن بن زيدان: تراجم أعلام حاضرة مكناس في القرن العشرين: ج 1، ص 344-345، مطبعة برانت شوب، مكناس، ط 1، عام 1910م.

39 - عبد السلام القادري: التحفة القادرية في التعريف بمولاي عبد الله الشريف ورجال الشاذلية: ج 1، ص 92-110، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم 2321ك.

40 - حوالة أحباس وزان: ميكرو فيلم المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم 148 صفحات 18-19-21-37-58-57.

إبداع المغاربة الذين خصوا صحيح البخاري بحفاوة بالغة، لهذا "قصروا تلك الافتتاحيات على صحيح البخاري وحده دون بقية كتب الحديث أو الفنون الأخرى"⁴¹.

كانت هذه الافتتاحيات تتم في جو بهيج تعمه بشائر السعادة والحبور، وتغمره أحاسيس الابتهاج والسرور، يهب الناس إلى التحلق حول مجالسها من كل حذب وصوب، وبعد الكلمة الترحيبية يلقي المدرس محاضرة الافتتاح التي يشد فيها انتباه الجماهير الحاشدة التي هبت لمواكبة طقوس الاحتفال.

وتحتوي عادة افتتاحية الشيخ الذي سيتولى تدريس صحيح البخاري على الإشارة إلى أهمية العلم، وفضل العلماء، وسبب استهلال البخاري بالبسملة بدل الحمدلة، وسبب تصديره بترجمة بدء الوحي، والتعريف بالبخاري وجامعه الصحيح⁴².

وعطفا على ما سبق يمكن الحديث عن جملة وافرة من هذه الاحتفالات المتميزة وعلى رأسها مجلس افتتاح البخاري للشيخ عبد القادر الكوهن عام 1252هـ، وافتتاح محمد بن حمدون بن الحاج، وافتتاح الشيخ فتح الله بناني، وافتتاح المحدث سيدي المدني بن الحسني⁴³.

وإذا كانت مجالس الافتتاح اقتصرت على صحيح البخاري، فإن مجالس الاختتام همت جميع مجالس التدريس والتحصيل في مختلف مشاربها العلمية وتوجهاتها الثقافية، فحينما ينتهي الشيخ العالم من دراسة الكتاب أو المتن المقرر يعقد احتفال الختم الذي يستقطب جمهورا مكثفا، ويحضره أعلام الفكر والأعيان، ورجال السلطة وعموم الطلبة، مع إطعام الطعام، وتوزيع الحلويات والمشروبات، وإنشاد القصائد التي تنوه بالشيخ ودروسه.

ويتوج هذا الحفل بمحاضرة درس الختم يلقيها الشيخ على مسامع الحاضرين متحدثا فيها عن التعريف بمؤلف الكتاب الذي انتهى من تدريسه، واستعراض ما للشيخ من روايات وإجازات في الموضوع، وتحليل مفصل لموضوع الدرس⁴⁴.

ومسيرة لهذا التقليد أضحت أماكن التدريس بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة تزخر بحفلات مجالس الختم في أيام مشهودة تتفجر فيها ينابيع العلم، وتتأجج جذوة مشكاة المعرفة،

41 - مدرسة الإمام البخاري في المغرب: ج 2 ص 615.

42 - يوسف الكتاني: عبقرية الإمام البخاري: ص 418، منشورات ومطابع عكاظ، الرباط، عام 2010م.

43 - مدرسة صحيح البخاري في المغرب: ج 2 ص 616.

44 - محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين: ج 1 ص 114-115، مطبعة فضالة 1397هـ-1977م.

كحفل ختم محمد التهامي الوزاني لمختصر الشيخ خليل، وختم جعفر الكتاني للأجرومية، وختم محمد المفضل الغماري لتحفة الحكام لابن عاصم⁴⁵، وختم محمد بن التهامي الرغاي لجمل ابن المجراد، ومقدمة ابن أجروم وعقيدة السنوسي، وختم المكي البطاوري للمختصر والموطأ والسلم المروني⁴⁶، وختم علي بن محمد عواد لصحيح البخاري بالمسجد الأعظم بسلا، أملى فيه من حفظه نحو ست ساعات⁴⁷.

3- مجالس الدعم الرسمي والشعبي

ما كان لمجالس التعليم والتلقين أن توقي أكلها وتعطي ثمارها لولا الدعم الذي تلقت من الهيئة الرسمية المتمثلة في تشجيع سلاطين وملوك الدولة العلوية، ومن الهيئة الشعبية المتمثلة في الشرائع الاجتماعية التي دأبت على مؤازرة حلقات التدريس بمنح الهبات للعلماء والطلبة، وتحييس الأوقاف على الكراسي العلمية.

بذل السلاطين العلويون منذ السلطان المولى الرشيد إلى عهد جلالة الملك محمد السادس أيد الله ونصره قصارى جهدهم في سبيل مساندة المجالس العلمية لتبقى مستمرة في أداء واجبها الثقافي، ووظيفتها التكوينية، ورسالتها التحصيلية، ومن أجل تحقيق هذا الهدف النبيل، وهذا المقصد الشريف، بادروا إلى انتهاج ما يلي:

- رعاية فضاءات التدريس: حيث بادروا إلى بناء المساجد والمدارس والزوايا والأضرحة التي تحتضن المجالس العلمية، وتبعاً لذلك أنشأ السلطان المولى الرشيد مدرسة الشراطين بمدينة فاس⁴⁸، ومدرسة حومة ابن صالح بمدينة مراكش⁴⁹، وشيد السلطان مولاي إسماعيل بعاصمته الإسماعيلية مدينة مكناس مسجد الأنوار، ومسجد باب البرادعيين، وجامع الزيتونة، ومسجد الرياض العنبري، وبمدينة زرهون مسجد الخطبة، والضريح الإدريسي، وبطنجة المسجد الأعظم، ومسجد القصبة، وبالعرائش شيد مسجدين ومدرسة لإيواء الطلبة، وبفاس زاوية محمد بن عبد القادر الفاسي⁵⁰،

45 - المطبوعات الحجرية في المغرب: ص 51-52.

46 - من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا: ج 2، ص 110 و ص 217-218.

47 - الإعلام بمن حل مراكش وأغبات من الأعلام: ج 7، ص 224.

48 - عبد الرحمن بن زيدان: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة: ص 13، نوابغ الفكر، القاهرة، ط 1، عام 1429هـ - 2008م.

49 - آسية الهاشمي البلغيتي: المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة: ج 1، ص 229، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة 1416هـ - 1996م.

50 - عبد الرحمن بن زيدان: المنزعة اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، ص 302-320، مطبعة أدريال الدار البيضاء 1413هـ - 1993م.

وأنشأ السلطان سيدي محمد بن عبد الله وأصلح الوافر من المساجد والمدارس والأضرحة، كضريح أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته، وجامع المنصور بمراكش، ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها، ومسجد آسفي ومدرسته، ومدينة أنفا ومسجدها ومدرستها، ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها، وست مساجد بمدينة الرباط⁵¹.

- توزيع المنح والرواتب وظهائر التوقير: وبغية تشجيع الشيوخ على التدريس وتحفيز الطلبة على التعلم؛ لم يأل السلاطين العلويون جهدا في إيلاء العناية للفتتين معا بتوزيع المنح والهبات، وإسناد المناصب إلى الطلبة النابهين، وإسدال أردية التوقير والاحترام والرعي الجميل المستدام بظهائر مولوية شريفة على رجالات التدريس والتعليم، والشواهد على ذلك كثيرة، فهذا السلطان المولى الرشيد أكرم العلماء، وأغدق عليهم النعم، ووسع لهم الأرزاق⁵²، والسلطان المولى إسماعيل يسند المناصب للطلبة المتفوقين، ويقربهم من مجلسه العلمي، ويمنح إقطاعات وظهائر التوقير للعلماء⁵³، ونعائين السلطان سيدي محمد بن عبد الله يبادر إلى توزيع المنح على شيوخ التدريس، ويستقبلهم في بلاطه، وبعد صلاة الجمعة يدعوهم لتناول الأطعمة المنتخبة⁵⁴، وكان السلطان المولى سليمان يكرم العلماء مرتين في السنة⁵⁵، وبصفة إجمالية جرت عادة ملوك الدولة العلوية أن تمنح العلماء المدرسين علاوة على راتبهم الشهري الزيت والقمح والثور والكسوة⁵⁶.

- حضور المجالس وحفلات الختم: في اتجاه التشجيع على التدريس وتلقي المعرفة كان السلاطين العلويون يترددون على حلقات الكراسي العلمية بين الفينة والأخرى، وفي هذا النطاق تحتفظ كتب التاريخ بإفادات وحيهة، ومعلومات دفيئة عن السلطان المولى رشيد الذي "كان يحضر دروس العلماء بجامع القرويين، ويحثهم على بث العلم ونشره، ويناقشهم في دقائق المسائل، ويشجعهم على ذلك بوافر العطايا"⁵⁷، وفي سنة 1107 أم القرويين، والمدرسة المصباحية، ومجالس

51 - أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري: ج 8، ص 69، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.

52 - المجالس العلمية السلطانية: ج 1، ص 220.

53 - المجالس العلمية السلطانية: ج 1، ص 236-237-253.

54 - نشر المثاني: ج 4، ص 123-124.

55 - المجالس العلمية السلطانية: ج 1، ص 269.

56 - عبد الرحمن بن زيدان: العز والصولة في معالم نظم الدولة: ج 2، ص 163. مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية، الرباط، 1381هـ-1961م.

57 - الدرر الفاخرة: ص 12.

الحسن اليوسي، وعلي الزموري، وأعطى لكل واحد منهما مائة مثقال⁵⁸، وكان السلطان مولاي سليمان ينزل من دار المخزن ويغشى العلماء في مجالس التدريس بغتة، فمن أجل تفقد الطلبة وعملية سير الدروس دخل إلى مسجد زقاق الحجر بفاس، وحضر درس الشيخ الطيب بن كيران في شرح مغني اللبيب لابن هشام، وأمر لكل من حضر بدبلون من الذهب، وفي السياق نفسه نجده يحضر ختم الشيخ الطيب بن كيران لتفسير القرآن الكريم بزاوية الشيخ قاسم بن رحمون بفاس⁵⁹، وحظي حضور حفل ختم الدروس باهتمام بالغ من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ الذي نراه يبادر إلى مواكبة الحفل الختامي لشرح المختصر الخليلي من طرف العلامة المهدي الوزاني، فينعم عليه بصلة ذهبية ويمنح لويزا ذهبيا لكل من حضر⁶⁰.

- تنظيم نزهة سلطان الطلبة: في اتجاه الترويج على الطلبة من عناء الدراسة والمثابرة والاعتراف بأهمية الطالب في الحياة العلمية؛ سن السلطان مولاي رشيد العلوي نزهة للطلبة يتم فيها اختيار سلطان منهم تسند إليه مقاليد السلطة لمدة زمنية مخصوصة، وبكيفية معهودة ومعلومة، وقد درج على هذا التقليد كل السلاطين، إلى أن توقف الاحتفال في السبعينيات من القرن العشرين⁶¹.

- إحياء الكراسي العلمية: ومن أجل ضخ دماء جديدة في المجالس العلمية، والسعي إلى تحديثها وعصرنتها، وإعادة هيكلتها من جديد أقر جلالة الملك السلطان محمد الخامس النظام الدراسي بالقرويين، وكلية ابن يوسف، وأحدث إصلاحات مهمة تمس المناهج والبرامج والمقررات والمراقبة والإشراف⁶².

ولما دب الوهن في التعليم الأصيل ومجالسه العلمية؛ بسبب هيمنة التعليم العصري؛ أعطى جلالة الملك الحسن الثاني قدس الله روحه وأوامره المولوية السامية ببعث المجالس العلمية في مختلف مساجد المملكة المغربية، وإحداث كراسي علمية لتدريس العلوم العربية والإسلامية، وتم تدشين هذه الكراسي بجامع القرويين يوم الجمعة 9 محرم عام 1405 هـ الموافق 15 أكتوبر 1984 م.

58 - نشر الثاني: ج3 ص 75-76.

59 - المجالس العلمية السلطانية: ج1، ص 376-377.

60 - الدرر الفاخرة: 142.

61 - الحسن السائح: نظرات في القصة والمسرحية في الأدب العربي: ص 103-121، منشورات دار الكتب العربية، لبنان، 1968 م.

62 - الدرر الفاخرة: 161-177.

ومن زاوية أخرى فإن الشرائح الاجتماعية بمختلف أطيافها وأصنافها ساهمت على نحو فعال في بناء الصرح الثقافي للمجالس العلمية؛ بانتهاج خطة وقف الممتلكات العقارية والبساتين والأجنة على كراسي الإقراء والتلقين والتوريق على حد سواء.

وتنطوي الحوالات الحبسية على معلومات ثمينة حول حركة الوقف على الكراسي العلمية كي تبقى مسترسلة في أداء وظيفتها التعليمية والتثقيفية.

ففي العهد الإسماعيلي يمكن الحديث عن عدة أوقاف تخص جامعة القرويين، شملت كرسي المحراب، وكرسي ظهر خصبة العين، وكرسي ظهر الصومعة، وكرسي مستودع باب الحفافة، وكرسي النحو...، فبخصوص كرسي المحراب فقد أوقف عليه المحبسون أكثر من 21 عقارا كحانوت بقببية الصديني، ونصف حانوت بالسبيطريين، وأرحى زنقة الرطل، وربيع مصرية الحدادين من باب السلسلة، وقصاري بدار الدبغ من جرنيز تجاور الساقية، ودار بباب النقبة. وبخصوص كرسي ظهر خصبة العين فله من الأوقاف حظ من حانوت بسوق البرنس، وحظ بأرحى قنطرة أبي رؤوس، وحظ بطراز من الطالعة، وحظ من حانوت بالعوادين، وحظ من حانوت بعين علون⁶³.

وبمدينة مكناس استفادت الكراسي العلمية من مداخيل الأحباس الموقوفة عليها، فكرسي الليل شملته أربع حوانيت ملكيتها تامة، وخمسة مشتركة توجد بالخرازين، وسويقة الجمعة، والعطارين، والصبيطريين، وكرسي النهار شمله حظ بحانوت العطارين، وغابة زيتون بالبلاد المسماة بحديدة، وكرسي التفسير شمله نصف خمس حوانيت بباب الجديد، وخمسة أثمان حانوت بالخبازين، وجلسة حانوت بتربيعة الخرازين، وموضع زيتون بالرميلة⁶⁴.

فبهذه الأوقاف ضمنت للمجالس العلمية مداخيل قارة حفزت شيوخ المعرفة على المضي في التدريس آناء الليل وأطراف النهار بكل همة ونشاط.

ثانيا: مجالس الإشعاع الثقافي

تنهض مجالس الإشعاع الثقافي على المناقشة والمحاورة والمذاكرة، وتداول الرأي وتبادل الخبرات، والاستفادة من المخزون المعرفي والرصيد العلمي لرجالاتها، وتشكل تجمعات حرة لا

63 - السعيد بوركية: دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية: ج1، ص 216-217-218، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة 1417هـ-1996م.

64 - رقية بلمقدم: أوقاف مكناس في عهد المولى إسماعيل: ج 2، ص 379-380 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة فضالة 1413هـ-1993.

تخضع لحدود مقيدة في الزمان والمكان، وتجسد قاسما مشتركا بين جميع فئات المثقفين بمختلف أصنافهم، وتنوع مشاربهم وأذواقهم، وانتماءاتهم الاجتماعية والفكرية، ولم تبق هذه المجالس حبيسة المعاهد الرسمية للتدريس بل استقطبت فضاءات أخرى تتمثل في البلاطات والقصور، والمنازل، والحقول والبساتين، وقد تتم هذه المجالس بطريقة عفوية وفجائية، أو تنظم استجابة لمقصدية مسبقة.

وقد ازدهر هذا النوع من المجالس في عهد الدولة العلوية نتيجة التفوق الحاصل في المجالس التلقينية التكوينية ونتيجة التشجيع الذي لقيته من السلاطين والنخبة المثقفة، والأسر العالمة، وشيوخ الزوايا، ورجالات الأدب والإبداع، وبذلك تنوعت إلى المجالس السلطانية، ومجالس الزوايا، ومجالس المنتديات الخاصة.

1- المجالس السلطانية:

عقد الملوك العلويون مجالس علمية ومنتديات ثقافية في بلاطاتهم، واستدعوا لهذا الغرض جهابذة العلماء، وأقطاب الثقافة والفكر، بل أكثر من ذلك نراهم يسندون المناصب السامية في الدولة من وزارة وحجابه وكتابة وقيادة وسفارة إلى العلماء والمثقفين والأدباء كالوزير اليمحمدي، والوزير محمد بن إدريس، والسفير ابن عثمان المكناسي، والسفير أبي القاسم الزياني، والكاتب محمد أكنسوس⁶⁵، فكان السلاطين يستفيدون من خدماتهم الإدارية وكفاءتهم العلمية.

وكان العلماء يجسدون فئة هامة من التشكيلة العامة لبطانة الملوك وحاشيتهم من أهل المسامرة والمحاضرة، وأهل النصيحة والاستشارة، وتبعاً لهذه الحقيقة كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله "محبا للعلماء وأهل الخير مقرباً لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمة، منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد بن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الراشدي، والفقيه أبو زيد عبد الرحمن المدعو بأبي خريص"⁶⁶.

وتنوعت المجالس السلطانية إلى مجالس عامة، دائمة ومستمرة، تطرح على بساطها القضايا الفكرية والثقافية والدينية والسياسية، وتدير شؤون الرعية دفعة واحدة، ومجالس خاصة بالمناسبات

65 - محمد الاخضر: الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية: ص 334-398-409-431-445 دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، ط 1، عام 1977م.

66 - كتاب الاستقصا: ج 8، ص 66.

الدينية الوطنية والعائلية كمجالس الختم، ومجالس الاستشارة، ومجالس الحديث، والمجالس الأدبية، ومجالس التدشينات الملكية.

- المجالس الحديثية: تنقسم بدورها إلى مجالس أسبوعية، وأخرى شهرية، فالمجالس الأسبوعية تخصص لدراسة الحديث النبوي، ومناقشة قضاياها على شكل أسئلة وأجوبة⁶⁷، والمجالس الشهرية التي كانت تعقد لسرد صحيح البخاري في شهر رجب وشعبان ورمضان، وقد رسخها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وبقي العمل جاريا بها إلى عهد السلطان محمد الخامس، حيث تم اقتصارها على شهر رمضان فحسب، ولحسن الحظ فإن الشيخ المكي البطاوري يوثق بمهارة للدروس الحديثية التي أملاها بمحضر السلطان مولاي عبد الحفيظ لما زار الرباط عام 1330هـ⁶⁸.

- مجالس الختم: احتفى السلاطين بمجالس ختم العلماء ونظموا احتفالات خالدة تعظيما لعلوم الشريعة السمحة، وإشادة بجهود العلماء الشيوخ، وفي هذا السياق استدعى السلطان مولاي إسماعيل العلماء لقصره العامر لحضور ختم العلامة محمد المجاصي لدروس تفسير القرآن الكريم، وبعد الفراغ أفاض على الحاضرين ما لذ وراق من فاخر الأطعمة وجيد التغذية، وتولى بنفسه صب الماء على ضيوفه الأعراء، ووزع بيده عليهم الجوائز الغراء⁶⁹.

- مجالس الاستشارة: ومن حين لآخر وحسب المستجدات التي تطرح نفسها بإلحاح على أرضية الواقع عقد السلاطين مجالس استشارية لاستخلاص الفتوى الدينية من العلماء، واتخاذ وجهة نظر شرعية في القضايا المعروضة على أنظارهم، كما هو الحال في استشارة السلطان مولاي عبد الرحمن للعلماء في شأن بيعته من طرف أهل تلمسان ووهران، واستفتاء العلماء في مسألة امتيازات الجالية الأجنبية من طرف السلطان مولاي الحسن⁷⁰.

- مجالس المناظرة: جسدت المناظرة وتنازع الأفكار واختلاف الرأي أشغال الكثير من المجالس السلطانية العلوية، ولا أدل على ذلك من المجالس التي عقدها السلطان المولى إسماعيل لإجراء المناظرة بين رهبان النصراني بالمغرب وعلماء حضرته حول أحقية وصحة الدين الإسلامي⁷¹.

67 - الحسن العبادي: الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي: ص 88، بنميد، الدار البيضاء عام 1987م.

68 - المكي البطاوري: الدروس الحديثية في المجالس الحفيفية: ص 2، مطبعة الأمانة، ط 1، عام 1365هـ - 1946م.

69 - الدرر الفاخرة: ص 38-39.

70 - المجالس العلمية السلطانية: ج 1 ص 443، ج 2، ص 16-44.

71 - المجالس العلمية السلطانية: ج 1، ص 267.

- المجالس الأدبية: أفسح السلاطين المجال لانعقاد المجالس الأدبية في نطاق الاستمتاع بالسمر والكلمة الشاعرة حيث هب الشعراء لإلقاء القصائد على مسامع السلطان في شتى المناسبات المختلفة، فهذا السلطان المولى سليمان نظم مجالس أدبية تبارى الشعراء من خلالها في إلقاء إبداعاتهم الفنية الرائعة، وعلى رأس هؤلاء الشاعر المفلق، البلاغي المتفنن حمدون بن الحاج السلامي⁷² الذي جمع هذه الروائع الشعرية في كتابه "النوافح الغالية في الأمداح السللمانية".

- مجالس التدشين: وهي ذات طقوس احتفالية يتم تتويجها بمجلس علمي يحضره العلماء والمثقفون، كمجلس تدشين السلطان مولاي عبد الحفيظ للمسجد الجديد بباب الجنود بفاس عام 1329هـ، ومجلس تدشين السلطان محمد الخامس بمناسبة بناء القصر الخاص الذي شيده لولي عهده سنة 1353هـ⁷³.

- المجالس الرمضانية: نالت شأوا رفيعا في عهد جلالة الملك الحسن الثاني ووارث سره جلالة الملك محمد السادس أيده الله، ففي عهدهما الميمون الزاهر يضم القصر الملكي العامر مجالس لإلقاء الدروس الرمضانية التي يستدعى إليها العلماء ورجال البحث من المغرب ومن مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وبفضل الإشراف الملكي على هذه المجالس حققت رصيذا هائلا في مجال الدراسات الدينية والحضارية والتاريخية والفلسفية والكونية والطبيعية، وهي مفخرة كبرى من مفاخر الدولة العلوية الشريفة.

2- المجالس بالزوايا الدينية:

شهدت الزوايا حضورا مكثفا للمجالس العلمية التي كان يعقدها الشيوخ مع تلامذتهم ومريديهم وزوار منتدياتهم، فبالإضافة إلى الوعظ والإرشاد والتوجيه، وقراءة الأحزاب والأذكار، كانت مجالسهم تنفتح على التفسير والحديث النبوي الشريف، والتاريخ والتصوف والسيرة النبوية، والأصول والمنطق وعلم الكلام والعلوم الكونية، وتتضمن كتب المناقب إفادات مهمة حول مجالس الشيخ سيدي العربي الدرقاوي، ومجالس الشيخ سيدي المعطي الشرقاوي، ومجالس الشيخ مولاي عبد الله الشريف الوزاني، ومجالس الشيخ سيدي المختار الكتتي، ومجالس سيدي عبد القادر الفاسي.

72 - حمدون بن الحاج: النوافح الغالية في الأمداح السللمانية: ص 138-142-151 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة فضالة 1421هـ-2000م.

73 - المجالس العلمية السللمانية: ج 2، ص 91-120.

اعتنت الزاوية الشرقاوية بالمجالس العلمية الإشعاعية بصورة لافتة، فهذا الشيخ محمد الصالح يهيء حلقات علمية كبرى يستدعي لها كبار علماء وفقهاء العصر، فقد اغتنم فرصة وفادة الشيخ العالم الحسن ابن رحال المعداني التادلي على الزاوية، فاستدعى فقهاء وطلاب العلم بالقطر التادلي برمته، فاجتمع عليه خلق كثير للاستفادة من تجربته الثقافية⁷⁴.

ودأب سيدي علي السوسي شيخ الزاوية الدرقاوية بإيلغ بالقطر السوسي على إعداد مجالس شكلت منتدى ثقافيا يغشاه العلماء للمذاكرة، وتجاذب أطراف الحديث في موضوعات دينية وصوفية مختلفة، فقد "كانت المذاكرة العلمية محبة إليه كثيرا، ولذلك يقضي غالب ليله في منزل الأستاذ سيدي علي بن عبد الله حيث تتموج الأبحاث العلمية دائما"⁷⁵، ويدوم السمر العلمي إلى منتصف الليل حيث يقضي زمنا طويلا في مراجعة ومطالعة الكتب⁷⁶.

وبالرباط تصدى لتنشيط مجالس المذاكرة العلمية سيدي العربي بن السائح شيخ الزاوية التيجانية الذي انفتح مجلسه على معالجة الموضوعات الأدبية والصوفية والاجتماعية بمحضر ثلة من تلامذته وخواص مريديه، وفي طليعتهم عبد القادر لوباريس، والحاج محمد بن يحيى بلامينو، وعبد الله بن محمد التادلي الرباطي، والحاج الطيب عواد من سلا، والطاهر بن عدو من مكناس⁷⁷.

وللمجالس المذاكرة العلمية الهادفة، والنقاش العلمي المفيد حضور مشع في منتديات الزاوية الوزانية التي أطرها شيوخها بوزان، وأبنائها بالزوايا الفرعية بفاس وتطوان ومكناس وآسفي والرباط، فبوزان أطر هذه المجالس الشيخ مولاي عبد الله الشريف، وتبعه في ذلك باقي الشيوخ الذين جاؤوا من بعده، وفي مقدمتهم ابنه الشيخ سيدي محمد الوزاني الذي أم مجالسه الحديثية الراغبون في الكرع من حياضها من كل فج عميق، إذ كان "يقصد للزيارة من البداوة والحضارة، وكان يجلس إليه العلماء الأئمة، أعلام هذه الأمة، فيأخذون عنه الأحاديث النبوية، ويقتسمون ما نالوا من بركاته على السوية"⁷⁸.

74 - الزاوية الشرقاوية: ج 2 - 209.

75 - محمد المختار السوسي: الترياق الداوي في أخبار الشيخ سيدي الحاج علي الدرقاوي، ص 74، المطبعة المهدية، 1381-1961م.

76 - الترياق الداوي: ص 75.

77 - محمد المتوني: نادي أبي حامد العربي ابن السايح: ص 93، منشور ضمن أعمال ندوة ظاهرة الأندية الأدبية في المغرب، منشورات النادي الجرازي، الحلقة الثالثة، 1419هـ-1998م.

78 - محمد بن الطيب العلمي: الأنيس المطرب في من لقيه مؤلفه من أدياء المغرب ص 144، طبعة حجرية فاسية 1303هـ.

والجدير بالذكر أن مجالس المذاكرة العلمية بلغت أشدها مع مولاي عبد السلام ابن ريسون شيخ الزاوية الريسونية بتطوان، الذي عقد مجالس خاصة للعلماء من أجل مدارس الهمزية، وسيرة الحلبي، وسيرة دحلان، وكتاب الإتقان في علوم القرآن... وكانت مجالسه هاته يحضرها "جميع العلماء الذين كانوا بتطوان مع كل من حضر من العلماء الزائرين، ويجلس كل في محله اللائق به، ويشرعون في المذاكرة إلى الفراغ وهو كواحد منهم يقبل ويرد".

3- المجالس بالمنتديات الخاصة

إن تبادل الزيارة بين العلماء، وتردد عشاق المعرفة على مساكنهم، حفزهم من جانب آخر على إقامة مجالس خاصة بالمذاكرة والمناقشة في مختلف العلوم والفنون كما هو الحال في مجالس الحسن اليوسي، ومجالس التاودي ابن سودة، ومجالس أبي الربيع سليمان الحوات، ومجالس الشيخ ابن عجيبة، ومجالس الشيخ فتح الله بناني، ومجالس حمدون بن الحاج، ومجالس الوليد العراقي، ومجالس محمد بن محمد العلمي المؤقت الفلكي...

ولم تبق هذه المجالس حبيسة المنازل والدور، وإنما أصبحت سلوكا حضاريا تتم ممارسته في الفضاءات المفتوحة، فهذا الشيخ التاودي ابن سودة لما آب من الحج قصد جبل العلم، وبالقرب من ضريح الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ألقى دروسا في الحديث، وفتح باب المذاكرة حول موطأ الإمام مالك بمحضر جماعة من العلماء والشرفاء⁷⁹.

على أن بعض المجالس العلمية احتضنت نقاشا حادا على شكل مناظرة احتد فيها النقاش حول قضية محددة كما هو الأمر في المجلس الحفيل بدار وزير العدالة العلامة الرندة الذي أعده بمناسبة احتفاله بأعضاء جمعية أوقاف الحرمين الشريفين، وضم شخصيات مغربية وجزائرية وتونسية، واشتعلت جذوة النقاش فيه حول موضوع الطرق الصوفية ما بين منكر ومنتصر⁸⁰.

وفي عهد الحماية بزغ إلى الوجود مجموعة من النوادي الأدبية التي كانت تستقطب أسماء لامعة في الثقافة والأدب، يؤطرها ويشرف على تسييرها أعلام كبار، وقد انتشرت هذه النوادي في مختلف الحواضر المغربية، ففي الرباط اشتهر نادي الشاعر الأديب محمد بوجندار الذي حضر جلساته عبد

79 - علي زين العابدين العراقي: فهرس زيان العراقي، تقديم وتحقيق احمد العراقي، ص 59، مطبعة أنفوبرانت، فاس، ط 1 عام 2015م.

80 - أحمد سكيرج: إحقاق الحق ودفع الهراء في ذكر مناظرة جرت بيني وبين بعض الوزراء، تحقيق محمد الراضي كنون الحسني، ص 9-14 (ب.ت.ط.).

الله القباج، والمؤرخ الفرنسي دو كاستر، والعلامة أحمد بن المامون البلغيثي، والشاعر محمد الجزولي، والكاتب عبد الحميد الرندة⁸¹، واشتهر أيضا نادي العلامة عبد الله الجراري الذي أسس عام 1930م، وأمهت أسماء علمية وازنة من المغرب ومن المشرق كأبي بكر بناني، وعثمان جوريو، وعبد اللطيف خالص، وخير الدين الزركلي، وأحمد توفيق المدني⁸²، وقد جرت فيه نقاشات حول مواضيع أدبية ولغوية وتاريخية ودينية وفنية مع الاطلاع على الإصدارات الجديدة، وقراءة الإنتاجات الثرية والشعرية لرواد النادي.

وذاع بمدينة مكناس صيت النادي الزيداني لمؤسسه المؤرخ النقيب عبد الرحمن بن زيدان العلوي الواقع برياض منزله بحومة الستينية، وكان يغشاه أعلام من مكناس ومن المغرب والمشرق كمحمد بن الحسين العرائشي، ومحمد بن يحيى الصقلي، وابن الحاج السلمي، ورشيد مصوبع اللباني⁸³، وعن وصف الجو العلمي الذي كان يسود جلسات هذا النادي يقول العلامة أحمد بن الحاج العياشي سكيرج: "وقد جلسنا مع سيادة النقيب بروضه الأنيق أياما، ونحن في تمتع بالنعيم الذي انتعشت به الأرواح والأشباح مع العكوف على دراسة الأدب مذاكرة ومطالعة، ومحاضرة ومناظرة في مسائل علمية فرعية وأصولية معه ومع زائريه الذين كانوا يتورادون علينا حين سمعوا بقدومي من أعيان ونجباء وعلماء وأدباء"⁸⁴.

وبصفة إجمالية فإن المجالس العلمية في العهد العلوي الزاهر بشتى أصنافها نهضت بدور فعال في مجال التأصيل الفكري، والإشعاع الثقافي، وصيانة الثقافة العربية والإسلامية، والمحافظة على مقومات الثقافة الوطنية، وتكوين الأطر العاملة التي حملت المشعل العلمي عن جدارة واستحقاق، وما كان لهذا الهدف أن يتحقق لولا تظافر الجهود المبذولة من طرف السلطة والمجتمع والنخبة العاملة.

81 - محمد أمحمد: النادي الجندياري: ص 173-174، منشور ضمن كتاب ظاهرة الأندلية الأدبية في المغرب.

82 - محمد أمحمد: من تاريخ الأندلية الأدبية في المغرب، النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري، ص 24-38 مطبعة الأمانة - الرباط 1425هـ-2004م.

83 - عباس الجراري: ابن زيدان الأديب ص 280، منشور ضمن كتاب "عبد الرحمن بن زيدان" مطبعة إيديال، 1998م.

84 - أحمد سكيرج: الرحلة الزيدانية: تحقيق محمد الراضي كنون الحسني، ص 39 (ب.ت.ط.).

المجالس العلمية في العصر العلوي الأول

مجالس السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف

(1082-1139هـ / 1672-1727م)

د. أحمد إيشرخان
أستاذ باحث - الرباط

مقدمة:

من مظاهر ازدهار عصر سلاطين الدولة العلوية، نماء العلم وازدهار علومه، بعد انطماش معاملة وذهاب محاسنه، إبان فترة طويلة من سيادة ثورات وفتن أعقبت وفاة أحمد المنصور الذهبي سنة 1012هـ، رغم وجود الزوايا التي حافظت على قبس من شعلة علمية، والتي نقلت مراكز العلم من المدن الحضرية إلى البوادي والقرى المغربية. ولقد أدرك السلطان مولاي رشيد بفطنته، وهو من نبهاء الطلبة الذين درسوا بجامع القرويين، هذا الانحصار الثقافي، لذلك بادر بعد مبايعته إلى تشجيع العلم وأهله، بكل الصيغ الممكنة المتمثلة في إجزال العطاء للعلماء، وحضور مجالسهم، واستدعائهم لحضرته، وإنشاء المدارس، وبناء الخزانات العمومية وتوقيف الأوقاف وتوزيع الكتب على المكتبات، وجعل نصب عينه الاشتغال بالعلم من شؤون الدولة، بل جعل العلم من جملة أسسها ودعائمها التي تقوم عليها، لذلك: «كان مجلسه غاصا بأهل العلم»¹.

هذه المبادئ التي وضعها المؤسس الفعلي للدولة العلوية الشريفة، هي التي ورثها الخليفة السلطاني بفاس المولى إسماعيل ابن الشريف، إثر الوفاة المفاجئة للسلطان مولاي رشيد بجنان المسرة بمراكش. فقام بها أحسن قيام، وزاد في العناية بشؤون العلم وأهله، وكان أسمى تجليات اهتمامه بالعلم والعلماء في إنشاء المجالس العلمية ووضع قواعدها على أسس وأساطين مستقرة، وسن سننها

1 - محمد الصغير اليفراني، روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1415-1995، ص. 83.

وأعرافها، فصار صداها متواترا جيلا بعد جيل، حتى اعتبر المولى إسماعيل أول من أسس المجالس العلمية السلطانية العلوية.

ولقد اشتهر المولى إسماعيل بكونه سلطانا يكرم العلماء، ويستدعيهم للمآدب بالقصر الملكي، ويصب الماء على أيديهم، ويقيم لهم المجالس بحضرته، ويحضر مجالسهم العلمية، ظاهرا ومتخفيا، وينتقل إلى المدارس والمساجد لحضور حفلات ختماتهم، ويحث وزراء دولته بحضورها، ويوصي من سيخلفه من بعده بحضور مجالس العلماء.

السلطان مولاي إسماعيل، الملك العالم:

اشتهر ملوك الدولة العلوية بكونهم، ملوكا علماء، وعلماء ملوك، يساهمون في تنشيط المجالس العلمية، لكن نادرا ما يُنَبَّه إلى ذكر السلطان مولاي إسماعيل ضمن لائحة أسماء الملوك العلماء، ولعل ذلك مرتبط بالصورة النمطية المتواترة عنه باعتباره رجل سلاح وحروب، وقد اشتهر بخصوصيات ومميزات يتميز بها الجيل الأول من المؤسسين للدول، وهي: القوة والخشونة حسب النظرية الخلدونية، لكن مصادر أخرى تذكر المولى إسماعيل كرجل سيف وقلم، وتجعله من العلماء الذين لهم شغف بالعلوم. ورغم أننا لا نعرف الكثير عن مساره العلمي، كما نعرف مثلاً: عن السلطان المجدد سيدي محمد بن عبد الله، وعن السلطان العالم مولاي سليمان، وعن السلطان مولاي الحسن الذي له إجازات في علوم الرواية والدراية، وعن السلطان العالم المؤلف المكثّر، شاعر المعرب والملحون المولى عبد الحفيظ. فقد وردت إشارات عابرة تشير إلى أخذ المولى إسماعيل مبادئ العلوم عن بعض علماء عصره، من مثل: الفقيه إبراهيم الزياتي، والفقيه الوزير أحمد اليعمدي، وقد كتب المؤرخ الشهير محمد الصغير اليفرنّي، وهو معاصر للعصر الإسماعيلي، نصا فريدا يذكر فيه قوة فهم المولى إسماعيل ورجاحة عقله، نسوقه بنصه للدلالة على مكانة السلطان العلمية، يقول اليفرنّي: «له من الفهم الثاقب والعقل الراجح ما يحير عقول العلماء، وكثيرا ما تدور في مجلسه غرر المسائل، فإذا تكلم فيها أبهت الحاضرين، وأذهل المتكلمين»². أما العلوم التي كان يتقنها السلطان مولاي إسماعيل كما يستفاد من قراءة بعض النصوص التاريخية المختلفة، فهي بالترتيب كما يلي:

- مسائل التاريخ

- معرفة الأنساب

2 - محمد الصغير اليفرنّي، روضة التعريف، ص. 81.

- علم السير

- بالإضافة إلى العلوم التي يشارك فيها السلطان مولاي إسماعيل، فقد كان له شغف كبير بالأدب عموماً، وبالشعر خصوصاً، وكان يتمثل بقول الشعراء كالمُتَنَبِّي والنابغة الذبياني³، ويحث شعراء عصره على إبداع المقطعات وإنشاد أبياتها على لسانه⁴، ويوحي لهم بمواضيعها ويحييهم بالعتاء الجزيل عليها، ويأمر الخطاطين بكتابتها على المعالم العمرانية التي يؤسسها.

وهذه شهادة مؤرخ العصر الإسماعيلي، محمد الصغير اليفرنى، الذي فرغ من تأليف كتابه في التعريف بالمولى إسماعيل في أواسط محرم 1133 هـ، أي قبل وفاة السلطان بحوالي ست سنوات، وهو على مشارف الثمانين سنة من عمره⁵ : «وأما مسائل التاريخ ومعرفة الأنساب فهو ابن بجدتها، والعارف بدسائسها، يعرف القبائل العربية والشعوب البربرية، ويميز كل واحد بقعدوده، ولم يكن في وقته أعرف منه بالأنساب، كأنها جمعت له في صعيد واحد، وهو ينظر إليها نظرة واحدة، وأما علم السير ففي يده كالماء، وله فيه اليد الطولى، وكم من مرة يسأل علماء عصره بمجلسه عن نسب أحد من الصحابة، أو وقية له، أو منقبة وُسم بها، فلا يجد معهم شيئاً من ذلك، وربما أفادهم بفوائد ما خطرت لهم على بال»⁶. وفي هذا النص دليل على مشاركة السلطان للعلماء في مجالسهم العلمية بالسؤال والنقاش والإفادة.

سلطان لا يأنف من تلقي عن علماء عصره :

من فضائل السلطان مولاي إسماعيل، رغم توليته الإمامة الكبرى، وانشغاله بشؤون الحكم وإدارة شؤون الدولة وتثبيت أسسها، أنه لم يأنف من تلقي العلوم عن علماء عصره، بل أقر لولده مولاي المأمون، خليفته على مراکش، أنه تلقى عن وزيره العلامة أحمد اليعمدي عندما قال له المأمون، وكان يكره العلامة الوزير اليعمدي: «يا مولاي، إن اليعمدي ينقصك، ويزعم أنه هو الذي علمك الدين، وأنتك جاهل لا تعرف الفرض والسنة، فقال له السلطان: والله إنه لصادق، إن

3 - ومن الأبيات التي كان كثيراً ما ينشدها عند الخطوب، قول الشاعر:

وجربت الأمور وجربتني ❁ كأي كنت في الأمم الخوال

ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص. 39.

4 - عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992 ص 197.

5 - عاش السلطان مولاي إسماعيل ما يناهز 84 سنة، من عام 1056 هـ-1139 هـ، وبقي في الملك 57 عام سنة بالحساب القمري، من عام 1082 إلى عام 1139.

6 - محمد الصغير اليفرنى، رضة التعريف، صص. 82، 82.

قال ذلك، هو الذي علمني ديني، وعرفني بربي»⁷، وقد ذكر الزياتي في الترجمة الكبرى⁸ أن السلطان مولاي إسماعيل تلقى العلوم عن العلامة النسابة الإخباري الفقيه علي بن إبراهيم الزياتي، وهو جد المؤرخ الشهير أبي القاسم الزياتي، وكان السلطان قد نقله من بلاده زيان ليأتم به في الصلاة وليستفيد من علومه.

وكان السلطان يستدعي أجود القراء إلى قصره لختم القرآن الكريم في مجالسه وفي صلواته، وخصوصا في ليالي رمضان، ومن القراء الذين يحضرونها نذكر الفقيه المتمكن في فنون التجويد الكاتب البليغ سيدي محمد بصري الذي وصفه السلطان بأوصاف بليغة في ظهير إسماعيلي⁹، وكانت للسلطان مولاي إسماعيل عناية خاصة بمجالس تفسير القرآن الكريم، حيث تقام حفلات بمناسبة ختم التفسير، ومن أمثلة ذلك أنه: «في جمادى الأولى عام 1100 أقام حفلة فاخرة بقصره العامر في مكناسة الزيتون، استدعى لها صدور أهل العلم ونجباء الطلبة، بمناسبة ختم العلامة الأقدم القاضي الأعدل أبي عبد الله محمد المجاصي تفسير القرآن الكريم، ونصب له المنبر ببيت جلالته الخاص، اعتناء بالعلم وإجلالا لحملته ومتعاطيه، وبعد الفراغ من درس الختم، أفيض على الضيوف الكرام من أنواع فاخر الطعام ما لذ وراق، وكان هو المتولي بنفسه صب الماء على أيديهم حسبا أشار إلي ذلك الشيخ مرتضى في شرح الإحياء وغيره، وتولى تفريق الجوائز عليهم بيده الكريمة كذلك. قال أبو عبد الله الضعيف: وكان ذلك من مشاهد الجميلة، ومصانعه الجليلة»¹⁰.

ولم أقف لحد كتابة هذه السطور على ما يفيد ترأس السلطان مولاي إسماعيل لمجلس ختم صحيح البخاري في هذه الليلة المباركة، التي يحضرها جلة العلماء ويقوم أحدهم بشرح الحديث الشريف: « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة»، كما جرت به العادة في المجالس الحديثة عند مجموعة من ملوك الدولة العلوية¹¹، حسب ما ذكره مؤرخ العصرين السليمان والرحماني أبو عبد الله محمد

7 - عبد الرحمن ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق د. عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، 1413-1993، ص. 51.

8 - أبو القاسم الزياتي، الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1412هـ / 1991م، صص. 57، 58.

9 - عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج. 4، ص. 59.

10 - عبد الرحمن ابن زيدان، النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، مخ. خ. س. 12652.

11 - من حسن الحظ أن تراثا كبيرا من هذه الختمات ما زال موجودا في الخزائن العامة والخاصة، وما أحوجنا إلى فهرسة خاصة بالكتب المخطوطة لختم صحيح البخاري، بدراسات وافية من الناحية الكوديكولوجية والفيلولوجية، لما تميزت به كتب الختمات من جماليات في النسخة والتفسير والتسطير والتوريق، بالإضافة إلى الإبداع الكبير في المجالين اللغوي والعلمي الذي يبين عنه علماء الختم في حضرة السلطان. وحول بعض مظاهر المجالس في العهدين اليوسفي والمحمدي، يمكن الرجوع إلى ما كتبه المؤرخ الفقيه عبد الله الجراري، في كتابه من أعلام الفكر المعاصر، ج. 1، ص. 227.

الكنسوسي بقوله : «ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة، فيما بلغنا، من قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة، رجب وشعبان ورمضان، حتى صار ذلك أمراً لازماً، لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه»¹².

- طائفة من علماء ساهموا في تنشيط المجالس العلمية الإسماعيلية:

لنعرف بعض مظاهر الحياة الفكرية والمناقشات العلمية التي شهدتها المجالس الإسماعيلية نقصد، باقتضاب شديد، إلى التعريف ببعض العلماء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس، ويساهمون في دروسها ومناقشاتهما، سواء في الإقامة والسفر، أم في البدو والحضر، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

العلامة الفقيه الوزير أبو العباس أحمد بن الحسن اليعمدي وكان ملازماً لركاب السلطان في حركاته وسكناته، وقد رافقه في جل الحروب التي خاضها، وكان يترأس مجالس السلطان العلمية، وإليه الفصل في كل قضية، ولعلنا نستطيع أن نقف، لو أسعفنا الوقت، على ما كان يروج من أفكار وعلوم في مجالس السلطان، خصوصاً في الجانب الأدبي، من خلال ما خلفه هذا العلامة الأديب في الكناشة اليعمدية¹³، ومنهم الفقيه القاضي أبو مروان عبد المالك بن محمد التجموعي السجلماسي، وقد أجاب على العديد من الأسئلة التي طرحت في مجلس السلطان أو طرحها السلطان بنفسه¹⁴، ومنها قضايا مرتبطة بظهور طائفة العكازين، وقضايا مرتبطة بالسقي والمساقات، وناهيك بمساجلاته، ومناظراته، فيما يمكن إدراجه في أدب الردود، مع كل من الإمام اليوسي والشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي، وقد نتج على إثرها مجموعة من المؤلفات والتقايد¹⁵.

والفقيه القاضي سيدي العربي بردلة، وكان يحضر مجالس السلطان ويدلي بدلوه فيها، رغم ما فيها من مخالفة للآراء المساندة لما رآه السلطان، ويكفي هنا ذكر جوابه حينما سأله السلطان عن قضية إقامته صلاة الجنائز على ابنه الثائر محمد العالم بغير صدور إذن مولوي¹⁶، وله نوازل مشهورة

12 - محمد أكنسوس، الجيش العرمم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي، المطبعة الحجرية فاس، ص. 261.

13 - وهي أكبر كناشة مغربية معروفة بالمغرب، تتضمن نصوصاً مختارة في شتى المواد والموضوعات، توجد منها نسخة بالخزانة الحسينية تحت رقم 1034ز، و3385ز، والخزانة العامة 330ك.

14 - عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف، 91.

15 - عبد الرحمان ابن زيدان، معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، دراسة بيلومترية وتحقيق د. حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1430هـ / 2009م، ج. 2، ص. 198.

16 - ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 7، ص. 722.

ومتداولة في كثير من قضايا ناقشها علماء المجالس السلطانية، ومنها فتواه الشهيرة في جيش عبيد البخاري¹⁷. وكان يساهم في حل معضلات ما يروج في مجالس السلطان من الأحاديث النبوية التي ترك أثرا في نفس السلطان، والتي يبادر إلى سؤال علماء حضرته عن صحتها وسندها وطرق روايتها، ونذكر منها على سبيل المثال الحديث النبوي المروي عن النبي ﷺ: الذي قال فيه: «ستغربلون حتى تصيروا في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وخربت أمانتهم» وقد تصدى جملة من علماء حضرته للإجابة على أسئلته المتعلقة بهذا الحديث ومن الذين أجابوا عنه القاضي بردلة¹⁸.

ثم نذكر الشيخ الخطيب البليغ أديب حضرة فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد البوعناني، وقد شارك في النقاش الذي دار بمجلس السلطان حول جواز أخذ أسرى النصارى إثر فتح العرائش، وقال بالجواز، ثم مدح السلطان بقصيدة بمناسبة هذا الفتح¹⁹.

الفقيه المفتي العلامة سيدي محمد بن الحسين المنهجي المكناسي الشهير بأبي مدين السوسي، الذي ساهم بقسط وافر في المناقشات العلمية بالمجالس الإسماعيلية، خصوصا في فقه الأحكام وأدب النوازل، وقد أفتى في حكم غنيمة العرائش وكتب تقييدا عنونه ب: «السهم الرائش في حكم غنيمة العرائش»²⁰. ومن المعلوم أن كثيرا من القضايا التي تناقش في المجالس العلمية السلطانية تصير موضوع كتاب مستقل يؤلفه أحد العلماء المشاركين في النقاش إما بمبادرة شخصية أو بتوجيه من السلطان.

ثم الفقيه قاضي الجماعة أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن المجاصي، وكان يجيب على أسئلة السلطان والنوازل التي تطرح في مجالسه السلطانية. وشارك فيها بالكتابة والتدوين، فمن ذلك مثلا مساهمته المفيدة في قضية محاربة الجماعة الضالة المضلة المعروفة بالطائفة اليوسفية الشهيرة بالعكاكرة، فكتب تقايد أفتى فيهم بحكم الردة والاستتابة²¹ بينما أفتى فيهم اليوسي والتاجمعي بحكم الزندقة

17 - عنوانها: إفشاء القواعد المذهبية والأقوال المرضية في إبطال النحلة العليلشية التي أشاعها الملحد بالأقطار المغربية، وصفة «العليلشية» نسبة إلى محمد بن قاسم عليلش، وهو الذي أطلع السلطان مولاي إسماعيل على دفتر به جرد لأسماء العبيد الذين كانوا في عسكر السلطان المنصور الذهبي، فكلفه السلطان بجمعهم، وكان يحضر مجالس السلطان ويشير عليه بمعاقبة العلماء المعارضين لقضية إنشاء جيش العبيد.

18 - ابن الحاج، الدر المنتخب المستحسن، دراسة وتحقيق، أحمد إيشرخان، ج. 8، ص. 1039.

19 - محمد الصغير اليفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، طبعة هوداس، ص. 207.

20 - أوردها بنصه أبو القاسم العميري في فهرسته، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم 545، صص. 93-97.

21 - منشورة ضمن نوازل المجاصي المطبعة الحجرية (د-ت) ص: 89-95، وص: 105-126.

فنفذ المولى إسماعيل حكمها في مشايخهم: «وقتل ثلاث وستين منهم، وبدد تراثهم، وفرق شمل عوامهم»²². وللمجاصي أيضا مناقشات علمية وأجوبة فقهية في كثير من مسائل الوقف والأحباس والمعاوضة التي قام بها المولى إسماعيل في الحاضرة الإسماعيلية²³.

ثم الفقيه العلامة الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي وهو صاحب الرسائل المشهورة، وقد وردت عدة إشارات تثبت حضوره القوي في مجموعة من المجالس الإسماعيلية، ومن ذلك حضوره مع السلطان في مجلس ختم تفسير القرآن الكريم لقاضي مكناس: أبو عبد الله المجاصي في 5 جمادى الأولى عام 1100هـ/ 27 مارس 1689²⁴، ولقد ذكره المولى إسماعيل بالاسم عندما ذكر أصناف العلماء الأربع حيث قال: «علماء الوقت على أقسام أربعة: قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، ومنهم سيدي الحسن اليوسي، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف من الله ولا منا»²⁵. ويعتبر اليوسي من المساهمين المتميزين في جل النقاشات العلمية سواء بالحضور الفعلي في المجالس العلمية السلطانية أو بالمراسلات التي كان يرسلها إلى السلطان، ورسائله شهيرة في ذلك، وهي تمكننا من أن نستنتج منها جل القضايا العلمية الساخنة التي كانت تناقش في مجالس المولى إسماعيل، ومنها مسألة الجهاد والمرابطة بالثغور، وشرعية قيام الدولة مكان القبائل في الدفاع عن حياض الوطن، ومسألة الفتوى وقيام العلماء بها أحسن قيام، ومسألة محاربة بعض الطوائف الضالة، وفيها كتب اليوسي رسالته الشهيرة في طائفة العكايزين²⁶. كما ساهم اليوسي في نقاش قضية تأمين أسرى العرائش، وبناء القلاع ونزع السلاح من القبائل.

ونذكر أيضا القاضي أبا عثمان سيدي سعيد العميري، وولده أبا القاسم العميري، وهو صاحب الفهرسة المسماة: التنبيه والإعلام بفضل العلم والأعلام، هذه الفهرسة الشهيرة يمكن أن نستخرج منها معلومات مفيدة عن المجالس العلمية والحياة الفكرية في العصر الإسماعيلي²⁷.

22 - عبد الله نجمي، التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكايزة ق 16- 17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1421-2000، ص. 419.

23 - نقف على بعضها في الحوالة الحسنية الكبرى لمكناس، المكتبة الوطنية الرباط ميكرو فيلم 122.

24 - محمد بن الطيب القادري، النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادي والثاني عشر، تحقيق مولاي هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، 1982/1403، ص. 240، ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 6، ص. 505.

25 - ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 6، ص. 568.

26 - مخطوطة بالخزانة الوطنية بالرباط، رقم 1224ك/ ثاني مجموع.

27 - منها نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم: 560، ص. 276. وقد سبق أن حققها الباحث عز الدين الشوافي د. د. ع. مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

والفقيه عبد السلام جسوس وله مشاركات قيمة في مجلس السلطان ونقاشات مهمة في قضية إنشاء جيش عبيد البخاري، وكان يغلب عليه في مناقشاته علم الكلام. وقد تواتر عنه أنه قال للسلطان مولاي إسماعيل لما نهض من مجلسه العلمي بعد جدال كبير حول مسألة إنشاء جيش عبيد البخاري: «اجلس حتى تسمع كلام جدك عليه السلام» وذكر ابن زيدان نقلا من بعض المقييدات أن العلامة عبد السلام جسوس أمسك السلطان مولاي إسماعيل من ثوبه: «حتى صار لا يستطيع القيام، ولا الانتقال، وهو يقول له لا بد أن تجلس حتى تسمع شرع الله»²⁸.

والفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن محمد ابن ناجي الفيلاي السجلهاسي، وهو أحد وجوه الدولة الإسماعيلية، تولى القضاء بسلا والرباط وشارك في كثير من مجالس السلطان العلمية خصوصا في التفسير والحديث والفقه، وأدب الفتوى، وله كلمة نافذة عند السلطان مولاي إسماعيل وهو أحد العلماء الذين أفتوا بحلية إنشاء جيش عبيد سيدي البخاري²⁹.

ولقد كان السلطان مولاي إسماعيل حريصا على طرح الأسئلة على العلماء في ما قل وجل، ولو في سجود الشكر واحتياجه إلى الموضوع، كما كان يسأل علماء مجلسه عن صحة معنى بعض الأقوال المتداولة والمأثورة ومن ذلك سؤاله عن قول العلامة عبد القادر الفاسي: «من قلد عالما لقي الله سالما»، فيجيب العلماء الحاضرون في مجلسه العلمي بما حضرهم، ثم يكتب إلى خصوص العلماء ليجيبوا كتابة:

«وهذه عادته - قدس الله روحه - أنه إن سمع حديثا أو ما في معناه، يسأل عن معنى ذلك وأصله ومبناه، وهذا مقرر شائع في سره ونجواه، من ذلك ما قدمناه، ومن ذلك أنه لما اجتمع مع الولي الأشهر، والسر الأنور، الفتح الرباني سيدي عبد القادر الفاسي، قال له لما سأله عن تقليد العلماء، فأجابه رضي الله عنه بقوله: «من قلد عالما لقي الله سالما»³⁰. ومن الذين أجابوا عن سؤال السلطان العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي.

- سرد الكتب وختمها في مجالس السلطان مولاي إسماعيل

بالإضافة إلى المجالس العامة التي كان يحضرها السلطان بحضور العلماء والفقهاء، وكل من له صلة بالعلم وأهله، فقد كانت للسلطان مولاي إسماعيل جلسات خاصة ينفرد فيها بعالم من العلماء،

28 - ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص. 283.

29 - وكنت قد وقفت على نص فتواه في خزانة أستاذنا العلامة محمد المنوني في 24 ورقة من الحجم الطويل، توفي بمكناس عام 1122هـ / 1710م. ودفن بروضة عائشة عدوية. - المنوني، المصادر العربية، ج. 1، ص. 212.

30 - ابن الحاج، الدر المنتخب، دراسة وتحقيق أحمد إيشرخان، ج. 8، ص. 1045.

لدراسة مسائل علمية، أو لختتم كتاب من الكتب الفقهية، ففي كل ليلة كان السلطان يستدعي فحول العلماء والأدباء والمفكرين للسهر معه، من أجل تدارس الأدب والتاريخ وسير الملوك، حيث قال مؤرخ العصر الإسماعيلي محمد الصغير اليفراني في روضة العريف: «كان من عادته أيضاً: «أن يسرد عليه كل يوم كتاب إلى أن يختمه ويبتدئ كتاباً آخر، وكل ما مر على أذنه من الحكايات الرائقة والأخبار المستظرفة لا ينسى منها شيئاً، بل يستدل بذلك في مواضع الاستدلال، ويفصل بواسطتها عقود ألفاظه البديعة، ولم ير الناس أحفظ منه ولا أثبت ذهنًا، ولا من يقاربه في سيلان الذهن وجودة القرينة»³¹.

ومن السنن الحميدة التي ورثها السلطان مولاي إسماعيل عن أخيه السلطان مولاي رشيد هي إقامة حفلات ختم صحيح البخاري في نهاية شهر رمضان، وقد تحدثت المصادر عن حفلات بهيجة مخلدة بعيون من مقطعات شعرية بمناسبة عقد مجالس ختمات صحيح الإمام البخاري من قبل علماء كبار في العصرين الرشيدي والإسماعيلي لكل من العلامة أبي علي اليوسي، والشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي، وأبي عبد الله محمد بن علي الفيلاي، وأحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني³²، فقد كان السلطان مولاي إسماعيل: «يبحث عمن أراد من العلماء أن يختم كتاباً من الكتب التي تدرس، فيواسيه، ويصل أهله، ويمنحه ما يصيره في طعام وليمة الختم، ويجيز المادحين لهم بالجوائز السنية»³³.

ومن العلماء الذين وصلهم السلطان في مجالس ختماتهم العلمية العلامة الفقيه سيدي محمد بن أحمد المسناوي، وقد كانت من بينها ختمة لكتاب الشفا ختمها عليه الأمير محمد العالم. وقد سجل تفاصيلها الفقيه الأديب سيدي مصباح الزرويلي في قصيدة شهيرة، فوصله السلطان بكسوة ومائة مثقال، وهي من العطاء الباهظ في العصر الإسماعيلي.

وقد ورد عند ابن الحاج نموذج من اعتناء المولى إسماعيل بمجالس العلماء العلمية حين تحدث عن ختم المختصر الخليلي في مجلس العلامة الفقيه سيدي محمد المشاط، حيث أمر السلطان كل من كان بفاس من البساط الملوكي وذوي الحشيات بحضور الختم، منوهاً بقدره، معلماً من شأنه، وقال: لو كنت هنالك، لحضرت مجلسه بنفسه³⁴، ووصل الشيخ صاحب الختم بمال له بال، وهياً له ما يحتاج

31 - محمد الصغير اليفراني، روضة التعريف، ص. 83.

32 - عبد الرحمان ابن زيدان، معجم طبقات المؤلفين، ج. 2، ص. 75.

33 - عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص. 78.

34 - ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 7، ص. 884.

من طعام وليمته، ووصل أصحاب القصائد التي أنشدت في ذلك الختم بصلات سنية. ومنهم الشاعر المفوه سيدي علي مصباح الزرويلي في قصيدة طنانة التي مطلعها³⁵:

نسيم الصبا بلغ إلى أم خالد ❁ تحية صب في لظى الحب خالد
فتاة يغير الغصن لين قوامها ❁ مقرطة هيفاء تيماء ناهــــد
تميت إذا جرت ذيول وصالها ❁ وتحبي إذا ما أنجزت بالمواعد

ويظهر من خلال المجالس العلمية أن الفقهاء متشبثون بمذهب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، وهم يرجحون الموطأ على باقي كتب الحديث، كما يستدلون باجتهادات فقهاء المالكية على بقية المذاهب.

وعلاوة على ما يروج في مجالس المولى إسماعيل العلمية الحديثة كانت قضايا علمية أخرى تدور بمجلس السلطان وهو ما أكده اليفرني بجملة بليغة قال فيها: «وكثيرا ما تدور في مجلسه غرر المسائل»³⁶، فلم تكن بذلك مجالس هذا السلطان مقتصرة على دراسة العلوم الشرعية وتدارس الأحاديث النبوية، بل تعدته إلى الخوض في مجموع من الفنون والعلوم، بإشارة من المولى إسماعيل، أو بطرح سؤال أدبي أو بدعوة إلى التنافس بين علماء مجلسه، وقد شارك فيها مجموعة من العلماء الأدباء نذكر منهم على سبيل المثال: كلا من الفقيه الأديب أبي محمد عبد الحق التيمي، والأديب اللامع الشاعر أبي حفص عمر الحراق الشفشاوني، والفقيه الأديب أبي محمد عبد الواحد البوعناني، والفقيه الأديب عبد السلام بن الطيب القادري، فضلا عن ذلك فقد كان يتخلل مجالسه العلمية أحاديث البسط والانبساط³⁷، ومن باب المباشرة الأدبية التي جرت بمجلسه نذكر على سبيل المثال: قضية الجارية التي حملت سيفاً وتقدمت تمشي أمام السلطان داخل القصر، فخرج السلطان وأخبر بذلك من حضر من الكتاب بمجلسه، وقال لهم صفوا ما أخبرتكم به، فقال في ذلك كاتبه أبو محمد عبد الحق السحيمي³⁸:

حملت سيوف الهند وهي غنية ❁ عن حملها بلوا حظ الأجنان
حسب الفتاة جلاله ومهابة ❁ عز الجمال وهيبه السلطان

35 - تنظر القصيدة بتأملها المصدر أعلاه. ص: 884-887.

36 - اليفرني، روضة التعريف، ص. 81.

37 - ابن الحاج، الدر المنتخب، ج. 6، ص. 247.

38 - أحمد إيشرخان، «البسط والانبساط في عهد السلطان مولاي إسماعيل»، منشور ضمن الأعمال المهداة للأديب الفقيه محمد بنين، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، 2006.

خاتمة:

في خاتمة هذا الموضوع يجب أن نؤكد أن المجالس العلمية الإسماعيلية كانت زاخرة بمناقشة العديد من القضايا وذلك مرتبط بما يلي: أولاً: حيوية السلطان المولى إسماعيل الذي كان كثير الأسئلة، محبا لمعرفة مختلف الجوانب المرتبطة بنوازل العصر، ثانياً: زخم الأحداث التي عرفها العصر الإسماعيلي وطول مدة حكمه، ثالثاً: حضور جملة وافرة من علماء العصر لمجالسه، رابعاً: تشجيع العلم والعلماء. خامساً: توفر الخزانات. كل ذلك كون السلطان يرجع في القضايا العلمية للعلماء: «وهذا دأبه في المشاكل التي يشكل عليه حكمها، فإنه يراجع علماء العصر فيها»³⁹، ويكفي هنا للدلالة على عناية السلطان المولى إسماعيل بمجالس العلماء وصيته لأولاده، وهو في مرض موته، بمزاحمة العلماء في مجالسهم، «فلما اشتد المرض عليه، جمع أبناءه عام ثمانية وعشرين ومائة وألف، ولما مثلوا بين يديه، أوصاهم بوصايا جمّة نفيسة، وكان ضمنها وصيته لمن ولاه الله أمر هذه الأمة من بعده بلزوم مجالسة العلماء، ومزاحمتهم في مجالسهم، حيث قال رحمه الله: «وليكثر من مشاوراة العلماء، ومجالستهم، ومزاحمتهم في مجالسهم، فهم أهل الله، الدالون عليه، لولا العلم ما عبد الله»⁴⁰.

39 - محمد الصغير اليفراني، روضة التعريف، ص. 81.

40 - عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف، ص. 55.

المجالس العلمية السلطانية:

الاستمداد والامتداد

د. إلياس بناني
باحث في الدراسات الفقهية المقارنة،
فاس

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لقد حضّ الشرع على التعلم لكل الفئات والشرائح لما كان العلم زاداً لا يستغني عنه أحد ولا ينتهي إلى الإحاطة به أحد غير الله جل في علاه، ولأجل تلك الغاية حرص الناس على الازدياد منه جيلاً بعد جيل امتثالاً لقوله سبحانه: ﴿وقل رب زدني علماً¹﴾. ومن حرص على إدراك ذلك الفضل الكبير السلاطين والحكام لما علموا أن العلم أقوى دعائم الملك وأن السلطان يشرف بتقريب أولي العلم وإنزالهم المنزلة التي أنزلهم الله تعالى فيها. ولم يزل سلاطين المغرب يعملون على تنظيم مجالس علمية تغني الخزان وتشدّد القرائح وتذكي الفهوم، من مناظرات ولقاءات ودروس ومحاضرات كان أبهاها وأسناها وأغناها ما تجسد في الدروس الحسنية التي تلقى بحضرة أمير المؤمنين في رمضان كل سنة، مما كان له أعظم الدلالات على العناية المولوية التي يحظى بها أهل العلم في هذه العصور الزاهرة. وإذا كان كثير من الباحثين قد عكفوا على التأريخ للمجالس السلطانية التي عقدت وما زالت تعقد وإيراد أمثلة لها وما دار فيها، فإني أخصص هذا المقال للحديث عن التأصيل العلمي والمشروعية التاريخية لها مع ذكر أمثلة توضيحية وامتدادات تبرز الآثار الشرعية للمجالس العلمية السلطانية.

استمداد المجالس العلمية السلطانية من أدلة الوحي:

لقد ورد الحديث عن بعض مجالس الملوك في كتاب الله عز وجل، وحكى الله سبحانه بعض ما دار فيها مما ينبني عليه عمل وتقوم به الحجة على الخلق وما تستنبط منه الأحكام الشرعية العملية من

تأييد الشرع وإرشاده إلى إقامة مجالس علمية بحضرة السلطان، وأن لا يخلي السلاطين مجالسهم من حضور أهل العلم وأرباب المشورة وأولي النهى من ورثة الأنبياء الذين تناط بهم مسؤولية تبليغ الدين وإرشاد الرعية إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. ومن تلك المجالس ما حكاه سبحانه عن نبيه سليمان بن داود عليهما السلام في مجلس ملكه وقد وجه رسالة إلى بلقيس ملكة سبأ التي قبلت القدوم إليه، فطلب من جلسائه أن يقوم أحدهم بإحضار عرشها إظهاراً لما رزقه الله تعالى من النعم ومنها بسط نفوذه وسلطانه على رعيته²، فأخبرنا الله تعالى أن مجلس سليمان عليه السلام كان يضم أهل العلم ممن رزقهم الله تعالى العلم والولاية، فيبين عز وجل من خلال ذلك شرعية المجالس العلمية السلطانية واستحبابها بل وتأكيد الطلب إليها لما يترتب عليها من المقاصد العظيمة والمصالح المعتبرة. ومن تلك المجالس كذلك ما حكاه سبحانه عن نبيه يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، لما أول رؤيا الملك واستدعاه هذا الأخير إلى مجلسه، فقربه وأدناه لما اطلع على شيء من علمه ومعرفته³، ليدلنا الله تعالى بذلك على المكانة التي ينبغي أن يتبوأها أهل العلم عند السلاطين وعلى شرعية المجالس العلمية، لما كان القصص القرآني لا يؤتى به لمحض التفكه ومطلق المسامرة كبعض الوقائع التاريخية، وإنما لاستلهاهم الهدايات القرآنية وتحقيق الصلاح في الأنفس والأفان.

إن القرآن الكريم يقرر أن الملوك الصالحين والعادلين لم يزل دأبهم تقريب العلماء وتخصيص مجالس علمية خاصة بهم ومذاكرتهم فيها ومعرفة أسس إسناد المهام وفق الكفاءات وما تحتاجه

2 - ينظر في قصة نبي الله سليمان عليه السلام وتفسير الآيات من سورة النمل: جامع البيان في تأويل القرآن 460/19 المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420هـ-2000م وتفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) 117/8 المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، 1426هـ-2005م والكشف والبيان عن تفسير القرآن 205/7 المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ) تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى 1422هـ-2002م والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 259/2 المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1422هـ.

3 - ينظر في قصة نبي الله يوسف عليه السلام وقصته مع الملك وتفسير الآيات من سورة يوسف: الطبري 146/16 وتفسير الثعلبي 232/5 ومعالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) 496/2 المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 510هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 1420هـ تفسير القرآن العظيم 395/4 المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ-1999م.

الرعية، وهو الأمر الذي حرص عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم لما ولاهم الله تعالى زمام الإمامة العظمى، واستن بسنتهم من ولوا عرش المغرب حتى عصرنا الزاهر الذي ازدان بالمجالس العلمية السلطانية الممثلة في ترأس أمير المؤمنين للمجلس العلمي الأعلى وللدروس الحسنية الرمضانية أدام الله منارها عاليا. وقد أثر عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: «الْمُتَّقُونَ سَادَةٌ، وَالْفُقَهَاءُ قَادَةٌ، وَمُجَالَسَتُهُمْ زِيَادَةٌ»⁴، فالفقيه يوجه ويخبر بحكم الله تعالى في ما ينزل بالخلق، ومجالسته يستطيع السلطان من خلالها معرفة مرادات الشرع وكيف ينزل المنزل على ما نزل وما يلزم تقديمه وما يولى العناية أكثر من غيره.

ولما كان المغرب يأخذ فقها وعملا بمذهب الإمام مالك رحمه الله ورضي عنه وأرضاه، إمام دار الهجرة ومن انتهى إليه حفظ السنن والآثار وبشر به النبي ﷺ في حديثه، وكان قوله متبوعا وسلم بإمامته القاضي والداني، فإن هذا العالم كانت له مجالس علمية مع السلاطين والملوك الذين عاصروهم، وكانت لها بركات عظيمة على الأمة الإسلامية إلى يومنا هذا، كما سيأتي الحديث عنها في امتداد المجالس العلمية السلطانية.

فتحصل من كل ذلك دعوة الشرع وتأكيده على وجود وإيجاد مجالس علمية سلطانية لما يرتجى من حصول آثارها النافعة ويتحقق من مصالحها المعتمدة شرعا وعقلا، اعتقادا وعملا وسلوكا، عبادة ومعاملة وسياسة وتنظيما، على مستوى علاقة الراعي بالرعية والرعية بالراعي.

امتداد المجالس العلمية السلطانية وما يجتلب من حصولها:

إنه لما كان لا يصلح الرأي بالانفراد، كان لزاما على من ولاهم الله تعالى أمر رعاية الأمة وسياسة شؤونها أن تكون لهم خاصة من جلسائهم ومستشاريهم ممن جعلهم الله تعالى ورثة للأنبياء وحماة للملة الذين يبثون للخلق ما تلقوه من علوم الشريعة وأحكامها، فيثبتونه في ديوان إمام الأمة وسائسها في شكل مجالس علمية تتغى إصلاح الرعية وتحقيق مقاصدها. فالخلق لا يصلحون إلا

4 - المعجم الكبير 105/9 ح: 8553 المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ) المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: الصمعي - الرياض / الطبعة الأولى، (1415هـ-1994م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 134/1 المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت طبعة 1409هـ الزهد لابن أبي الدنيا ص: 184 المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: 281هـ) الناشر: دار ابن كثير، دمشق الطبعة: الأولى، 1420هـ-1999م.

بالدين الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه، وذلك من العمل بقوله سبحانه: «وشاورهم في الأمر»⁵، وقد جعل أبو بكر الحضرمي المرادي مشاورة العلماء من أهم ما ينبغي أن يهتم به السلطان، فقال في معرض حديثه عن صفات الراعي وما ينبغي أن يكون عليه من مشاورة أولي العلم في باب الاستشارة ضمن مؤلفه في السياسة الشرعية: "إن الاستشارة تفيد المستشار عقلاً يزيد به عقله، وهداية يجمعها إلى هدايته، كما يزيد النهر ماء بما يمد به من أنهاره، ومن كلام علي رضي الله عنه: «من أعجب برأيه ضل ومن استغنى بفعله زل والذي يستشير ولا يقبل من نصحاء كالعليل الذي يترك ما يبعث له الطبيب ويعمل ما يشتهي بغير علم»⁶. ولأجل ذلك كانت المجالس العلمية السلطانية تجمع أحكم العقول في سياسة الدين والدنيا فكانت تترتب عليها مصالح جمّة ومنافع مهمة.

وفي تلك المجالس تقوية للملك وجمال له، فأما تقويته فبرأي العالم ومشورته وأما جماله فببهاء العلم وبما يلقي بحضرة السلطان من غرر الفوائد ولطيف الفرائد، يقول الحضرمي: "والسلطان والوالي يحتاج في ولايته إلى سياستين ومن أهل بطانته إلى جنسين: سياسة وبطانة لتقوية ملكه وسياسة وبطانة لجماله"⁷، وقال ابن المقفع: "جماع ما يحتاج إليه الوالي من أمر الدنيا رأيان: رأي يقوّي به سلطانه، ورأي يزينه في الناس. ورأي القوة أحقهما بالبداة، وأولاهما بالآثرة. ورأي التزيين أحضرهما حلاوة، وأكثرهما أعواناً. مع أن القوة من الزينة، والزينة من القوة، ولكن الأمر ينسب إلى معظمه وأصله"⁸.

وفي تلك المجالس تفعيل لمبدأ شمولية الإسلام لكل مناحي الحياة وعدم فصل الدين عن السياسة والحياة، لما كان الإسلام دين تحقق وتخلق، ورسالة سماوية لإخراج للمكلفين عن داعية أهوائهم حتى يكونوا عبيداً لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً، وإدخالهم إلى حظيرة الشرع وجعلهم تحت حكم الله وسلطان شريعته. وقد كان للإمام مالك بن أنس رحمه الله مجالس علمية مع من عاصروهم من الملوك والأمراء الذين بلغ عددهم أربعة عشر ملكاً، تسعة من الدولة الأموية وخمسة من الدولة العباسية، وقد كان يزور الأمراء ويجالسهم فيسمعون نصائحه ويعملون

5 - آل عمران/ 159.

6 - الإشارة في تدبير الإمارة ص: 86 لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي، تحقيق د. علي سامي النشار - دار السلام - مصر، القاهرة - الطبعة الأولى: 1430هـ - 2009م.

7 - الإشارة في تدبير الإمارة ص: 141.

8 - الأدب الصغير والأدب الكبير - ص: 80 المؤلف: عبد الله بن المقفع (المتوفى: 142هـ) الناشر: دار صادر - بيروت.

بأحكامه⁹. وقد كان من بركات مجالس الإمام مالك مع أبي جعفر المنصور تأليف الموطأ وهو معلمة حديث النبي ﷺ وأول كتاب ألف في الحديث الصحيح، ومزايه أكثر من أن تذكر. قال القاضي عياض في المدارك: "وقال أبو مصعب سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض وقد نزل عن شماله إلى بساط وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال أتدري من هذا؟ قلت لا، قال هو ابني وإنما يفرغ من شيبتك وفي رواية إنه استنكر قرب مجلسك مني ولم يربه أحد قط، وحقيق أنت بكل خير وخليق بكل إكرام - وقد كان أدناه إليه وألصق بركبته - فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي أنت أعلم الناس، وفي رواية، أهل الأرض. فقلت لا والله يا أمير المؤمنين. قال بلى، ولكنك تكتم ذلك. وفي رواية فما أحد أعلم منك اليوم بعد أمير المؤمنين. ولئن بقيت لأكتبن كتابك بهاء الذهب، وفي رواية كما تكتب المصاحف ثم أعلقها في الكعبة وأحمل الناس عليها، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ وقول الصحابة وقول التابعين ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أنني لا أرى أن يعلق في الكعبة. قال: وقال له أبو جعفر - وهو بمكة -: اجعل العلم يا أبا عبد الله علماً واحداً، قال فقلت له يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رآه، وفي طريق، إن لأهل هذه البلاد قولاً ولأهل المدينة قولاً ولأهل العراق قولاً تعدوا فيه طورهم وفي رواية إن المنصور قال له: يا أبا عبد الله ضم هذا العلم ودون كتباً وجنب فيها شذائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود واقصد أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة"¹⁰ فكان المجلس العلمي السلطاني سبب تأليف كتاب سارت بخبره الركبان يجسد الوسطية تأصيلاً وتنزيلاً كما وجه إليها أبو جعفر في بيان خطة التأليف وما ينبغي اجتنابه من النقول والأقوال.

وجرت بينهما مناظرة شهيرة كان من بركاتها تذكير مالك رحمه الله لأبي جعفر بقدر رسول الله ﷺ ووجوب التأدب معه حياً وميتاً وغير ذلك من الفوائد والبركات والمصالح¹¹.

وما تزال المملكة المغربية ترفل في هذه السنة الحميدة من خلال ما يقيمه سلاطينها من مجالس علمية حميدة ينتشر شذاها في الخافقين فيحج العلماء من المشرق والمغرب إلى أمير المؤمنين يجلسون بين

9 - ينظر في هذا الأمر: الجانب السياسي في حياة الإمام مالك لعبد الرحمان بن محمد الباقر الكتاني (ضمن مجموعة رسائل) ص: 212-213 اعنتي به حمزة بن علي الكتاني، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى: 2008.

10 - ترتيب المدارك 72/2.

11 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك 101/2 المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ) المحقق: جزء 1: ابن تاووت الطنجي، 1965 م جزء 2، 3، 4: عبد القادر الصخراوي، 1966-1970 م جزء 5: محمد بن شريفة جزء 6، 7، 8: سعيد أحمد أعراب 1981-1983 م الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب الطبعة: الأولى.

يديه وقد رفع منزلتهم وأعلى مكانتهم، وأتاح لهم أن يتكلموا، وأتاح للرعية أن تنهل منهم وتتعلم ما ينفعها في دينها ودنياها. فكانت المجالس العلمية السلطانية مناخا للإفادة العلمية ومنزلا للفائدة الفكرية، "وقد قال العلامة أبو علي الحسن اليوسي في رسالته للمولى إسماعيل: (ثم جاء المولى الرشيد بن الشريف فأعلى العلم مناره، وأوضح نهاره، وأكرم العلماء إكراما لم يعهد، وأعطاهم ما لم يعد، ولا سيما بمدينة فاس، ولو طالت مدته لجاءته علماء كل بلد. وإن صنوه أبا النصر يأمر العلامة المجاصي بختم التفسير في قصره، ويقوم بخدمة العلماء الحضور لذلك، ويصب الماء على أيديهم إجلالا للعلم والعلماء. وهذا السلطان سيدي محمد بن عبد الله قال في حقه عبد السلام بن الخطاط القادري: (كان إماما من علماء الإسلام، له تصانيف تقرأ بالشرق والمغرب، فهو الإمام الموهوب لهذه الأمة على رأس المائة. والمولى سليمان كان ولوعا بزيارة القرويين، وزيارة علمائها، وحضور مجالسهم والإيعاز إليهم بالتصنيف وإجابة من دعاه منهم. ولقد كان إماما عالما مؤلفا قال عنه صاحب الدرر الفاخرة: (وكان يحض على العلم، ويشجع على تعاطيه... وكان يزور جامع القرويين كل آونة، ويتردد على مجالس الصدور، وكان يزور شيوخ العلم وقاداته بدورهم، ويلبي دعوة من استدعاه منهم، ويعود مرضاهم، ويحضر جنازتهم، ولقد كان للسلطان محمد بن عبد الرحمان باع طويل، وقدم راسخة في العلوم العقلية، كالحساب والتوقيت والتنجيم والهندسة والموسيقى. درس تلك الفنون بالنقد والتحرير وختم كتاب إقليدس في الهندسة. وهذا السلطان المقدس المولى عبد الحفيظ العالم الماجد الذي له من المؤلفات الثرية والقصائد الشعرية والأراجيز التعليمية ما لا يكاد يحصى عدا¹².

وفي ذلك يقول جلالة المغفور له الملك الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه في مجالسه العلمية السلطانية التي عنونت بالدروس الحسنية: "ولكن والله الحمد، أبت عناية الله إلا أن هدتنا إلى إحياء هذه السنة الطيبة الفاضلة باستدعاء علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ليتذكروا ويتباحثوا وليكونوا مثالا حيا لما قاله النبي ﷺ في أحد أحاديثه أو كما قال: "أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله"، فأنتم معشر العلماء أولا بأحجامكم المحترمة، وبأفكاركم النيرة وبدروسكم الثمينة من أولئك الذين قال فيهم النبي ﷺ: "أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله" فطوبى لكم وجازاكم الله عنا خير الجزاء"¹³.

12 - مجلة دعوة الحق العدد: 96.

13 - مجلة دعوة الحق العدد: 114.

وقد تميزت المجالس العلمية السلطانية في عصرنا الحاضر بمميزات لم تشهدها المجالس فيما قبل، حيث شهدت الدروس الحسنية الرمضانية مشاركة المرأة في إلقاء دروس دينية بحضرة أمير المؤمنين، في إطار المقاربة بالنوع وتكوين المرأة العاملة، باعتبارها شقيقة الرجل، وكونها أهلاً للنهل من حياض العلم والمزاحمة على مجالسه، وهي تجربة متميزة في هذا المضمار تدخل ضمن تفرد النموذج المغربي في مجال النهوض بالحقل الديني وتنظيمه وتأطيره. حيث ألفت مجموعة من العالقات والأستاذات الباحثات دروساً علمية ومحاضرات قيمة بين يدي صاحب الجلالة والمهابة أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، وتشريفهن بدعوته الكريمة لهن للمشاركة بالمجالس العلمية السلطانية عموماً والدروس الحسنية الرمضانية خصوصاً، فجاءت المشاركات النسائية في تلك المجالس متميزة شكلاً ومضموناً وأعطت للدروس العلمية بحضرة السلطان نفساً جديداً ورونقاً خاصاً لاسيما على مستوى المواضيع الملقاة وأبعادها الإصلاحية، مما يترجم لنا عمق الإرادة الملكية للإصلاح والرعاية المولوية للعلم وأهله، حيث ألفت الدكتورة رجاء الناجي درساً حسناً بعنوان: "النظام الأسري الإسلامي مقارنة بما عليه الوضع الأسري في المجتمعات الغربية"، ونالت بذلك شرف أول امرأة تشارك في مجلس علمي سلطاني، فسلطت الضوء في درسها على خصائص النظام الأسري الإسلامي ومميزاته وتفوقه على غيره من النظم والتشريعات، وهو الأمر الذي يحتاج المجتمع أن يتشبع به عوض تقليد الغرب والافتتان به، ويبين كذلك بعد نظر صاحب الجلالة واهتمامه بما يحفظ كيان المجتمع متماسكاً، وكذا ألفت الأستاذة عائشة الحجامي درساً في موضوع: "الاجتهاد في المسألة النسائية"، تطرقت فيه لبعض المسائل الخاصة بالمرأة في الفقه الإسلامي وما اعترى بعض الفروع الفقهية من اجتهادات الفقهاء واستنباطاتهم، وهو الأمر الذي ينبغي التنبيه له وإشاعته في الناس من وجوب الاهتمام بفقه النساء وتعليمهن أحكام دينهن وعدم تركهن جاهلات بما كلفهن الله تعالى به. وقد ألفت الأستاذة بدار الحديث الحسنية الدكتورة فريدة زمرد درساً حسناً بعنوان: "المرأة في القرآن بين الطبيعة والوظيفة"، ألفت فيه الضوء على اهتمام القرآن الكريم بالمرأة ووظائفها المرصودة لها قدراً وشرعاً ونهوض المجتمع من خلال قيامها بالوظائف المنوطة بها دون الخلط بينها، في حين تطرقت الأستاذة السعدية بلمير في درسها الذي ألقته في حضرة أمير المؤمنين والذي وسمته بـ: "حركة التقريب بين المذاهب: منطلقاتها وآفاقها المستقبلية"، للاختلاف الفقهي وأسبابه وسبل التقريب بين المذاهب الفقهية درءاً للخلاف وتضييقاً لهوة الفرقة بين المسلمين والعمل على تحقيق وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وألفت الأستاذة المتخصصة في القانون والاقتصاد زينب العدوي، درساً علمياً في موضوع: "حماية

المال العام في الإسلام"، حيث بينت أن المال في الإسلام عصب الحياة وشرائها، وهو أحد الكليات الخمس المعتمدة في كل ملة، وأن المال في الحقيقة مال الله تعالى والإنسان إنما هو مستخلف فيه، فليست يده عليه في الحقيقة يد تملك مطلق، وإنما هي يد تصرف في وديعة الله عنده وفق ما أذن فيها صاحبها الحق، ويوشك عما قريب أن تنتقل هذه الوديعة عنه إلى غيره، وأن المسلمين شركاء في المال العام فالاعتداء عليه اعتداء على حق الأمة جمعاء، وهو موضوع يحمل دلالات كبيرة على التنوع والموسوعية في الدروس التي تلقى في حضرة أمير المؤمنين ونوعيتها ومقاصدها وغاياتها الإصلاحية على كافة المستويات، وقد اهتمت الأستاذة سعيدة أملاح بوجوب العناية باللسان العربي من خلال درسها الحسن المعنون بـ: "عناية المغاربة بلغة القرآن الكريم"، حيث أبانت فيه عن تميز علمي نسائي وغيره كبيرة على اللغة العربية، وأوردت حقائق تاريخية ونماذج مشرقة من التاريخ المغربي في عناية المغاربة بالقرآن الكريم وبلغة الوحي وإسهاماتهم العلمية في هذا المجال، لتأتي الأستاذة الباحثة عالية ماء العينين وتبرز شكلا وموضوعا وظيفه المرأة في نسيج المجتمع، ودور الأم داخل مؤسسة البيت، باعتبارها نواة المجتمع وأساس العلاقات داخل الوطن، فألقت درسا علميا حسنا بين يدي أمير المؤمنين بعنوان: "مكانة الأم في الإسلام ودورها في نقل وترسيخ قيم المواطنة"، وهو عنوان ينبئ عن اهتمام المرأة بمهامها المنوطة بها خلقا وتكليفًا، وإحساسها بالانتماء المشرف للوطن وهويتها الثقافية والدينية. ولم تهمل المرأة وهي تشارك في المجالس العلمية السلطانية الجانب الدعوي والاهتمام بما يرقق القلوب ويذكر بالآخرة، فألقت الأستاذة سعاد رحائم درسا دينيا في حضرة أمير المؤمنين تحت عنوان: "أشراط الساعة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف"، استنادا إلى كون التسليم باليوم الآخر أحد أركان الإيمان وتذكير الله تعالى لنا به في الآيات المتلوة والمجلوة آيات الآفاق والأنفس، كما نذكر في هذا الصدد مشاركة الدكتورة نعيمة بنيس، التي أبانت بدورها عن حصافة رأي أمير المؤمنين في إشراك النساء في المجالس العلمية السلطانية، وأظهرت عن تمكن المرأة من علوم الشريعة وقدرتها على النظر والتدقيق والتحقيق في مسائل الفقه وأبوابه. فجمعت المجالس العلمية السلطانية الملقاة بين يدي أمير المؤمنين في الدروس الحسنية الرجال العلماء والنساء العالمات، وعالجت مختلف المواضيع في مختلف التخصصات وكانت لها رؤى بانية وغايات سامية، فكان ذلك كله من بركات وامتدادات المجالس العلمية السلطانية وآثارها.

كما ازدانت المجالس العلمية السلطانية بالمملكة المغربية بيتيمة الدهر ومجلة الفخر، من المشاركة العلمية للسلطان في تلکم المجالس حيث ألقى جلالة المغفور له الحسن الثاني، طيب الله

ثراه، دروسا علمية كان يهتم بها الدروس الحسنية الرمضانية، أبانت عن كعب عال وتمكن كبير من علوم الشريعة، ونظرات ثاقبة وإدراك عميق من جلالته لمعاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتنزيلها على الواقع المتغير وتسويره بالشرع وإخضاعه له. فكان الملك الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه يلقي دروسا علمية تراعي مناهج البحث العلمي من جهة وتتميز بانفرادات واجتهادات خاصة لجلالته في تدبر الوحي قرآنا وسنة من جهة أخرى، بل إنه كان يصوب ويناقش العلماء الذين يضيفهم في حضرته العلمية فيما يلقونه، ويستدرك عليهم في أمور علمية دقيقة هي من صميم تخصصاتهم، فكان يبهر الحاضرين باطلاعه الكبير وموسوعيته الجامعة بين علوم الدين والدنيا، وتحضرني هنا كلمة الشيخ عبد الله غوشة قاضي القضاة، ورئيس الهيئة العلمية الإسلامية بالقدس الذي قال في حق الملك الحسن الثاني: "والحقيقة أنني لم أكن أظن أن جلالته على هذا القدر من العلم، ولا أنه واسع الاطلاع بهذا الشكل فقد استشهد في شرح حديثه بكثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية والآثار، وهو يحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا كما علمت ذلك وجلالته يحب العلم والعلماء"¹⁴. وقد سلم له كل من حضر درسه، واعتبروه لذلك عالم الملوك وملك العلماء.

وقد تمحورت الدروس العلمية التي ألقاها الملك الراحل في مجالسه السلطانية - وكانت أربعة دروس - حول تحمل المسؤوليات في الأمة وكيفية فهم الدين وتنزيله في إطار فقه الواقع المتغير وإكراهات السياسة الداخلية والخارجية والأمانة الملقاة على كل مواطن تجاه دينه ونفسه ووطنه، وكل ذلك انطلاقا من الوحي قرآنا وسنة، في كلمات جامعة وهادفة تلقي الضوء على خط السير العام للراعي والرعية، وتعكس ما كان عليه جلالته من إشفاق على شعبه واهتمام بقضاياه واحتياجاته، وتشبعه بقيم دينه والحرص على مبادئه السمحة وتعاليمه الحنيفية، مع نقل ذلك إلى كل العالم ونقل ثقافة العالم إلى شعبه، من خلال إذاعة المجالس العلمية السلطانية عبر وسائل الإعلام المتاحة وتعريف كافة الشعوب والأمم بالمغرب وأمجاده وأعلامه وبالإسلام وعظمته. وقد جاء في ديباجة الدرس الملكي الذي نشرته مجلة دعوة الحق: "وقد تمسك مولانا أمير المؤمنين، الحسن الثاني نصره الله، بهذه السنة الكريمة، وحافظ عليها، وبلغ الغاية في الاهتمام بها، وجدد في شكلها وإطارها وتوجيهها، وبث فيها قبسا جديدا من روحه، وجند لها الإمكانيات اللازمة حتى أصبح الانتفاع بها ميسورا لكل الناس، على أوسع نطاق وأبعد مدى، وحتى عم خيرها القاضي والداني والرجل

14 - نشرته جريدة الدفاع الأردنية ومجلة دعوة الحق التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عدد: 96.

والمرأة، والكبير والصغير، وأصبحت في كل بيت وفي كل ناد وفي كل مكان، هي مادة السمر في ليالي شهر رمضان المعظم، وهي شغل الناس الشاغل، ومدار أحاديثهم وتعليقاتهم... وقد كان من مظاهر التجديد الذي أدخله مولانا أمير المؤمنين على هذه السنة الكريمة، أن خرج بها من الإطار المحلي، إلى إطار آخر أوسع منه وأشمل، فتطورت بذلك هذه السنة الكريمة تطورا عظيما، وأصبحت عبارة عن ندوة إسلامية واسعة، تعقد ببلادنا في شهر رمضان من كل سنة، فتكون فرصة لتلاقح الأفكار وتبادل المعلومات، والتعاون المثمر، كما تكون فرصة لتمتين الروابط، وتأكيد الأخوة، وإبراز معالم الوحدة التي تجمع بين قلوب المسلمين في كل مكان مهما تضاءلت بهم الديار أو تباعدت بينهم المسافات.

وقد نشرت مجلة دعوة الحق الدروس الدينية الملكية الجامعة في أعدادها: 96 و 114 و 191 وحفظت بذلك للتاريخ وثائق تاريخية يعتز بها المغاربة رعاة ورعية على مدى الدهر.

إن المجالس العلمية السلطانية مجالس علم وذكر وطاعة ونصيحة، ومحل لتنزل الرحمات الإلهية والنفحات الربانية، وظرف تتلاقح فيه الفهوم وتتقد القرائح، ويظهر فيها فضل العلماء، وتتجسد فيها المعاني الحقيقية لإمارة المؤمنين ومسؤوليات الراعي الدينية والدنيوية، ويأخذ فيها السلطان نصيبا لآخرته بعد الانشغالات الكثيرة للسياسة ومسؤولياتها.

ولعل من أعظم بركات تلك المجالس كذلك من حضور قادة الجند ورجالات الدولة وأهل الحنكة السياسية والوزراء، يقتدون بأمير المؤمنين في تقدير العلم والعلماء، ومن ذلك التقدير يتحقق النماء، ويزداد الوفاء لثوابتنا الضامنة لأمننا الروحي واستقرارنا الاجتماعي.

نماذج من قضايا فكرية نوقشت في المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية

د. أحمد الأزمي
أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس

مدخل:

لقد اكتست المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة طابعاً متميزاً، فكانت بحق مظهراً من مظاهر الحركة العلمية والنهضة الفكرية المزدهرة التي عرفها وشهدها عهد الدولة العلوية المنيفة، عبر فترات حكم كافة ملوكها الأبرار. كما أبرزت تلك المجالس العلمية السلطانية مدى التقدير الكبير، والعناية الفائقة التي يوليها ملوك هذه الدولة العلوية للعلم والعلماء وللعلوم الإسلامية وثقافتها الأصيلة، وتظهر نفس المجالس ما كانوا يحظون به لدى هؤلاء الملوك العظام من إعزاز وإكرام وإجلال واحترام.

ولا غرو في ذلك فقد كان ملوك هذه الدولة علماء أتقياء جمع الله لهم بين سياسة الدنيا ورعاية الدين وبين الملك والعلم والورع والصلاح والفقهاء المتينين، فلم يكن عهد ملك من هؤلاء الملوك الأشرف يخلو من تقريب العلماء ومن تكوين مجالس علمية خاصة لديه وهي مجالس كان لها دور كبير وأثر إيجابي عظيم في ازدهار المسيرة العلمية بهذا المغرب العزيز، لما كانت تقوم به هذه المجالس من إعطاء دروس دينية على المستوى الرفيع، وتصدره من فتوى شرعية دقيقة، ذات الصلة بالقضايا الوطنية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الخارجية بين المشرق العربي والبلاد الإسلامية والدول الأجنبية مع ملاحظة أن تلك المجالس العلمية السلطانية كانت تتميز بطابعها العلمي والاستشاري في كل القضايا التي تهم البلاد.

ومما يميز هذه المجالس العلمية السلطانية، أن ملوك الدولة العلوية كانوا يشاركون العلماء في تلك المجالس، بما أتاهم الله من علم وفقه في الدين، ويناقشونهم فيما يتناولونه وي طرح عليهم من مسائل، ويبدون رأيهم العلمي فيها، خصوصا عندما تكون مثار خلاف ونقاش قوي بين العلماء، فيحاورون ويجادلون بالحجة والدليل، مما جعل عهد الدولة العلوية يتميز مع كافة ملوكها بحركة علمية دائبة، ونهضة ثقافية إسلامية متواصلة، ليبقى هذا المغرب المسلم الكريم بلد العلم والعلماء وبلد الأصالة والفقه في الدين والتشبت بفضائله وشرعه الحكيم¹.

ونقدم فيما يلي بعض الأمثلة فقط تشهد على العناية الكبيرة التي كان، ولا زال، يوليها الملوك العلويون للعلم والعلماء مع ما يرتبط بذلك من حضور فعلي لهؤلاء السلاطين في كل القضايا الفكرية ذات الصلة الوثيقة بقضايا الوطن والمجتمع والدين سيما المسائل الخلافية، وذلك من أجل أن يعطي العلماء عبر تنافسهم وسجلاتهم ومناظراتهم وفتاواهم أحسن ما لديهم خدمة للدين القويم وللوطن وللمجتمع.

وقد حصرنا هذه الأمثلة في فترات حكم تهم ثلاثة سلاطين، هم المولى إسماعيل (1672-1727هـ)² والمولى سليمان (1790-1822هـ)³ والمولى محمد بن عبد الرحمن بن هشام (1859-1873هـ)⁴. نناقش في المحور الأول، الموضوع الخلافي المرتبط بالغيب ومدى علم النبي ﷺ به. وقد نوقش في مجلس علمي ترأسه المولى محمد العالم الذي كان ينوب عن أبيه السلطان المولى إسماعيل بسوس. أما المجلس العلمي السلطاني المذكور فقد دارت وقائعه في الجامع الكبير بفاس الجديد⁵. ونناقش في المحور الثاني، بعض ما دار في مجلس علمي سلطاني في عهد المولى سليمان، من سجال ومناظرة حول موضوع: "سورة الناس"، وما ترتب عن ذلك بحضور السلطان الفعلي. أما المحور الثالث والأخير، فنحاول من خلاله التطرق لموضوع خلافي شائك نوقش في مجلس علمي سلطاني برئاسة السلطان

1 - مقتبس من الكلمة التقديمية لكتاب: المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، للأستاذة آسية الهاشمي البلغيتي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سنة 1996، الجزء 1، ص. 4، بقلم الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.

2 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج. 7، ص. 45.

3 - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1985، ج. 3، ص. 120.

4 - نفسه، ص. 174 إلى 255.

5 - فاطمة خليل القبلي، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، جمع وتحقيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1981، ج. 2، ص. 506.

المولى عبد الرحمن بن هشام، ويتعلق بالحاجة إلى تنظيم الجيش وتجديده، واتخاذ جيش نظامي حديث، خصوصا بعد هزيمة إسلي (1844م) وتطوان (1860م)⁶.

I- الأمير محمد العالم (ت 1116هـ / 1705م) ومسألة الغيب ومدى علم ﷺ به:

كان الأمير مولاي محمد بن إسماعيل ينوب عن أبيه في إقليم سوس، وبصفته عالما متضلعا من العلوم الإسلامية، فقد التف حوله علماء سوس المشهود لهم بعلو الكعب في علوم الفقه والحديث والتفسير والآداب. وتفاعلا مع هذا الانسجام بين الأمير (النائب السلطاني) ونخبة العلماء بهذا الجزء من البلاد، دأب الأمير محمد العالم، وهو ينوب بذلك عن أبيه على ترأس مجالس علمية بشكل منتظم للمناقشة والتناظر في مختلف القضايا الفكرية، فقصدته الوفود من جميع النواحي.

ومن المجالس العلمية البالغة الأهمية التي ترأسها الأمير المولى محمد بن إسماعيل، مجلس عقد لمناقشة موضوع خلافي هو: "الغيب ومدى علم النبي ﷺ به"، وذلك بفاس الجديد بمدينة فاس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد وقع النقاش والسجال والمناظرة في هذا الموضوع سنة 1089هـ / 1678م في مجلس البخاري بين يدي المولى محمد العالم، وحضره جمع غفير من العلماء من جميع الأنحاء. وفي هذا المجلس أعلن العالم أبو عبد الله محمد بن محمد الدلائي أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب، ودعم رأيه في تدخله بحجج واستشهادات علمية وافية. وأنكرت عليه قوله جماعة من المشاركين في المناظرة، ومنهم العلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحلي الحلبي، فاستفتى المولى محمد العالم شيخه، العلامة عبد الملك التجمعتي، فأجابه بأن النبي ﷺ لم يمت حتى أطلعه الله تعالى على الغيب، وانتشر خبر هذه المناظرة.

فكتب الشيخ أحمد بن عبد الحلي الحلبي إلى العلامة عبد الملك التجمعتي في الموضوع، فأجابه العلامة التجمعتي بأنه ألف كتابا في الموضوع عنوانه: "ملاذ الطالب في جواب أستاذ حلب". وتصدى للرد على مؤلف عبد الملك التجمعتي الشيخ أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في رسالته الثلاثين. ولم يتردد العلامة عبد الملك التجمعتي في الرد على اليوسي بجواب مسهب شديد اللهجة، حاد العبارات⁷.

6- Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, Hatier, Paris, 6e Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p. 285 et 290.

7 - نفسه، ص. 280.

وفي خضم هذه السجلات، نكتفي ببسط رأي اليوسي في الموضوع، وهو يجيب على أفكار كتاب: "ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب"، معترضا بذلك على دفعات العالم التجمعتي. ونقدم مقتطفات من رسالة اليوسي الثلاثين⁸ في الموضوع، والتي تمتد على حوالي عشر صفحات.

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، يقول الحسن بن مسعود اليوسي: "... يقول العبد الفقير إلى مولاه، الغني به عمن سواه، الحسن بن مسعود اليوسي أنه قد بلغني منذ نحو عامين⁹ أنه وقعت في حضرة فاس حرسها الله مباحثة بين طلبة العلم في علم النبي ﷺ، هل هو عام بحيث يعلم كل شيء أم لا؟ وأعلمني بها سلطان الوقت المظفر المؤيد أبو الوفاء مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف أصلح الله له سعيه وسدد رأيه، في كتاب له إلي من السوس الأقصى، فأجبتة عن فصول الكتاب إلا هذه فأضربت عنها صفحا لأمرين: أحدهما أنه لم يقصدني بالسؤال عنها وإنما استطردها في ضمن كلامه لغرض له آخر. الثاني: أنني رأيت الكلام والبحث عنها من الفضول الذي ينبغي انتقاؤه والإمساك عن أمثالها بعد عقد التعظيم هو سبيل النجاة إن شاء الله، كما أمرنا بالإمساك عن القرآن العظيم عند الاختلاف اتقاء ما ينجر إليه الكلام. وفي الحديث: "اقرأوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه". وأمرنا بالتفكير في آيات الله، ونهينا عن التفكير في الكنه، فلذلك ينبغي أن نعتقد في تعظيم نبينا ﷺ به ونعتقد أنه أعطي من العلم والنور وسائر مراتب الكمالات اللائقة به ما لم يعط أحد من العالمين، لأنه خير الخلق أجمعين، ثم نكتفي بهذا وما أشبهه، ولا نطالب بالبحث عن إحصاء ما علم، فإنه لا تبلغه عقولنا وليس مطلوبا منا، فالاشتغال به فضول من ثلاثة أوجه. الأول: أنه غير مطلوب منا "ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه". الثاني: أنا لا نبلغ إلى تحقيقه، ولو اجتهد أحد أن يحصي ما في قلب عشيره وجليسه من العلم لعجز. فكيف بما في قلب سيد البشر، ومن هو نور الوجود وسائر الكائنات، وطلب ما لا يحصل عبث، وتكلف المحال ساقط¹⁰:

«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»¹¹. الثالث: أن البحث والخلاف فيه ملزوم لإحدى عثرتين عظيمتين إلا من عصم الله، فإن الباحث فيه إما أن يقع في استنزال صفوة الله من خلقه عن مكانته الرفيعة، وإما في سوء الأدب مع الله تعالى المولى العظيم في تشبيه خلقه به وفي ذلك سوء أدب مع النبي ﷺ، إذ

8 - فاطمة خليل قبلي، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، الرسالة الثلاثون، م. س، ص. 506.

9 - تقدر الأستاذة آسية الهاشمي البلغيتي أن هذا المجلس السلطاني انعقد سنة 1089هـ بناء على إشارة في كتاب الاستقصا (ج7، ص. 51)، وبما أن اليوسي يذكر أن خبر هذه الواقعة وصله بعد عامين ليعطي رأيه فيه، فإن تاريخ تحرير هذه الرسالة المحتمل هو 1091هـ/1680م.

10 - فاطمة خليل القبلي، م. س، ص. 509.

11 - سورة البقرة، جزء الآية 285.

لا يجب ذلك ولا يرضاه لنفسه فيكون على كل حال باحثاً على حتفه بظلفه، فرأيت الإمساك عن ذلك أولى¹².

وتعقيباً على هذه الإفادات في بداية الرسالة اليوسية، ندرك بوضوح، بناء على خطابها، أن الفقيه معترض على مسألة "علم النبي ﷺ بالغيب"، ويمكن رصد ذلك من خلال بعض العبارات الواردة في النص أعلاه، مثل:

1- قراره بعدم الإجابة عن السؤال المتعلق بعلم النبي ﷺ، ضمن أسئلة أخرى ضمنها كتاب من السلطان مولاي إسماعيل إليه، فقد أجاب السلطان عن الأسئلة الأخرى إلا السؤال المتعلق بعلم النبي ﷺ.

2- عدم إجابته حسب قوله، مرتبط بكون السؤال لم يكن موجهاً بشكل مباشر إليه، وإنما ورد استطراداً ضمن كلام السلطان لغرض له آخر.

3- قوله بأن الكلام والبحث في هذا الموضوع من الفضول الذي ينبغي اتقاؤه، والإمساك عن أمثاله بعد عقد التعظيم هو سبيل النجاة إن شاء الله.

4- قوله بأن الرسول ﷺ خير الخلق أجمعين، ولا نطالب بالبحث عن إحصاء ما علم، فإنه لا تبلغه عقولنا وليس مطلوباً منا، والاشتغال به فضول، لأن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه¹³.

5- قوله إن الباحث في هذا الموضوع، إما أن يقع في استنزال الصفوة من خلقه عن مكانته الرفيعة وإما في سوء الأدب مع الله تعالى المولى العظيم في تشبيه خلقه به، وفي ذلك سوء أدب مع النبي ﷺ¹⁴.

إن الأفكار الواردة في نص جزء من رسالة اليوسية، كما بسطناها وعقبنا عليها، هي أفكار عامة، لكنها عميقة ومركزة، يقبلها المنطق السليم والموضوعية في مقارنة هذا الموضوع الحساس، بحيث لا نجد فيها ما يمكن أن يشوش على فهم السياق العام الذي يؤطر فيه قناعاته، وهي القناعات التي يدافع عنها بشكل واضح، من خلال الرسالة نفسها، لكن هذه المرة وهو يرد بشكل

12 - نفسه.

13 - حديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من رواية أبي هريرة، أنظر: المغني بحاشية الإحياء، ج.3، ص.369، نقلاً عن فاطمة خليل القبلي، م.س، ص.358.

14 - الرسالة الثلاثون، م.س، ص.509.

مباشر على ما ورد في كتاب العالم التجمعتي تحت عنوان: "ملاذ الطالب في جواب أستاذ حلب".

- يقول الحسن اليوسي: "... ثم إني عثرت على كراسة منسوبة لأخينا الفقيه النبيه قاضي سجلماسة وأعمالها في الوقت أبي مروان سيدي عبد الملك بن محمد¹⁵ هداانا الله وإياه سواء السبيل، وجنبنا وإياه كل مرعى وبيل، فرأيت أنه قد تكلم على المسألة وصحح أنه ﷺ، لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء. هذا حاصل كلامه (...). وقد عضده بأدلة لا يقوم منها شيء على ساق، وبنصوص لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذا هو قد وقع في ورطة لا مخلص له عنها، أو في جهالة يتضحك منها، فرأيت حينئذ الكلام يتعين ليتخلص الحق ويتبين، فأتيت بهذه الأحرف على غاية الاختصار، من غير تعرض لما في الكراسة، لأن الحق إذا تبين فما سواه بالضرورة باطل وجيده من التحقيق عاطل فأقول وبالله القوة والحوال: إن القائل بتعميم علم النبي ﷺ لابد أن يقال له: ما تريد بهذا التعميم؟ الحقيقي بحيث يكون علم النبي ﷺ على حد علم الله تعالى، فلا فرق، من الإحاطة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات والموجودات والمعدومات، الحاضرة والماضية والآتية جملة وتفصيلا؟ أم تعميما إضافيا دون ذلك؟

فإن أردت الأول، فقد وقعت في الورطة العظمى وأشرت مع الله غيره، وذهبت تبني دارا فهدمت أمصارا...¹⁶.

وبعد كلام للحسن اليوسي في نفس الرسالة حول تفرد الله في الذات والصفات والوحدانية، بحيث لا شريك له في ذلك، وأصل خطابه لعبد الملك التجمعتي قائلا: "... وقد قال الله تعالى في حق نبيه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾¹⁷، ثم قال له بعد ذلك: (عبد لنا بمجمع البحرين هم أعلم منك)¹⁸. ولما لقي الخضر قال له: (يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه)، وقال له: (ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر)¹⁹، وقال في كتاب نبينا ﷺ: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾²⁰، وقال:

15 - هو عبد الملك التجمعتي أبو مروان (ت 1118هـ/ 1706م)، كان إماما محدثا خطيبا ولي قضاء سجلماسة، كانت له وجهة عند السلطان وكانت له منازعات علمية مع اليوسي.

16 - فاطمة خليل القبلي، م.س، ص. 510.

17 - سورة الأعراف، 145.

18 - إشارة إلى الآيات 63 إلى 65 من سورة الكهف.

19 - فاطمة خليل القبلي، م.س، ص. 510.

20 - سورة الأنعام، الآية 39.

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾²¹، ثم قال له: ﴿وقل رب زدني علماً﴾²²، ثم أشفع اليوسي كل هذه الإفادات بدلائل عقلية ونقلية، بحيث يقول: "ومن الدليل عقلاً على ما ذكرنا أن يقال علم الحادث حادث متعلق للقدرة الأزلية، ومعلوم أن المقدورات لا تنتهي لاستحالة التخصص لا بالأعداد ولا بالآزمان. فالعلوم الحادثة لا تنتهي، ولو علم كل شيء على ما فسرنا لتناهى بحيث لا يمكن خلق علم آخر وراء ما علم ضرورة بطلان تحصيل الحاصل. فيلزم التخصص والعجز وهو باطل. وأما النقل فكثير كقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾²³، أي لا يعلمون من المعلومات إلا ما شاء أن يعلموه. وهذا عام، ومن أراد التخصص فعليه الدليل، وقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾²⁴. فهذا القدر من التعميم حكمت الآية أنه لم تطلع عليه نفس من النفوس على العموم، وقوله تعالى: ﴿وقل رب زدني علماً﴾. فالزيادة ممكنة أبداً، وما يزداد لم يعلم قبل. وقال ﷺ في نفسه يوم الناقة²⁵: "لا أعلم إلا ما علمني ربي"، وفي حديث آخر: "كل يوم لا أزداد فيه علماً لا بورك لي في شمس ذلك اليوم"²⁶، إلى غير ذلك من الأدلة.

هذه الحجج والأدلة التي سبق بسطها، تهم التعميم الحقيقي، أما التعميم الثاني الإضافي، فهو دون مستوى الأول (التعميم الحقيقي) لأنه محصور في إطار مخصوص من العلم، فقد أورد اليوسي بشأنه الآتي: "وإن أردت الثاني، فنقول، ما تريد بهذا البعض الذي عممته؟ فإن أردت بعضها مبهما فقد قلبت الجزئية كلية. وناهيك لذلك غلطا وأضحوكة، وإن أردت بعضها مخصوصا فبينه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه. وقل مثلاً يعلم كل شيء من الشرعيات أو من العقليات أو من العادات أو من الحكميات (...). أو نحو هذا من التقديرات، ليعلم الحكم ونجعل له فائدة. وإلا فكلام مجهول لا تحصل منه فائدة (...). فإن قيل: فأى شيء المعول عليه في هذه النازلة حيث وقع التعرض لها؟ قلنا ما صدرنا به في ما سطرنا هو المعول عليه، غير أنا اختصرناه، وسنبسطه الآن إن شاء الله بعض البسط فنقول: "من الواجبات أن يعلم أن وصف صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين، وسائر الكمالات يكون على ثلاثة أضراب.

21 - سورة النحل، الآية 89.

22 - سورة طه، الآية 111.

23 - سورة البقرة، الآية 254.

24 - سورة السجدة، الآية 17.

25 - حديث المرأة والناقة مع النبي ﷺ: قامت الأستاذة فاطمة خليل القبلي بتخريج هذا الحديث في الجزء الأول من رسائل اليوسي، ص. 263، الهامش 16.

26 - حديث أخرجه الطبراني في "الأوسط" وأبو النعيم في "الحلية"، من رواية عائشة بإسناد ضعيف. أنظر: المغني بدليل الإحياء، ج. 1، ص. 6، نقلاً عن فاطمة خليل القبلي، م. س، ج. 2، ص. 511، الهامش 18.

الأول: أن يسلك بهم مسلك العامة من الخلق، وأن ليس لهم من المعرفة والنور ونحو ذلك إلا ما لسائر الناس، فهذا استنقاص لهم وهضم من خصوصيتهم التي امتن الله تعالى بها عليهم²⁷.

الثاني: أن يخرجوا عن البشر ويشبهوا بالإله الحق، شبه ما وقع للنصارى أهلهم الله وهذا لا يجوز: "دع ما ادعته النصارى في نبيهم"²⁸.

الثالث: التوسط وخير الأمور أوسطها، بأن يعلم أنهم بشر، ولكن ليسوا كالbشر، بما خصهم الله تعالى به من المنح والمنن من غير أن يكونوا بذلك آلهة ولا أمثال آلهة²⁹.

وختم الفقيه الحسن اليوسي هذه الرسالة، مخاطبا عبد الملك التجمعتي بالقول: "... فعليك بالتعظيم جملة، واعتقاد أن الله تعالى أعطى نبيه المصطفى ﷺ به من العلوم الشرعية ومن المعارف الدنية والحكم النظرية والمصالح الدينية والدنيوية والمحاسن الأدبية واللطائف الملكوتية، ما يغرق في أدنى بحاره علوم الأولين والآخرين، ويلتمس منه كل حبر في علمه، وذو فكر في نظره، وذو صنعة في صنعته.

وكلهم من رسول الله ملتمس ❁ غرfa من البحر أو رشفة من الديم³⁰

وقف ها هنا وراجع كلام "الشفة"، ففيه الغنيمة والشفة، ودع عنك الجدال والمرء، لعلك تنور بصيرتك، وتسلم عقيدتك والله الموفق آمين"³¹.

II - حول شرح "سورة الناس"³² في مجلس علمي سلطاني برئاسة السلطان المولى سليمان (ت 1790هـ/ 1822 م):

وقع خلاف في شرح هذه السورة بين عالين كبيرين في مجلس علمي سلطاني برئاسة المولى سليمان، ويتعلق الأمر بالعالم الفقيه الطيب بن كيران أحد شيوخ السلطان، والعالم الفقيه المتصوف سيدي أحمد التجاني. وقبل عرض ما جرى بين العالمين من سجال ونقاش، نرى من المفيد إبراز السياق العام الذي تمت فيه هذه الواقعة.

27 - فاطمة خليل القبلي، م. س، ص. 512.

28 - نفسه.

29 - نفسه، ص. 513.

30 - من بركة الإمام البصري: حاشية الباجوري على متن البردة، ص. 24. طبعة عبد السلام بنشقرون، نقلا عن فاطمة خليل القبلي، م. س، ج. 2، ص. 515، الهامش 30.

31 - فاطمة خليل القبلي، م. س، ج. 2، ص. 515.

32 - سورة الناس، مكية، وآياتها ستة، نزلت بعد سورة الفلق.

من المعلوم تاريخيا أن سيدي أحمد التجاني حل بمدينة فاس، قادما إليها من المغرب الأوسط، يوم الاثنين 6 ربيع الثاني عام 1213هـ/1798م³³، وكان في رفقته خليفته سيدي الحاج علي حرازم برادة³⁴. ومع مرور الأيام، بدأت أخبار الشيخ التجاني تنتشر في كل أرجاء المدينة، فقصده عدد كبير من الطلبة والمهتمين لتعميق معارفهم في علمي الظاهر والباطن، ويبدو أن الارتسامات الطبية التي خرج بها كل من حضر دروسه واستمع إلى شروحه وأجوبته، وما كان لها من أثر فعال في ذبوع أخبار أهمية شخصيته العلمية والدينية في كل الأوساط هي التي كانت وراء لفت أنظار السلطان مولاي سليمان أيضا إليه.

وطبقا لما ورد في مصادر تجانية، فإن عالين تجانيين بارزين من بين العلماء الذين كانوا يحضرون في المجالس العلمية السلطانية هما اللذان نقلنا خبر الشيخ التجاني إلى العاهل المغربي ويتعلق الأمر بالعلامة الشيخ عبد القادر بن شقرون (ت 1219هـ/1804م) والعلامة الشيخ العباس بن كيران³⁵.

كان العالم الأول من أجلّ علماء وقته، مارس مهنة القضاء بسجله ماسة وفاس، واصطفاه السلطان لعلمه وورعه إلى جانبه ضمن أكبر شيوخ الحضرة السليمانية³⁶. وفي إحدى جلسات المجالس العلمية السلطانية أثير الحديث حول الشيخ سيدي أحمد التجاني، فاختلفت الآراء حوله، ووجد من أطال لسانه فيه وتكلم عنه بسوء كالطيب بن كيران (ت 1227هـ/1812م)، خوفاربا من أن يحظى بالتصدر لدى السلطان، فيشملة بالرعاية والإكرام، مما جعل الشيخ عبد القادر بن شقرون يخرج عن صمته ليقر بفضل الشيخ التجاني، وينوه بعلمه وتبحره في علمي الشريعة والحقيقة.

وبعد هذه الشهادة الصادرة عن من يعتبر في العلم حجة وفي القضاء عمدة، توقف كل اعتراض، وذهل أمام هذا الواقع ذاك الذي تزعم الانتقاد³⁷. العالم الثاني هو الشيخ العباس بن كيران أحد علماء الحضرة السليمانية أيضا، كان قاضيا بمكناس، وحظي بتعيينه من قبل السلطان عضوا

33 - أحمد الأزمي، الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، سنة 2000، ج. 1، ص. 119.

34 - علي حرازم برادة، جواره المعاني وبلوغ الأمان في فيض سيدي أبي العباس التجاني، وبهامشه كتاب رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم لعمر بن سعيد الفوتي، دار الجيل، بيروت 1988، ج. 1، ص. 44.

35 - أحمد الأزمي، م. س، ج. 1، ص. 120.

36 - إدريس العراقي، اليواقيت العرفانية في التعريف بالشيخ أحمد التجاني وبطريقته وزاويته الأم التجانية، مرقون ضمن أعمال ندوة الطريقة التجانية التي انعقدت بفاس من 23 إلى 29 دجنبر 1985، ص. 23-24.

37 - نفسه.

ضمن الوفد المتوجه للديار المقدسة لأداء فريضة الحج سنة 1226هـ/1811م، نيابة عنه³⁸. عندما أعطيت الكلمة لهذا العالم في حضرة السلطان، أخذ ينوه بقدر الشيخ سيدي أحمد التجاني، ويرفع من شأنه، فضم صوته إلى صوت عبد القادر بن شقرون، ليقنع المولى سليمان بأهمية هذا الولي العلمية والدينية، ثم قرر دعوة سيدي أحمد التجاني ليحضر في مجالسه العلمية السلطانية، ورخص له في الكلام بين يديه فامثل الشيخ التجاني لأمر السلطان، وأظهر من العلوم العقلية والنقلية ما أهر به الحضور وجعل المنكرين عليه يتراجعون عما هم عليه من الغرور³⁹.

وقد انفرد الفقيه التجاني أحمد سكيرج (ت 1363هـ/1944م) بخبر المناظرة الفكرية بين سيدي أحمد التجاني وعالم الحضرة السلطانية الطيب بن كيران، في كتابه "كشف الحجاب"⁴⁰ و"رفع النقاب بعد كشف الحجاب"⁴¹ في مجلس علمي سلطاني سليمان.

يقول أحمد سكيرج من خلال كتاب "كشف الحجاب"، بخصوص المبارزة الفكرية المشار إليها آنفاً ما يفيد أن السلطان مولاي سليمان كان يجمع بحضرته وفي مجالس علمه السلطانية كبار علماء عصره للمذاكرة في العلوم والتفسير، وكان من جملة من يحضر معه من الشيوخ الكبار الذين أخذ عنهم السلطان نفسه، الشيخ الطيب بن كيران والشيخ عبد القادر بن شقرون والشيخ حمدون ابن الحاج (ت 1232هـ/1817م) وغيرهم، واتفق أن حضر سيدي أحمد التجاني معهم بعد قدومه إلى فاس، وكان موضوع درس ذلك اليوم ينحصر في تفسير "سورة الناس"، فشرع الطيب بن كيران يتكلم على عادته بحضرة السلطان، فأبدى وأعاد وظن أن بما أبداه ليس له في العلم مثيل، ثم التفت السلطان إلى الشيخ التجاني وقال له: ماذا يقول الشيخ في هذه الآية؟ فشرع سيدي أحمد التجاني في شرح السورة بطريقة نالت إعجاب الحاضرين خصوصاً عندما تطرق لمسألة كان الطيب بن كيران قد أطنب فيها، وقال إن ما قاله ذلك المفسر ليس بصواب، فاستشاط الطيب بن كيران غضباً وقال مخاطباً الشيخ التجاني: "أعترض علينا وقائل هذا فلان وفلان من المفسرين، وأغلظ في القول"⁴²، فأجابه الشيخ سيدي أحمد التجاني: "ليس الكلام معك أنت ولا تكن كمن يحمل الأثقال، ما حملوك

38 - أحمد الأزمي، م. س، ج. 1، ص. 120.

39 - إدريس العراقي، م. س، ص. 24.

40 - كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، المكتبة الشعبية، بيروت، 1988.

41 - رفع النقاب بعد كشف الحجاب فيمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، قدم له وترجم للمؤلف مقدم الزاوية التجانية الكبرى بفاس، العلامة إدريس العراقي الحسيني، مطبعة الأمانة، الرباط، 1975، أربعة أجزاء.

42 - أحمد سكيرج، كشف الحجاب، م. س، ص. 491-492.

تحملة، وإنما الكلام مع هؤلاء المفسرين⁴³. واستمر يوضح وجه الصواب بالأدلة العقلية والعقلية إلى أن ظهر الحق لكل مرتاب، وذلك بمرأى من السلطان. وبعد أن انفض المجلس العلمي السلطاني، تكلم المولى سليمان مع الباقيين وقال لهم: ما ذا تقولون في سيدي أحمد التجاني؟ فقالوا: والله إن قوله لصواب. فأضمرها الشيخ الطيب في نفسه منذ ذلك الوقت إلى أن وقع منه في جانب الشيخ ما وقع⁴⁴.

نفس الخبر ونفس الوقائع، بخصوص هذا المجلس السلطاني العلمي، ورد في كتاب "رفع النقاب بعد كشف الحجاب"، باستثناء ما نقرأه في هذا الكتاب من أن الشيخ الطيب بن كيران منذ الحادثة المعلومة "ألجم بلجام لم يدعه ينطق بمحضر الشيخ خشية فضيحتة، بحيث صار يتطرق إليه الريب، فيما كان يحققه من العلوم الآلية والعقلية والنقلية، فكان عند حضور الشيخ بعد ذلك لا يفوه بكلمة، وإن خلا له الجو يلزم الشيخ بأنه يريد التصدر للمشيخة وتلقين الأوراد الملفقة"⁴⁵.

III - مجلس علمي سلطاني لمناقشة مسألة تحديث الجيش:

دأب السلطان المولى عبد الرحمن كأسلافه المنعمين على ترأس مجالس علمية سلطانية بانتظام، خصوصاً خلال الأشهر الثلاثة: رجب، شعبان ورمضان من كل سنة، لكن عندما كانت تستجد الأحداث والنوازل الوقتية ذات التأثير المباشر على البلاد والعباد، كان يلجأ لجمع مجلس علمي سلطاني طارئ، كما حدث عندما عقد مجلساً علمياً لمناقشة مسألة إصلاح الجيش وتحديثه، وتوحيد الرأي والقرار بشأن المقاربات التي يجب سلكها لتحقيق الهدف⁴⁶.

ذلك أنه بعد حرب تطوان (1859م-1860م)، دعت الحاجة إلى تنظيم الجيش وتجديده واتخاذ جيش نظامي حديث، بعد أن ارتفعت الأصوات المطالبة بذلك، وكان والده المولى عبد الرحمن قام بالخطوة الأولى على درب هذا التنظيم والتجديد بعد موقعة إيسلي وهزيمتها المؤلمة سنة 1844م، وحول هذا الوضع المتردي الذي وصل إليه المغرب وما قام به السلطان محمد بن عبد الرحمن من جهد من أجل تنظيم الجيش وتحديثه، يقول أحمد بن خالد الناصري: "... ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين جدّ في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم، وكان هذا السلطان أول من

43 - نفسه.

44 - نفسه.

45 - أحمد سكيرج، رفع النقاب بعد كشف الحجاب، م. س، ج. 4، ص. 11.

46 - آسية الهاشمي البلغيتي، م. س، ج. 2، ص. 16.

أحدثه من ملوك المغرب، وكان إحداؤه إياه في دولة أبيه رحمه الله بعد رجوعه من وقعة إيسلي مع الفرنسيين، ثم جد فيه في هذه الأيام فجمع منه ما تيسر جمعه، ثم رتب المكوس على الأبواب والمبيعات وكتب بذلك كتابا للآفاق"⁴⁷.

غير أن الذي لم يذكره المؤرخ أحمد بن خالد الناصري هو انقسام الرأي العام حول هذا الإصلاح والتحديث، ومدى شرعية توظيف مداخيل المكوس على الأبواب والمبيعات وجباية المراسي، وغير ذلك في بناء الجيش وإصلاحه. وقد أشار لهذه المعارضة الفقيه محمد المنوني في كتابه "مظاهر يقظة المغرب الحديث، مؤكدا أن هذه الإفادة أوردها محمد أكنسوس في كتاب "الجيش العرمرم الخماسي"⁴⁸. وهذا الوضع المعقد هو الذي جعل السلطان محمد بن عبد الرحمن يفكر في إنهاء هذا الجدال عن طريق استفتاء شرعي لقطع الطريق على الرجعيين ودعاة التخلف.

لكن قبل ذلك، عقد مجلس الاستفتاء العام حول الموضوع، والذي سوف لن يكون سوى المجلس العلمي السلطاني، جمع مجلسا مصغرا خاصا مكونا من أئمة علماء مساجده في الأحكام الشرعية واستطلع رأيهم واستفتاهم سرا في هذه القضية، فلما لمس موقفهم الإيجابي بعد استطلاع رأيهم، ومباركتهم لبرنامجهم ومشروعه التجديدي، قدم القضية رسميا لمجلسه العلمي السلطاني الأعلى، وطرح على أعضاء هذا المجلس أسئلة وافية في الموضوع، حتى يكون تدبيره السياسي منسجما مع أحكام الشريعة الإسلامية، في أفق بناء جيش مغربي نظامي حديث قادر على حماية حدود البلاد واستقرارها⁴⁹.

وبالفعل، فقد أصدر مجلسه العلمي السلطاني الفتوى المطلوبة، بعد جلسات عديدة، ولم تكتف هذه الفتوى بإباحة تحديث الجيش واتخاذ الدولة لجيش نظامي قوي، بل حث على وجوب التعجيل بكل ذلك، لما يكتسبه الأمر من ضرورة ملحة. وقد اعتمد علماء المجلس العلمي السلطاني في هذه الفتوى على النصوص الشرعية العديدة الواردة في الموضوع⁵⁰، كقوله تعالى ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾⁵¹، وقول جل وعلا: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾⁵².

47 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، 2007، المجلد الثالث، ص. 344.

48 - محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، دار الغرب الإسلامي وشركة النشر والتوزيع، المدارس، مطبعة المتوسط، بيروت - لبنان، 1985، ج. 1، ص. 80، ثم الهامش 1.

49 - آسية الهاشمي البلغيتي، م. س، ج. 2، ص. 16.

50 - نفسه، ص. 17.

51 - سورة الصف، الآية 4.

52 - سورة الأنفال، الآية 61.

غير أن هذه الفتوى، في رأي الباحثة آسية الهاشمي البلغيتي، لم تبح وتسوغ جمع النقود والنفقة على الجيش، فتم تعليق هذه الفتوى، وبذلك احتدم الجدل⁵³، مما اضطر السلطان محمد بن عبد الرحمن لعقد مجلس علمي سلطاني خاص من جديد، فأصدر فتوى ترى أن ما يأخذه المخزن من نفقات مصدرها الرعية يعد واجبا من أوكد الواجبات وتؤكد على ضرورة إسهامها المادي في ذلك، بل اعتبرت الإقدام على ذلك فرض عين على كل مغربي ومغربية⁵⁴.

ومن المرجح أن يكون العلماء الذين شكلوا نواة المجلس العلمي السلطاني الذين أصدروا الفتوى أعلاه، هم الذين أورد الفقيه محمد المنوني أسماءهم، ضمن حديثه عن تجديد الجيش المغربي في كتابه "يقظة المغرب الحديث"، ونقدم فيما يلي النص الذي ورد فيه أسماء هؤلاء العلماء.

يقول الفقيه المنوني رحمه الله عليه: "... يظهر أن تنظيم الجيش كان يلاقي معارضة من بعض الجهات، وذلك من أسباب انخراجه في هذه المرحلة الأولى، فلذلك لما وقعت حرب تطوان أعاد الملك محمد بن عبد الرحمن إثرها النظر في أمر الجيش النظامي، وكان أول ما بدأ به في هذا الصدد: أن استشار عشرة من أئمة علماء المغرب في الحكم الشرعي في هذا التنظيم، فعل ذلك - فيما يظهر - ليقطع بفتاويه - التي كانت بالموافقة، كل جدال في المسألة⁵⁵:

- 1- قاضي فاس محمد بن عبد الرحمن العلوي المدغري.
- 2- أبو العباس أحمد المرنيسي.
- 3- أبو عبد الله محمد الصادق بن محمد الهاشمي العلوي المدغري قاضي سجلماسة ونواحيها.
- 4- أبو محمد عبد السلام بوغلاب.
- 5- أبو عيسى المهدي بن سودة.
- 6- أخوه أبو حفص عمر بن سودة.
- 7- أبو عبد الله محمد بن محمد بن حمادي الحمادي المكناسي.
- 8- أبو عبد الله محمد مسواك بن محمد التازي.

53 - آسية الهاشمي البلغيتي، م. س، ج. 2، ص. 17.

54 - عبد الرحمن بن زيدان، النهضة العلمية، مخطوط الخزانة العامة، الرباط رقم 3177، ص. 73، نقلا عن آسية الهاشمي البلغيتي، م. س، ج. 2، ص. 18.

55 - محمد المنوني، يقظة المغرب الحديث، م. س، ج. 1، ص. 80-81.

9- الحاج محمد بن محمد الفيلاي.

10- أبو العباس أحمد بناني المدعو كلا.

وبعد أجوبة المعنيين بالأمر، شرع الملك المذكور في تجديد الجيش المغربي".

أما عناصر تحديث الجيش وتنظيمه في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن، فيمكن إجمالها وفقا لبعض المصادر التاريخية كالآتي:

1- إحداث وزارة للجيش على حدة يدعى صاحبها العلاف الكبير، وهو أيضا الرئيس الأعلى للجيش المغربي، وقد أسند هذه الوزارة أولا للسيد عبد الله بن أحمد أخ السيد موسى بن أحمد الحاجب الشهير.

2- إسناد تدريب الجيش إلى السيد محمد خوجة التونسي الذي كانت رغبته قوية في السير بالجيش المغربي في طريق التقدم.

3- اشتغال هذا الجيش النظامي على الخيالة وبعض الرجال الذين تأسسوا لأول مرة، وكان ينقسم إلى عدة فرق، كل فرقة تسمى "الطابور" الذي يشتمل على 900 جندي فيه عدد من حملة الشواكير⁵⁶.

4- أهم فرق هذا الجيش: "فرقة الوصفان" رئيسهم الوصيف بن المزوار، "فرقة أهل سوس" رئيسهم الحاج منو الشهير، "فرقة الحاج عزوز بن الفتوح"، "فرقة الحاج محمد الزروالي"، وغيرهم.

5- لباس هذا الجيش كان من الملف الرفيع، وكسوة رؤسائه مزركشة ومرصعة بخيوط الذهب، ونعالهم من جلد أحمر.

6- سلاح الجيش كان من أعلى طراز⁵⁷.

وكخلاصة، يمكن القول إن ما دأب عليه السلاطين العلويون عبر تاريخهم المجيد، من عناية بالعلم وأهله، وهم يترأسون المجالس العلمية السلطانية في المناسبات الدينية، وعندما يستجد ما يتطلب الحسم في أمور سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، يعد مفخرة للمغاربة قاطبة لما يوليه أمراؤهم من أهمية قصوى للعلم والمعرفة لفائدة المملكة ورعيتهما، حرصا على مصالح الأمة العقديّة

56 - عبد الرحمن بن زيدان، إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1931، ج.3، ص. 568.

57 - محمد المنوني، م. س، ص. 81.

ودرءا لكل النزعات المتطرفة والميولات الهدامة المعلنة والمبهمة منها، ليظل المغرب تحت إمرة أمير المؤمنين وفيما لمذهبيته الدينية المؤطرة بالكتاب والسنة، وفق المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وتصوف الجنيد السالك. ومما يزيد المغاربة اعتزازا أيضا بملوكهم، مستواهم العلمي الرفيع، الذي يمكنهم باقتدار من مناظرة العلماء ومناقشتهم، علاوة على استشارتهم والأخذ برأيهم في عدد من القضايا الفكرية والدينية العويصة التي تهم البلاد والعباد.

وإذا كانت هذه المجالس العلمية السلطانية قد شهدت في عهد كافة ملوك الدولة العلوية الشريفة نشاطا علميا متواصلا وعطاء فكريا متجددا، حيث تعدد عملها الإسلامي، وتنوع نشاطها الديني وعطاؤها العلمي، فإن هذه المجالس العلمية قد عرفت في عهد أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني تغمده الله برحمته، ونجلاه جلالة الملك محمد السادس حفظه الله رعاية كبيرة وعناية فائقة واهتماما خاصا، وفر لها تنظيما جديدا، وفتح لها آفاقا واسعة لتمكن من أداء رسالتها الإسلامية ومهمتها الاجتماعية والحضارية، وتواكب العصر بما يقتضيه من اجتهادات واستنباطات فقهية لمستجدات الحياة وقضاياها الطارئة وإيجاد الحلول في ضوء الشريعة الإسلامية السمحة، ومما يشهد على هذه العناية وذلك الحرص، على عهد الملكين العظيمين جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله، وجلالة الملك محمد السادس، أيده الله ونصره⁵⁸:

- إحداث المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية الإقليمية ما بين 1980 و1987 بعدة مدن من المملكة.

- إحداث الكراسي العلمية بمساجدها.

- إلقاء الدروس الحسنية الرمضانية التي تتوج تلك المجالس، بما تضيفه عليها وعلى علمائها في تلك الحضرة السلطانية، وإلى يومنا هذا، من الجلال والوقار.

- إحداث الرابطة المحمدية لعلماء المغرب سنة 2004.

- إطلاق إذاعة محمد السادس للقرآن الكريم عام 2004.

58 - عبد النبي عيودوي، المجالس العلمية ورهانات الإصلاح الديني بالمغرب، في عهد الملك محمد السادس نصره الله، المطبعة السريعة، القنيطرة، عام 2014، ص. 74 وما بعدها.

- إطلاق قناة محمد السادس للقرآن الكريم والموقع الإلكتروني لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية عام 2001.

إلى غير ذلك من الإصلاحات الهيكلية التي تقوي مناعة البلاد في عقيدتها وثقافتها وسلوكها وأمنها المادي والروحي، في ظل إمارة المؤمنين أبقاها الله ذخرا لهذه الأمة، وحفظها بما حفظ به الذكر الحكيم.

المجالس العلمية السلطانية السليمانية

رسالة في "قال" في سند الحديث

لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بنيس ت 1214 هـ

د. خالد سقاط
كلية الآداب ظهر المهرارز
فاس

يواصل السادة ملوك الدولة العلوية الشريفة القيام بواجبات الرسالة السامية الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية التي دأب عليها سلفهم الصالح. وذلك للحفاظ على الأمن والاستقرار والوحدة التي ينعم بها المغرب وتدعيم أركان الدولة وتشيد نهضتها وقوتها المعتمدة على هدي الكتاب والسنة المحمدية.

ومن أجل مظاهر ما توارثه وواكب عليه ملوك الدولة العلوية المنيعة في مجال حرصهم على استكمال الدعائم الحضارية للدولة المغربية، اهتمامهم البالغ والتميز وتقديرهم الكبير وعنايتهم الفائقة بالعلم والعلماء في مختلف الفنون. حيث حظيت هذه الفئة في كنفهم بالتكريم والاحترام المتبادل في شكل مجالس علمية سلطانية كانت تعقد في القصور وفي سائر مراكز العلم المنتشرة في المغرب باديته وحاضرتيه.

وقد سجلت العديد من المصادر التاريخية والأدبية المشاركة الفعالة في معظم تلك المجالس للعلماء من الملوك العلويين مع شيوخهم وطلبتهم في دروسهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي مجالس الفتوى الشرعية، حيث شجعت عنايتهم لهذه المجالس وعلمائها وروادها على مسيرة التأليف والتحقيق في القضايا الفكرية والعقدية والمذهبية المختلفة التي كانت مثار الجدل وإبداء الرأي.

وقد بلغت العناية بهذه المجالس عند معظم الملوك العلويين من الأهمية أنهم كانوا يعتمدون على مواقف علمائها المشرفة لاتخاذ القرارات وإصدار الأحكام والقوانين المسيرة للدولة، ومنهم

المولى إسماعيل العلوي (1082-1139هـ) الذي اعتبرها رافدا هاما في قضايا توطيد البلاد ونهضتها، والمولى أبو الربيع سليمان العلوي (1206-1238هـ) الذي اعتبر المجالس العلمية السلطانية مركزا علميا للتنظير والتشريع ومرجعا للشورى والتخطيط.

وقد تطورت المجالس العلمية السلطانية في العهد الحديث للدولة العلوية إلى أشكال رسمية منتظمة تواكب الازدهار الفكري والعلمي والحضاري، إما في شكل حلقات الدروس الحسنية الرمضانية التي يحضرها ملك البلاد وكبار علماء المغرب والعالم الإسلامي، أو في أنشطة المجالس العلمية المحلية في كل المدن المغربية باسم وعلم ملك البلاد.

وهذا المقال يهتم ببعض ما اشتهر زمان الملك العالم والمؤلف المولى سليمان العلوي في مجال مجالس العلمية السلطانية، التي ذاع صيتها وأرخت لجل قضاياها المصادر والمراجع المغربية والأجنبية في جميع اهتماماته الفكرية ومواقفه السياسية والعلمية والدينية.

هذا السلطان أقل ما قيل في شأنه إنه كان متضلعا من جميع العلوم وخاصة في الفقه والفتوى وعلوم القرآن وأنه كان من علمه وتواضعه واستقامته يحضر اختتام الأئمة العلماء الكبار من شيوخه لأمهات المصادر الدينية بصفته من طلبتهم تواضعا وتعظيما للعلم والعلماء. كما كان يفاجئ بزياراته لمجالس علماء جامع القرويين مع طلبتهم ويشاركهم النقاش والبحث ويبيد الرأي ويحاور الشيوخ والطلبة.

وقد ازدهرت في عصره علوم كثيرة وخاصة منها في مجالسه العلمية علوم القرآن كلها وبخاصة التفسير والفقه والحديث وعلومه التي كانت له ولرجالاته في مجالسه الصدارة والمكانة المرموقة.

وفي هذا المجال يُذكر أن السلطان المولى سليمان كان في مجلس علمي بمدينة مراكش وأخذ قارئ يروي الأحاديث النبوية ولا يفصل في صيغ إسنادها بلفظ "قال"، وكان قد اعترض على ذلك في المجلس شيخ الزاوية الشراعية محمد بن أحمد الشراذي وهو من شيوخ المولى سليمان، وكان اعترضه مثار جدال بين العلماء الحاضرين.

وقد جمع وحقق وقدم د. أحمد العراقي متن ثلاث رسائل في موضوع "قال" في متن السند، كان السلطان المولى سليمان قد أمر علماء فاس بالكتابة في هذه المسألة التي تكرر الخلاف في شأنها في مختلف المجالس السلطانية بالمغرب.

وهي رسالة الشيخ محمد بن أحمد بنيس (ت 1214هـ) ورسالة الشيخ الطيب بن عبد المجيد بن كيران (ت 1227هـ) ورسالة الشيخ حمدون بن عبد الرحمان بن الحاج السلمي (ت 1232هـ).
وسنورد رسالة الشيخ محمد بن أحمد بنيس في المسألة مجردة من هوامش التعليق إلا الضروري منها.

وأبو عبد الله محمد بنيس ولد بفاس سنة 1260هـ أخذ العلم على كبار مشايخ زمانه من أمثال محمد بن قاسم جسوس (ت 1182هـ) وعبد الرحمان المنجرة (ت 1179هـ) ومحمد بن الحسن البناني (ت 1194هـ) وعبد القادر بن شقرون (ت 1219هـ) ومحمد بن عبد السلام الفاسي (ت 1214هـ) وغيرهم. وبعد عودته من الحج ولقاء علماء الحرمين تفرغ للإقراء والتدريس بفاس بضريح المولى إدريس الأزهر، أخذ عنه كثير من أعلام العلماء كالسلطان المولى سليمان وأحمد بن عجينة (ت 1224هـ) وحمدون بن الحاج السلمي (ت 1232هـ) وغيرهم.

له عدة مؤلفات جلها مطبوعة في الفقه والحساب والحديث والأدب والسيرة النبوية.

توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بنيس سنة 1214هـ وقبره بروضة باب عجيصة بفاس.

متن الرسالة

.... هذا لمن خص هذا النوع الإنساني بأسرار القول والمقول، لطفاً به ليعتبر عن الفروع والأصول، لما جعله عليه من التمدّن والاحتياج، في اللباس والسكن والازدواج. وكانت الإشارة لا تفي بما هنالك، والكتابة يعسر سلوكها في جميع المسالك، فامتّن سبحانه بأنواع العبارات، وجعل لنا التّفنّ في ذلك بلطائف الاعتبار؛ فتارة نوجز في التعبير عن المراد، حيث يكون المخاطب من النّقاد؛ وأخرى نُظنّب في العبارة، حيث لا يهتدي المواجه للإشارة؛ وطورا نساوي بين اللفظ والمعنى، جريا على ما عليه أصل الكلام يُبنى. فسبحانه من حكيم عليم، أبدع الإنسان في أحسن تقويم.

وصلاة وسلاما على بَزر الكون ومسك الختام، مَنْ به انتظم هذا العالم هذا الانتظام، فقعد الشرائع والأحكام، وبيّن الحلال والحرام.

هذا وقد جرت المذاكرة بين يدي مولانا المنصور المؤيد، ذي الشرف الباذخ والملك المخدّد، رافع منار الشريعة المطهرة القديمة، المقتفي آثار السلف الصالح بانتهاج الطريقة المستقيمة، عظيم السادات وسيد العظماء، عالم السلاطين وسلطان العلماء، من له اليد الطولى في كل العلوم، والقدم الراسخ في ميدان الآراء والفهوم، الشريف القدر العظيم الشأن، مولانا أبي الربيع سليمان، أبقاه الله كهفا للإسلام، بجاه جده عليه السلام، في لفظة "قال" الواردة في أثناء إسناد الحديث، هل لابد من التلفظ بها أو يكتفى بتقديرها في التحديث؟ فجنح بعض مَنْ حضر إلى تعيين الأول، فأمر أيده الله بتقييد ما يكون عليه المعوّل.

فنقول: اعلم - حفظك الله - أن الذي ابتكر تفصيل هذه المسألة هو إمام هذه الصناعة أبو عمرو عثمان الشهير بابن الصلاح¹ في كتابه الذي ألفه في معرفة أنواع علم الحديث، وبيان أصوله وقواعده، وإيضاح فروعه وأحكامه، وكشف أسرارهِ وشرح مشكلاته، وإبراز نكته وفوائده، وإبانة مصطلحات أهل الحديث ورسومهم ومعالمهم ومقاصدهم.

فقال في الفرع الثالث عشر من الفروع التي ذكرها في النوع السادس والعشرين في صفة رواية الحديث وشرط أدائه وما يتعلق بذلك نصه: "جرت العادة بحذف "قال" ونحوه فيما بين رجال

1 - فقيه مفسر ومحدث، له كتاب معرفة أنواع علم الحديث والمعروف بمقدمة ابن الصلاح. توفي بدمشق سنة 643هـ. وفيات الأعيان لابن خلكان 243/3. شذرات الذهب لابن العماد 383/7.

الإسناد خطأ، ولا بد من ذكره حالة القراءة لفظاً. ومما قد يغفل عنه من ذلك ما إذا كان في أثناء الإسناد قرئ على فلان، أخبرك فلان، فينبغي للقارئ أن يقول فيه قيل له أخبرك فلان. ووقع في بعض ذلك قرئ على فلان، ثنا فلان؛ فهذا يذكر فيه "قال"، فيقال: قال قرئ على فلان، قال، حدثنا فلان. وقد جاء هذا مصرحاً به خطأً هكذا في بعض ما رويناه. وإذا تكررت كلمة "قال" كما في قوله في كتاب البخاري: حدثنا صالح بن حيّان قال: قال عامر الشعبي: حذفوا إحداهما في الخط، وعلى القارئ أن يلفظ بهما جميعاً. والله أعلم².

وهذا الكتاب هو أصل "ألفية" زين الدين العراقي³ لقوله في صدرها⁴:

لَحِصْتُ فِيهَا ابْنَ الصَّلَاحِ أَجْمَعَهُ ❁ وَزِدْتُهَا عِلْمًا تَرَاهُ مَوْضِعَهُ
فَحَيْثُ جَاءَ الْفِعْلُ وَالضَّمِيرُ ❁ لِوَاحِدٍ وَمَنْ لَهُ مَسْتَوْرُ
كَقَالَ أَوْ أَطْلَقْتُ لَفْظَ الشَّيْخِ مَا ❁ أَرِيدُ إِلَّا ابْنَ الصَّلَاحِ مُبِهِمَا

وقد قال في نظم هذه المسألة⁵:

قُلْتُ: وَرَمَزُ "قَالَ" إِسْنَادًا يَرِدُ ❁ قَافًا، وَقَالَ الشَّيْخُ حَذَفُهَا عَهْدُ
خَطًّا وَلَا بُدَّ مِنَ النُّطْقِ كَذَا ❁ قِيلَ لَهُ وَيَنْبَغِي النُّطْقُ بِذَا

قال الناظم في شرحه: ومما جرت به عادة أهل الحديث حذف "قال" أثناء الإسناد في الخط، والإشارة إليها بالرمز. فرأيت في بعض الكتب المعتمدة الإشارة إليها بقاف؛ فبعضهم يجمعها مع أداة التحديث، فيكتب: "قثنا"، يريد: قال حدثنا. وقد توهم بعض من رأى هذا هكذا أنها الواو التي تأتي بعد حاء التحويل؛ وليس كذلك. وبعضهم يفردا فيكتب: "ق ثنا"؛ وهذا اصطلاح متروك. وقال ابن الصلاح: جرت العادة بحذفها خطأً، قال: ولا بد من ذكرها حال القراءة لفظاً⁶. وذكر كلامه السابق في مسألة تكرار "قال".

ثم قال الشارح: "وقد سئل ابن الصلاح في "فتاويه" عن ترك القارئ "قال"، فقال: هذا خطأ من فاعله، قال: والأظهر أنه لا يبطل به السماع، لأن حذف القول جائز اختصاراً، وقد جاء به القرآن

2 - مقدمة ابن الصلاح ص 113.

3 - سيعرف به أبي عبد الله بنيس في آخر هذه الرسالة. ص 10.

4 - التبصرة والتذكرة لعبد الرحيم العراقي 8/1.

5 - نفسه 154/2.

6 - نفسه 154/2.

العظيم. وكذا قال النووي في "التقريب والتيسير": تركها خطأ، والظاهر صحة السماع. وقولي كذا "قليل له" أي كذا لفظ "قليل له" فيما إذا كان في أثناء الإسناد "قريء على فلان" "أخبرك فلان". قال ابن الصلاح: فينبغي للقارئ أن يقول فيه "قليل له أخبرك فلان". قال: ووقع في بعض ذلك "قريء على فلان ثنا فلان"؛ فهذا يذكر فيه "قال".."7

"وقد كان بعض من لقيته من أئمة العربية ينكر اشتراط المحدثين التلفظ بـ "قال" في أثناء الإسناد، وهو العلامة شهاب الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز بن المرحّل، وما أدري ما وجه إنكاره لذلك، لأن الأصل الفصل بين كلامي المتكلمين للتمييز بينهما، وحيث لم يفصل فهو مضمّر، والإضمار خلاف الأصل".

وقد اعترض العلامة الحجة النظّار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصّار قول الشارح "وما أدري ما وجه إنكاره لذلك" بأن وجهه وجهه، وهو: أن ما لم يكتب ولم يرمز له لا يقرأ، وأن حذفه للعلم به جائز؛ فالصواب ما قاله عبد اللطيف بن المرحّل⁸ - وهو بكسر الحاء - لأنه كان يبيع الرّحال المشتراة؛ وهو من أهل مصر، من أشياخ ابن هشام صاحب المغني وغيره، وقد أكثر الثناء عليه، وهو حقيق بذلك.

وارتضى كلام القصّار هذا جماعة من الأئمة كتلميذه العلامة أبي الحسن سيدي علي البطوّي⁹، والشيخ العلامة سيدي محمد ميارة الكبير¹⁰ تلميذ البطوّي المذكور.

ولا مرية في أن هذا هو الحق الذي لا شك فيه لما علّم واشتهر، وعند الأئمة قد تقرر، من كثرة حذف القول في كتاب الله العزيز، وكلام الرسول ﷺ، وكلام من يُستشهد بكلامه، وهو ملاحظ ومعتبر. ولم يقل أحد لا بد من النطق بذلك المقدر، بل لا يجوز النطق به في كلام الله عز وجل، وكلام رسوله ﷺ على أنه منه.

وقد اختلف في مقدرات القرآن هل هي منه حتى يطلق عليها كلام الله أم لا. والحق أن معانيها مما يدل عليه لفظ الكتاب التزاما للزومها في متعارف اللسان، فهي من المعاني القرآنية. وأما

7 - نفسه 155/2.

8 عبد اللطيف بن عبد العزيز المُرّي المعروف بابن المرحّل. توفي سنة 744هـ. شذرات الذهب لابن العماد 244/8.

9 - علي بن عمر البطوّي، من العلماء المحققين، أخذ عن القصار والمنجور وابن القاضي والسراج وغيرهم. توفي بفاس سنة 1039هـ. الصفوة للإفراني ص 177 ونشر الثاني للقادري 280/1 والسلوة للكتاني 219/3.

10 - محمد بن أحمد ميارة، من كبار فقهاء المغرب، وصاحب شرح مرشد ابن عاشر. توفي بفاس سنة 1072هـ. الصفوة للإفراني ص 250 ونشر الثاني للقادري 120/2 والسلوة للكتاني 178/1.

ألفاظها فليست منه لأنها معدومة؛ ومنها لا يجوز التلفظ به أصلاً كالضمائر المستترة وجوبا. وأما جعلها مقدرة فأمر اصطلاحى ادعاه النحاة تقريبا للفهم. وأيضا المقدّر في نحو: ﴿وَزَلَّهَا﴾¹¹ لفظ غير معين، بل كل ما يدل على المعنى؛ فأين التواتر والتعبد المشترطان في القرآن؟

وقد ترجم في "المغني" لحذف الفعل وحده أو مع مضمّر مرفوع أو منصوب أو معها؛ قال: ويطرّد حذفه في كذا، ويكثر في كذا، "وأكثر من ذلك كله حذف القول نحو: ... ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...﴾"¹² حتى قال أبو علي: حذف القول من حديث البحر قل ولا حرج"¹³.

وقال في ترجمة حذف الحال: "أكثر ما يرد إذا كان قولاً أغنى عنه المقول نحو: ... ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ...﴾"¹⁴ أي قائلين ذلك. ومنه ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾¹⁵؛ ويحتمل أن الواو للحال وأن القول المحذوف خبر، أي: وإسماعيل يقول. كما أن القول حذف خبراً للموصول في: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا...﴾"¹⁶ ويحتمل أن الخبر هنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾. فالقول المحذوف نصب على الحال، أو رفع خبراً أول، أو لا موضع له لأنه بدل من الصلة. هذا كله إن كان "الذين" للكفار والعائد الواو؛ فإن كان للمعبودين عيسى والملائكة والأصنام فالعائد محذوف، أي اتّخذوهم، والخبر "إن الله يحكم بينهم"، وجملة القول حال أو بدل"¹⁷.

وهذا هو الإيجاز الذي هو شأن المهرة من أهل البيان، الذين لهم في البلاغة عراقية ويدان، فهو عندهم مطلوب، ولدى أفاضلهم محبوب. وقد قال الإمام أبو العباس ابن البناء¹⁸، دفين مراکش، في مدح الإيجاز: وافـر.

11 - من قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها...﴾ الرعد 36.

12 - الرعد 25.

13 - مغني اللبيب لابن هشام 702/2.

14 - الرعد 25.

15 - البقرة 126.

16 - الزمر 3.

17 - مغني اللبيب 705/2.

18 - أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي، من كبار علماء زمانه، توفي بمراكش سنة 721 هـ. جذوة الاقتباس لابن القاضي 148/1 ودرة الحجال لابن القاضي ص 14. والإعلام للمراكشي 202/2. والأبيات الثلاثة ضمن ترجمته.

قَصَدْتُ إِلَى الْوَجَازَةِ فِي كَلَامِي ❀ لِعِلْمِي بِالصَّوَابِ فِي الْإِخْتِصَارِ
وَلَمْ أَحْذَرْ فُهوماً دُونَ فَهْمِي ❀ وَلَكِنْ خِفْتُ إِزْرَاءَ الْكِبَارِ
فَشَأْنُ فُحُولِ أَهْلِ الْعِلْمِ شَأْنِي ❀ وَشَأْنُ الْبَسْطِ تَفْهِيمُ الصَّغَارِ

وقد قالوا: الإيجاز من أقوى أسباب الإعجاز، حتى قيل: البلاغة إجماع اللفظ وإشباع المعنى؛ ولذلك أرباب البلاغة قدموا الكلام عليه دون أخويه كصاحبي "المفتاح" و"التلخيص"، ولم يجدوا من ذلك من محيص. وقد يقتضيه الحال، فيجب اعتباره في المقال؛ قال صاحب "الكشاف" في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾¹⁹: إنه "يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يحمل ويوجز"²⁰.

والآيات والأحاديث في حذف القول وغيره كثيرة، ولا سيما حذف القول. فقد قال فيه أبو علي ما قال؛ وقد سماه أرباب البيان إيجاز الحذف. وعدّ من ذلك صاحب "التلخيص" آيات؛ ومع ذلك أغفل ذكر الاحتباك²¹ الذي هو من الطرفة؛ وهو كثير في القرآن وفي كلام البلغاء. وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره أو مقابله في الثاني؛ ومن الثاني ما أثبت نظيره أو مقابله في الأول؛ كقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾²² أي صالحا بسيئاً وآخر سيئاً بصالح، على ما هو الصواب فيه؛ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾²³، أي إن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم برآء منه، وإن افتريتموه فعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون؛ وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾²⁴، أي لا يرون فيها شمساً ولا قمراً ولا حرّاً ولا زمهريراً.

ومن إيجاز الحذف أيضاً، بل من محاسنه الاكتفاء²⁵؛ وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة، ويختص غالباً بالارتباط العطفية كقوله تعالى: ﴿يَدُكَ الْخَيْرُ﴾²⁶، أي والشر؛ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾²⁷، أي وما تحرك، ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾²⁸، أي والبرد.

19 - البقرة 18.

20 - الكشاف لمحمود الزمخشري 207/1.

21 - ينظر في شأنه: شرح عقود الجمان للسيوطي ص 117.

22 - التوبة 103.

23 - هود 35.

24 - الإنسان 13.

25 - ينظر في شأنه: العمدة لابن رشيق 251/1.

26 - آل عمران 26.

27 - الأنعام 14.

28 - النحل 81.

إذا تمهّد هذا فالقول بوجوب ذكر القول المذكور، في أثناء السند الذي اعتباره ظاهر مشهور، وقوفٌ مع الظاهر من غير غوص على الدقائق والسرائر، تقليداً لشيء قاله ابن الصلاح، كأنّا نُعبّدنا به لنفوز بالفلاح؛ على أن الأئمة النقاد، انتقدوا عليه أي انتقاد، وتظافروا على ترك ما أيّده، وهدم ما شيده. وليست بأول قارورة كسروها لابن الصلاح، بل نظيرتها ما حرّمه من المنطق المؤسّس على القواعد الصحاح²⁹.

وقد تبين بهذا أن ما حاكه ابن الصلاح كان أحوج شيء إلى القصّار³⁰، ليزيل ما به من الأكدار، والله درُّ القائل³¹: كامل

قد حاك شفات العلوم أئمةً ❀ وكسّوا بها بالفضل من هو عارٍ
رقت حواشيها وراق طرازها ❀ لكنّها تحتاج إلى القصّار

على أن ذلك ما صدر منه ومن أتباعه إلا غفلة عن معاني أسرار البلاغة، وإهمالا لارتكاب أسباب البراعة. وقد اشترطوا في متعاطي الحديث والتفسير أن يكون متضلعا بعلمي المعاني والبيان، سالكا جادة التحقيق والتبيان: قال صاحب "الكشاف" في صدر خطبته ما نصه: "الفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلّم وإن برّ أهل الدنيا بصناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من حسن البصريّ أوعظ، والنحويّ وإن كان أنحى من سيبويه، واللغويّ وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلّا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهّل في ارتيادها آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثه على تتبّع مظانّهما همّة في معرفة لطائف حجّة الله، وحرص على استيضاح حجّة رسول الله ﷺ³².

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قبضته يوم القيامة﴾³³ بعد أن قرر فيها استعارة تمثيلية أثناء كلام في الشناء على علم البلاغة ما نصه: "وكم آية من آيات التنزيل، وحديث من

29 - يشير إلى ما جاء عن ابن الصلاح وبعضهم من تحريم الاشتغال بعلم المنطق؛ وقد نص على ذلك صاحب السلم بقوله:

فابن الصلاح والنووي حرّما ❀ وقال قوم ينبغي أن يُعلّم

متن السلم ضمن مجموع المتون الكبرى ص 368.

30 - يقصد العلامة محمد بن قاسم القصّار. سبق.

31 - البيتان قالهما فيه عبد الله الدنوشي. نفحة المسك لابن الحاج ملد 17/- .

32 - الكشاف 15/1.

33 - الزمر 64.

أحاديث الرسول، قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثّة، والوجوه الرثة، لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا نفير، ولا يعرف منه قبلا من دبير"³⁴.

وقال نحو هذا في تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدِ اللَّهُ مَغْلُوبَةً﴾³⁵، ومثل ذلك للسكاكي في "المفتاح" حتى قال: فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو في علمي المعاني والبيان راجل³⁶. وإلى ذلك يشير شيخنا العلامة خاتمة المحققين أبو حفص الفاسي³⁷، قدس الله روحه:

من رام تأويل الكتاب ولم يكن ❀ يَدْرِي الْبَيَانَ فَذَاكَ مِنْ تَسْوِيلِهِ
إِنْ الْبَيَانُ هُوَ الْبَيَانُ لِلْفُظَّة ❀ فَإِذَا جَهِلْتَ فَقُفَّكَ عَنْ تَأْوِيلِهِ³⁸

- الكامل -

ابن الصلاح المذكور هو الإمام الحافظ تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمان عثمان بن موسى بن أبي نصر النصري الشهرزوري الشافعي. قال في "القاموس": شهرزور مدينة زور بن الضحاك، وقال في زور إنه ملك بني شهرزور. وقال عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي الإشبيلي في اختصار كتاب "اقتباس الأنوار في أنساب الصحابة ورواة الآثار" لأبي محمد عبد الله بن علي اللخمي الشهير بالرُّشاطي - بضم الراء - شهرزور نحو من بلاد أذربيجان، وأنشدنا الفقيه الحافظ أبو علي الصديقي، قال أنشدني محمد السراج لنفسه: الكامل

وَعَدْتُ بِأَنْ تَزُورِي كُلَّ شَهْرٍ ❀ فُزُورِي قَدْ تَقَضَّى الشَّهْرُ زُورِي
وَشِقَّةُ بَيْنَانَا نَهْرُ الْمَعْلَى ❀ إِلَى الْبَلَدِ الْمَسْمَى شَهْرُ زُورٍ
وَشَهْرُ صَدُودِكَ الْمُحْتَمِ صِدْقٌ ❀ وَلَكِنْ شَهْرٌ وَصَلِكَ شَهْرُ زُورٍ

وأما الزين العراقي: فهو الإمام الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم الحسين زين الدين العراقي، من أهل مصر، ولم يكن بها ولا بالشام في زمانه أعلم بالحديث وطرقه منه. ومن شعره ارتجالا في مجلس إقرائه على أبي سعيد الخُدري، مرحبا بوصية رسول الله ﷺ:

34 - الكشف 627/1.

35 - المائدة 66.

36 - المفتاح للسكاكي 162 بتصرف في العبارة.

37 - من كبار علماء وأدباء زمانه، مبرز في الفقه، مشارك في كل العلوم تدريسا وتأليفا. وشاعر مجيد. توفي بفاس سنة 1188هـ. ثمرة أنسي للحوات ص 87. وعناية أولي المجد للمولى سليمان 60. والسلسلة 384/1.

38 - شعر أبي حفص عمر الفاسي. جمع وتحقيق ودراسة الزهرة مكريني. أطروحة مرقونة بكلية الآداب فاس 2002. ص 96.

ترفقُ بمن يأتيك للعلم طالبا ❁ وقل مرحبا يا طالب العلم مرحبا
فذاك الذي وصيَّ به سيد الوري ❁ كما قد روى الخُدريُّ عنه ورحبا
ومن سهَّل الله الطريقَ لجنَّة ❁ له لجديرٌ بالترحُّب والحبِّ

جعلنا الله بفضلِهِ ممن انتظم في زمرة العلماء الأعلام، ووفقنا للعمل به بجاه نبينا عليه الصلاة والسلام.

قد كمل ما يجب أن يكون عليه الاعتماد، في لفظ "قال" الواقع في أثناء الإسناد، امثالا لمن أوجب الله سبحانه طاعته على سائر العباد، منحه الله من خير الدارين كل مقصود ومراد.

وقيده العبد الفقير إلى رحمة مولاه، محمد بن أحمد بن محمد بنيس كان الله له وتولاه، وغفر له ولجميع المسلمين، آمين. 12 المحرم، فاتح 1213.

من خط مؤلفه، حفظه الله وأدام النفع به. ووافق الفراغ منه منتصف المحرم فاتح ثلاث عشرة ومائتين وألف.

يقول محقق رسالة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بنيس د. أحمد العراقي عن موضوعها³⁹:

استهل بنيس رسالته بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ بذكر المناسبة التي دعت له لكتابتها وهي ما جرى بين يدي السلطان المولى سليمان من مذاكرة حول لفظة "قال" الواردة في أثناء إسناد الحديث، هل لا بد من التلفظ بها أو يكتفي بتقديرها في التحديث؟ فجنح بعض الحاضرين إلى تعيين الأول، فأمر السلطان بتقييد ما يكون عليه المعول. ونبه إلى أن ابن الصلاح هو أول من فصل الكلام في هذه المسألة وقال بضرورة التلفظ، ونقل عنه ذلك عبد الرحيم العراقي في "ألفيته" ثم في شرحه عليها "التبصرة والتذكرة" حيث استنكر رأي من تنكر اشتراط المحدثين التلفظ بـ "قال" في أثناء الإسناد.

وانصرف بعد هذا إلى إيراد اعتراض الإمام القصار على استنكار العراقي ذلك، وبين أن جماعة من الأئمة قد ارتضوا كلام القصار. وذهب هو إلى أنه الحق الذي لا مرية فيه؛ وانبرى إلى ذكر ما يؤيده وربطه بما يرد من كثرة حذف القول في القرآن الكريم، وأنه يبقى مقدراً، وأنه لم يقل أحد لا بد من النطق بذلك المقدّر، ولاحظ أن المقدرات هي من معاني القرآن أما ألفاظها فليست منه لأنها

39 - ثلاث رسائل في "قال" في سند الحديث. د. أحمد العراقي ص 10.

معدومة. ثم جاء ببعض ما في "المغني" لابن هشام مما يتعلق بحذف الفعل وحده أو مع مضمرة، وكذلك مما يتعلق بحذف الحال، واستخلص أن كل ذلك من باب الإيجاز الذي هو شأن المهرة من أهل البيان، وقد سموه إيجاز الحذف. ورد رأي من يشترط التلفُّظ إلى مجرد تقليد ابن الصلاح، واعتبر ما ذهب إليه ابن الصلاح من اشتراط التلفظ إلى غفلة من غفلاته أوقعه فيها عدم مهارته في علمي المعاني والبيان. وختم رسالته بإيراد تعريف موجز بابن الصلاح ثم بعبد الرحيم العراقي.

نظام المجالس العلمية السلطانية في الدولة المغربية

ذ. محمد طايخ
باحث من فاس

المقدمة:

منذ قيام أول دولة في المغرب بعد دخول الإسلام إليه قامت حركات ثقافية علمية نشيطة، صاحبت تاريخ كل دولة من الدول التي تعاقبت على الحكم، كما تم تأسيس حواضر، وتشيد مراكز حضارية، ومؤسسات علمية وتعليمية طبقت شهرتها الآفاق، فوفد علماء وقادة وزعماء إلى المغرب من كل الربع والأرجاء والأصقاع، ورحل منه وإليه أقطاب وأعلام للدراسة في مختلف العلوم والمعارف، ونتيجة لذلك تفاعل الملوك أمراء المسلمين أو أمراء المؤمنين مع طبقات العلماء، واستمر هذا التفاعل على مر التاريخ، فقام نظام للمجالس العلمية السلطانية كواحد من نُظم القصر الداعمة، وكفاعل وعامل أديا إلى إشعاع فكري وحضاري، وإلى إيقاظ الهمم وشحن الفكر، وتفجير الطاقات والملكات وتنشيط البحث العلمي والدراسة، وطلب العلم وتحصيله، واستقر هذا النظام بصفة بنوية داخل حياة الملوك والسلاطين الذين حكموا المغرب منذ دولة الأدارسة إلى الوقت الحاضر.

وإذا كان من مميزات لسلاطين المغرب وملوكه فإن من أهمها اتخاذهم هذه المجالس - قرآنية كانت أو حديثة أو تفسيرية أو فقهية، أو سياسية وعسكرية دفاعية - دعامة علمية دينية ودينية. وقد دأب السلاطين الملوك على رعاية هذه المجالس، وإقامة مراسمها، باعتبارها نظاماً "مختلفاً نُظم القصر السلطاني على اختلاف أطواره، وتعاقب ملوكه وأعصاره".¹

ساد نظام المجالس العلمية السلطانية، وظل قائماً ولا يزال إلى اليوم على عهد جلالة الملك محمد السادس المنصور بالله، لكن التدابير الإدارية، والمناهج والأساليب والتقنيات التي خضع لها

1 - العزُّ والصَّوْلَةُ في مَعَالِمِ نُظُمِ الدَّوْلَةِ، لمولاي عبد الرحمن بن زيدان، المطبعة الملكية - الرباط، 1381 - 1961، 4/1.

تختلف نسبياً من عهد إلى عهد، من حيث الشكل والمضمون، ومن حيث الزمان والبرامج والدروس والمحتويات.

والمهم الهام أن (الدروس الحسنية) مفخرة عظيمة من مفاخر هذا العصر على الصعيدين الوطني والعالمي وهي كذلك مفخرة من مفاخر القصر الملكي العامر، بل أنها مبرة من المبرات الحسنة للملك الراحل الحسن الثاني طيب الله ثراه، ولجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، وللأسرة العلوية الشريفة كلها.

هذا، وقد شارك في حضرة هؤلاء الملوك أعلام، بصّمو الثقافة والحضارة المغريتين ببصمات لا ولن تُنحى أبداً، بل وأسهمت في بناء صرح حضارة علمية، وثقافة كبيرة، وقامت في عهدهم حركات علمية قوية أبرزت مكانة المغرب داخلياً وخارجياً. وكانت تلك الحركات مُحَرِّكاً كبيراً للبحث والدراسة والتأليف والتنافس والمشاركة، وخاصة على عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله الذي تميزت الدروس الحسنية على عهد جلالته بإشراك المرأة المغربية في إلقاء الدروس بحضرة حفظه الله تعالى؛ إذ تمكنت المرأة من المشاركة الفعالة فيها؛ فأضفت عليها جِدَّةً وحادثة أعطتا صورة مشرقة للعالم عن المرأة المغربية العالمة، وكذا عن المغرب المتفتح الذي أحل المرأة منزلة رفيعة، وبوأها مكانة لائقة بين أخواتها في العالم، كما أعاد لها اعتبارها بصفتها شقيقة الرجل ونصف المجتمع، ومن خلال مشاركتها شُرِّفت المرأة المغربية العالمة، وشُرِّفت النساء في العالم، وهذا من المواقف المشرفة في الداخل والخارج. ومن الإنصاف الذي لا ينبغي لأحد أن يتجاهله، وكيف لا ! والملك محمد السادس نصره الله قد جعل منذ توليه الحكم في مقدمة الأولويات إنصاف رعاياه وحماية حقوقهم وبخاصة حقوق المرأة.

ويتطرق هذا البحث إلى المجالس العلمية السلطانية باعتبارها نظاماً من نُظُم القصر يقوم على قواعد وأسس، ومناهج تدبير، وطُرُق تسيير، وذلك من أجل أن يعرف القارئ في الوقت الحاضر أحد نُظُم القصر السلطاني تاريخياً وعلمياً، ومن ثم يعرف "كيف عاش ملوكنا أيد الله ملكهم، وكيف كانوا يقضون أيامهم، وكيف كانوا يدبرون مشاكل وطنهم، ثم كيف كان القصر يزخر بالعمل والحركة والنشاط دون كلل أو ملل"².

ولئن اختلف المصطلح والمفهوم، والشكل والمضمون للمجالس العلمية السلطانية من دولة إلى أخرى فقد عرف تاريخ هذه المجالس نوعين منها:

2 - المصدر نفسه، 4/1 - 5.

النوع الأول: المجالس العلمية السلطانية الرسمية.

النوع الثاني: المجالس العلمية السلطانية المناسباتية.

وظل السلاطين الملوك يَدْعُمُونَ نظام المجالس العلمية السلطانية، إلى عهد جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، فبعث حياة جديدة في المجالس العلمية السلطانية تحت اسم: (الدروس الحسنية) التي كان ولي العهد سيدي محمد آنذاك وصنوه المولى رشيد يحضرائها إلى جانب جلالته، ولما تقلد جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيد ملكه مقاليد الحكم استمر على نفس نهج والده المغفور له، وتحت الاسم نفسه، مهتما بالعلم والعلماء، ومقربا لهم ومختصا بهم، أعزه الله بإعزازهم.

وإذ يتناول هذا البحث موضوع:

نظام المجالس العلمية السلطانية في الدولة المغربية

يجدر بالباحث الاعتراف بأنه لم يبلغ فيه درجة من التوسع والتعمق، والدراسة والتحليل، والمناقشة والتركيب؛ إذ هو موضوع لم يستَوْفِ حَقُّهُ بَعْدُ من الدراسة والتحليل على مستويات عدة، وهو أيضا موضوع شاسع يرتبط أيما ارتباط بالحركة العلمية التي استفيض الحديث عنها عبر تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر.

قلت يرتبط هذا النظام بالحركة العلمية التي ارتبطت بدورها بالمؤسسة الحاكمة منذ الأدارسة إلى هذا العهد المحمدي الشريف، حيث شكل العلماء - من مختلف التوجهات والتخصصات سواء في مجال الأدب واللغة، أو في مجال الطب والفلك والرياضيات، أو في مجال القرآن وعلومه، أو الحديث وعلومه، أو الفقه وأصوله، أو الفلسفة وفروعها، أو علم الكلام أو السياسة الشرعية... - جهازا واكب العمل السلطاني والنشاط الملكي داخل القصر وخارجه، وأسهم في السياسة العامة بما كان يقدمه من آراء وأفكار إصلاحية، وبما كان يوفره من أطر في ميادين الولاية والقضاء والكتابة والوزارة والسفارة وغيرها.

كان العلماء على مر التاريخ جهازا فاعلا وفعالا، سواء على مستوى الحركة العلمية أو الاجتماعية، كانوا يُتَدَبَّرُونَ لمهمات، ولا يزال هذا الجهاز فاعلا في الوقت الحاضر، والحق أنه جهاز يمثل حلقات مترابطة عبر تاريخ المغرب منذ انطلاقة أول دولة؛ فهو ركن ركين من أركان النظام العام ومن أركان الدولة.

وإذ خصصت مجلة دعوة الحق عددها هذا لـ (المجالس العلمية السلطانية) فإنها قد عبرت عما تتميز به من بعد نظر، واستلهاهم للنهضات العلمية التي شهدتها تاريخ المغرب، وعلو الهمة والتشوف إلى نهضة علمية قوية في هذا العهد من خلال المسيرة القرآنية الحديثة إلى جانب المسيرات العلمية الأخرى في جميع المجالات، لذلك أُبَيِّتُ إلا أن أشارك في هذا العدد بهذا الموضوع المتواضع.

وينطلق هذا البحث من السؤال التالي:

- لما ذا نظام المجالس العلمية السلطانية؟

سيجيب البحث على هذا السؤال من خلال:

- رصد مؤشرات عن نظام المجالس العلمية السلطانية وإقامة مراسمها عبر التاريخ.

- رصد مؤشرات ما تميزت به المجالس العلمية السلطانية في عهد بعض الدول.

- رصد مؤشرات الأبعاد العلمية والثقافية التي ميزتها، وكذا أثارها في الحركات والنهضات العلمية.

والهدف المتوخى من ذلك أن يكون القارئ على إلمام بهذا الموضوع الذي أُسْهِمَ به في تعزيز كتابات ومقالات تبحث فيه على مستوى الشكل والمضمون، أو على مستوى المنهاج والتدبير، والبرنامج والخطة، أو على مستوى دعم الحركة العلمية وتفعيل المشروع الفكري والحضاري.

أما أهميته فتنبع من الهدف الذي يتوخاه، وهو تزويد القارئ بمعارف عن المجالس العلمية السلطانية وبخاصة (الدروس الحسنية) التي تعتبر مؤسسة متميزة تدعم الفكر والثقافة المغربيين على وجه الخصوص، والفكر والثقافة في العالم، وتُحَفِّزُ العلماء والمفكرين على الفاعلية والمشاركة، وتقيد الناس جميعا هنا وفي أي مكان من المعمور.

وتتحدد خطة البحث في المكونات التالية:

مقدمة: تتناول إلقاء نظرة عن المجالس العلمية السلطانية واهتمام الملوك والسلاطين بالعلم والعلماء.

المبحث الأول: نظام المجالس العلمية السلطانية منذ دولة الأدارسة إلى دولة السعديين

المبحث الثاني: نظام المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة

1- القسم الأول: المجالس العلمية السلطانية من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية.

2- القسم الثاني: نظام المجالس العلمية السلطانية من لدن جلالة محمد الخامس طيب الله ثراه إلى عهد جلالة محمد السادس نصره الله.
خاتمة. تتناول خلاصات مركزة.

المبحث الأول:

نظام المجالس العلمية السلطانية منذ دولة الأدارسة إلى دولة السعديين

مدخل:

البحث في المجالس العلمية السلطانية على عهد الملوك والسلاطين - وخاصة على عهد الأدارسة - الذين تعاقبوا على الحكم، تواجهه صعوبات منها:

- قلة المصادر المتخصصة في مجال البحث في المجالس العلمية السلطانية، وبالأخص في نظامها.

- المصادر تتحدث عن الحركات العلمية بشكل مستفيض، بينما هي تتحدث عن المجالس العلمية السلطانية بشكل مقتضب لا يشفي الغليل.

- إيراد الكلام عن المجالس العلمية السلطانية غالبا يكون من خلال البحث في الحركة العلمية لأي دولة، والنشاط الفكري فيها.

ولابد من القول هنا بأن بعضا من تلك الصعوبات قد غطى جزءا هاما من موضوع المجالس العلمية السلطانية لبعض الدول إلى آخر عهد دولة السعديين، هذا، مع الأخذ في الاعتبار أن النواة الأولى للمجالس العلمية السلطانية تكونت على عهد الدولة الإدريسية، وكانت هي القاعدة لما بعدها، ثم أخذت في التطور والتحول اللذين عرفتهما على مر التاريخ.

غير أنه ومهما كان، فإن مصادر عديدة من بين التي بأيدينا لم تقدم لنا وصفا دقيقا ومفصلا لتنظيم هذه المجالس، وإقامة مراسمها، كما أنها لم تتحدث عن مناهجها وبرامجها، وتديرها وإدارتها ببيان شاف كاف، منذ دولة الأدارسة إلى الدولة السعدية، باستثناء الوصف الذي قدمه لنا عبد

الواحد المراكشي³ عن المجالس العلمية السلطانية على عهد خلفاء وسلاطين الموحدين. أما بعد السعديين فنجد (كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة) لعبد الرحمان بن زيدان يقدم لنا وصفا دقيقا ومفصلا عن المجالس العلمية السلطانية التي اتخذت طابع نظام رسمي من نظم القصر السلطاني على عهد الدولة العلوية الشريفة. كما تقدم لنا كتب (الدروس الحسنية) المطبوعة وصفا لهذه الدروس وبرامجها.

وبعد هذا المدخل يتناول البحث الحديث عن المجالس العلمية السلطانية من دولة الأدارسة إلى دولة السعديين.

الدولة الإدريسية:

من الصعوبة بمكان، البحث في موضوع المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة الإدريسية؛ إذ إن هذه المجالس على عهد هذه الدولة لم تبلور مصطلحا ومفهوما، أو شكلا ومضمونا. نعم، كانت هناك مجالس، لكنها لم تتخذ طابعا نظاميا من جهة، ولم تعرف تنظيما ولا ترسيما محددين في الزمان والمكان من جهة ثانية، ولم تتحدد مراسمها ولا برامجها من جهة أخرى؛ وكما أشرت سابقا، فإن المصادر التاريخية لا تتحدث عن المجالس العلمية السلطانية في عهد هذه الدولة كنظام قائم.

وإذا كان هناك من يتحدث عنها من خلال ما يذكره الناصري عن جلوس الإمام إدريس بن عبد الله إلى رؤساء البربر ووجوه القبائل⁴، وعن الوفود التي وفدت على إدريس بن إدريس من البلدان من إفريقيا والأندلس، بمن فيهم العلماء والمفكرون، فإنها لم تكن قد تبلورت من حيث الشكل والمضمون، ولم تكن قد اتخذت شكل نظام.

ومن المؤكد أن المولى إدريس قد اتخذ من رؤساء البربر ووجوه القبائل، ومن العلماء والمفكرين الوافدين هيئات استشارية؛ إذ كما تقول الأستاذة آسية الهاشمي البلغيثي: "تقاطرت عليه وفود العلماء والشرفاء والنبهاء من المشرق والقيروان والأندلس (...) فكون منهم حاشيته وبطانته، وأسند إليهم المهام الجسيمة في دولته الفتية كأطر عليا وخبراء ومستشارين"⁵. ومن المؤكد أيضا أن

3 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1419 هـ - 1998 م، ص 245.

4 - كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، 158/1.

5 - المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، ذ. آسية الهاشمي البلغيثي، المملكة المغربية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416 هـ - 1996 م، مطبعة فضالة، 171/1 - 172.

وفوداً وفدت على إدريس بن إدريس "من إفريقيا والأندلس نازعين إليه وملتين عليه، فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس والأزد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر"⁶. لكن الجزم بأن مجالس الأدارسة كانت على سنن ونظام، وتخضع لبرامج ومناهج، يصعب جداً.

هذا، مع استحضار ما ذكره الناصري في معرض كلامه على الشماخ الذي اغتال الإمام إدريس، حيث قال: "فكان إذا جلس الإمام إدريس إلى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة ويقرر ذلك ويحتج لإمامة إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره"⁷. وقال - أيضاً - في معرض كلامه على وفود العرب على إدريس بن إدريس: "لما استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه وفدت عليه الوفود من البلدان، وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان"⁸.

فليس من السهولة الاستنتاج مما ذكره الناصري أن الإمام إدريس بن إدريس اتخذ المجالس العلمية السلطانية نظاماً ملوكياً، ومشروعاً فكرياً وحضارياً في إطار حركة علمية لها مقوماتها المادية والمعنوية. ثم لا ينبغي الخلط بين الحركة العلمية، والمجالس العلمية السلطانية، وإن كانت هذه الأخيرة لا تنفصل عن الأولى، بل تشكل جزءاً منها إن هي وجدت.

نعم، قد اتخذ الإمام إدريس بن إدريس ممن وفد عليه من العلماء والمفكرين والأدباء وغيرهم "بطانة" للتشاور والحوار في قضايا وطنية واجتماعية واقتصادية ومواجهة المكائد من الخارج، وإرساء الهياكل، وتنظيم القبائل، ودعم أسس الدولة وقواعدها. لكن قيام نظام رسمي للمجالس العلمية السلطانية في هذا العهد بالشكل والمضمون اللذين تبلورا فيما بعد لهذه المجالس يصعب تصوّره؛ إذ ليس فيما بين يدي من مصادر ومراجع حديث عن شكلها ومضمونها العلمي، وعن برامجها، وزمن معلوم لعقدتها، وأساليب وطرائق تدبيرها وتسييرها.

ولما كان المغاربة في ذلك الوقت حديثي العهد بنظام الحكم، كان من الأجدر أن تتولى هذه النخبة (الوفود من العلماء والأدباء) المهتمات الدينية والعلمية والإدارية الاقتصادية واجتماعيا وسياسيا وثقافيا وتعليميا.

6 - كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، 1/163.

7 - المصدر نفسه، 1/158.

8 - المصدر نفسه، 1/163.

وللإشارة، فإن من بين الوفود التي وفدت على إدريس بن إدريس شخصيات، أذكر بالاسم والصفة منهم:

- الوزير عمير بن مصعب الأزدي المعروف بالملجوم، من فرسان العرب وسادتها.
- القاضي عامر بن محمد بن سعيد القيسي، كان من أهل الورع والفقه والدين سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا.

- الكاتب أبو الحسن عبد الله بن مالك الحزرجي.

إن مناصب الوزير والقاضي والكاتب لم تسند في الحقيقة لهؤلاء إلا لأموور واعتبارات علمية، فهم من العلماء الذين وفدوا على المولى إدريس، فاستوزر منهم واستقضى واستكتب. ومنهم - بدون شك - من نصبهم للتدريس والخطابة والإمامة وغيرها من المهمات الدينية. وهم الذين انعقدت بهم المجالس للتداول والتشاور في قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية. من غير برنامج علمي، ولا زمن معين.

فما هو الدعم والإشعاع الفكري والحضاري لهذه المجالس على عهد دولة الأدارسة؟

لا ريب أن هذه المجالس العلمية السلطانية - مع تجوز في المصطلح، على عهدي الإدريسين الأول والثاني كانت داعمة ومساهمة وفاعلة في الفكر والحضارة والسياسة والاجتماع؛ إذ قد:

- اتخذت بطانة أو هيئة استشارية للتشاور في القضايا السياسية والعسكرية والاقتصادية والنظامية.

- عملت بتوجيه إدريسي على إرساء الهياكل وتنظيم القبائل ودعم أسس الدولة وقواعدها.

- أسهمت في توطيد عرى الإسلام وتوثيقه في الأنفس عبر الاتصال والتواصل الذين يفرضهما التعايش.

- شاركت في بناء المؤسسات والمرافق.

- أسهمت في نشر العلم والمعرفة في ربوع المغرب، عبر الدعوة والوعظ والإرشاد.

- قامت بوظائف الإمامة والخطابة والقضاء والولاية والإفتاء والتنظيم والتعليم... إلخ.

الدولة المرابطية:

تتحدث المصادر التاريخية عن الحركة العلمية في عهد الدولة المرابطية، وكذا عناية أمراء المسلمين المرابطين بالعلماء وتقريبهم منهم، مثل كتاب: (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647هـ) الذي لم يصف لنا المجالس العلمية السلطانية باعتبارها نظاما على عهد هذه الدولة. لكن أخذ هذا النظام يتبلور، وأخذت معاملة تبرز نوعا ما.

ففي عهد يوسف بن تاشفين اللمتوني المرابطي المؤسس الحقيقي للدولة المرابطية انقطع إليه - على غرار وفود العلماء على الإذريسين - من جزيرة الأندلس " من أهل كل علم فحوّله، حتى أشبهت حَضْرَتُهُ حَضْرَةَ بني العباس في صدر دولتهم (...) واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"⁹. وفي ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين "بلغ الفقهاء في أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمراء المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته؛ فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم"¹⁰.

ولا شك أن هذا الأمير الذي "جرى على سنن أبيه"¹¹ قد اتخذ مجالس علمية سلطانية من الفقهاء، وكانت هذه المجالس العلمية فقهية؛ إذ "اشتد إثارة لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء"¹². ولا أدل على ذلك مما يحكيه صاحب المعجب؛ حيث يقول: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عِلْمِ عِلْمِ الفروع - أعني فروع مذهب مالك - فنَفَقَتْ في ذلك الزمان كتب المذهب وعُمِلَ بمقتضاها ونُبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء"¹³.

9 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647هـ)، مرجع سابق، ص 121.

10 - المصدر نفسه، ص 115.

11 - المصدر نفسه، ص 121.

12 - المصدر نفسه، ص 121.

13 - المصدر نفسه، ص 122.

ويشهد لتمسك المرابطين - وخاصة أمير المسلمين أبا الحسن علي بن يوسف بن تاشفين - بمذهب مالك وعلم فروعه قصة إحراق كتب أبي حامد الغزالي لما دخلت إلى المغرب، وما كان من الوعيد الشديد إلى من وُجدَ عنده شيءٌ منها¹⁴.

من خلال هذا الأمير أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين نجزم بأن المرابطين كانوا من أشد الحكام تمسكا بمذهب مالك وعلم فروعه، كما كانوا أكثر عناية بالفقهاء واهتماما بشأنهم العلمي والمالي واتساع مكاسبهم، كما نجزم بأن مجالسهم العلمية السلطانية كانت فقهية، يحضرها الفقهاء خاصة. غير أن تقريريهم الفقهاء منهم وعنايتهم بهم لم يمنع من اتخاذ أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين - مثلاً - أعيان الكتاب من أهل اللغة والبيان، أمثال: أبي القاسم بن الجدد المعروف بالأحذب، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبي عبد الله بن أبي الخصال وأخيه ابن مروان.

إن المجالس العلمية السلطانية سواء على عهد يوسف بن تاشفين أو على عهد أبي الحسن علي ابن يوسف - مثلاً - قد كانت داعمة وفاعلة، وذلك لما يلي:

- اتخاذها هيئة استشارية للتشاور في القضايا السياسية والعسكرية والاقتصادية والنظامية.
- قيامها بوظائف الإمامة والخطابة والقضاء والولاية والإفتاء والتنظيم كما في عهد الأدارسة... إلخ.
- الاهتمام بالعلماء والعناية بهم، وتشجيع البحث والدراسة والمشاركة.
- ضمُّها علماء مغاربةً وأندلسيين.
- تمسُّكها بمذهب مالك دون غيره، مع التركيز على علم الفروع.
- إسهامها في القضايا الخاصة بالتدبير للشأن العام.
- تميز القضاء بالجماعي، إذ كان يعهد إلى القاضي بأن لا يقطع في أمر أو بيت فيه إلا بمحضر أربعة من الفقهاء.

الدولة الموحدية:

بالانتقال إلى الدولة المصمودية الموحدية نجد المصادر تتحدث عن مجالس علمية سلطانية نظامية، سواء في الحضر أو السفر، وتحدث كذلك عن مجالس علمية سلطانية تُعنى بأمور الدين

14 - المصدر نفسه، ص 122.

والدنيا، وتشارك في إدارة دفة الحكم وتدبير الشأن العام. قال صاحب المعجب: "بلغني من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المومن يوما، فذكروا تعذر الصرف، فقال يحيى: أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة، وعبيدي في كل يوم يشكون إلي ما يلقون من ذلك، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف - وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب¹⁵، فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بيعاتهم - فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس أتبعه عبد المومن ثلاثة أكياس صُرُوفٌ كُلُّهَا"¹⁶.

هذا مجلس من المجالس السلطانية اختص - بحسب كلامه هنا - بالذاكرة في الشؤون العامة، وضبط أمور الرعية، لم يوصف شكله، ولم تحدد طبيعته، ولم يذكر أنه كان مجلسا حديثا أو تفسيريا أو فقهيا أو غير ذاك.

وفي سياق آخر يقدم لنا عبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647هـ) نصا يصف نظام المجالس العلمية السلطانية الموحدية بشيء من التفصيل والتوضيح، لكنه لم يبلغ درجة وصف ابن زيدان لنظام المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة كما سيأتي. قال المراكشي: "وقد جرت عادتهم¹⁷ بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرته من أهل كل فن، وخاصة أهل علم النظر، وسموهم طلبة الحضر، فهم يكثرُونَ في بعض الأوقات ويقلون، وصنف آخر ممن عُنيَ بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين، ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم، فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه؛ كان عبد المومن ويوسف ويعقوب يُلقُونَ المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء، يدعو الخليفة ويؤمُّنُ الوزير جهرا يُسمعُ مَنْ بَعْدَ من الناس، ثم إذا سافروا لا يزال القرآن يقرأ من بين أيديهم بالغدو والعشي ركبانا، وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاة الفجر، أن يخرج من ينادي: "الاستعانة بالله والتوكل عليه! هذه عندهم للركوب، فحينئذ يركب الناس، ويخرج الخليفة من خيمته راكبا وأعيان القراية وأشياخ الموحدين بين يديه مشاة خطوات كبيرة، ثم يأمرهم بالركوب، فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه، فيقرؤون حزبا من القرآن، في نهاية الترتيل وهم سائرون سيرا

15 - لا يستبعد أن يكون تجزيء الحزب القرآني في الكتابات إلى (خراريب) تسهيلا للحفظ والتعلم قد أُخذَ من هذا التجزيء للدرهم.

16 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647هـ)، مرجع سابق، ص 145.

17 - العادة هنا: معناها النظام.

رفيقا، ثم شيئا من الحديث، ثم يقرؤون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضا وبسط يديه ودعا، وإذا كان وقت النزول أيضا نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته، فإذا بلغها بسط يديه ودعا، فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفره كله¹⁸.

هذا أول نص تاريخي - بحسب بحثي المتواضع - يصف لنا نظام المجالس العلمية السلطانية التي دأب عليه خلفاء الموحدين في سفرهم وحضرهم، وظعنهم وإقامتهم؛ إذ يقدم لنا عبد الواحد ابن علي المراكشي - وهو مؤرخ الدولة الموحدية - في سياق تحول وتطور للمجالس العلمية السلطانية توصيفا لبعض من الجوانب الشكلية، ولبعض كذلك من جوانب المضمون. ومن ثم، ومن خلال نص المراكشي يمكن القول بأن المجالس العلمية السلطانية دُعِمَت في عهد الموحدين الحركة العلمية، وفَعَلَت مشروعاتهم الفكري والحضاري، على مستويات عدة، منها:

- استجلاب العلماء إلى الحضرة الموحدية من أهل النظر.
- تكون طبقات العلماء: طلبة الحضر وطلبة الموحدين.
- الرعاية الشخصية للخليفة للمجالس العلمية السلطانية التي كان يحضرها ويتولى رئاستها ومشيختها معا.

- المراسم القارة للمجالس العلمية السلطانية:

- ✓ مناقشة مسائل علمية يلقيها الخليفة بنفسه أو تلقى بإذنه بعد الافتتاح.
 - ✓ الحضور الإلزامي لطلبة الموحدين في كل مجلس يجلسه الخليفة.
 - ✓ دعاء الخليفة في بداية المجلس وفي نهايته، وفي السفر الحركة العلمية.
 - ✓ إثارة أهل العلم مع تقريريهم والعناية بهم.
- فهذا أحد خلفاء الموحدين وهو عبد المومن " كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم¹⁹. ومن دون شك أن الخلفاء من بعده ساروا على سننه.

18 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي المراكشي (ت 647 هـ)، مصدر سابق، ص 245.

19 - المصدر نفسه، ص 142.

الدولة المرينية:

عرفت دولة بني مرين الزناتية بفعل الجهود التي بذلها سلاطينها نهضة علمية، وحضارة وعمرانا، فقد بنوا وشيدوا وجددوا وطوروا؛ إذ "كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة، لا يخرجون عنها أصلا، فخدموا العربية خدمة صادقة، ورفعوا لها منارا عاليا، وكفى أننا لم نعد نسمع بعد توليهم الحكم بشيء من التمييز... والعنصرية المقيتة... وهكذا أيضا كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليما من أي نزعة، خالصا من كل بدعة"²⁰.

في ظل هذا التحول الإيجابي، دينيا ودنيويا، حضاريا وعلميا، عربيا وإسلاميا، سياسيا واجتماعيا، وفدت الوفود - كالعادة - من رجال العلم والأدب، من الأندلس والمغربين الأدنى والأوسط "يؤمنون الحضرة الفاسية حيث يتمتعون في كنف الدولة المرينية بأسنى ما كان يتمتع به رجالات الدول السالفة كالعباسيين والأمويين مما سمعوا به ولم يروه. وكفى بابن خلدون وابن الخطيب وابن الأحمر وابن رضوان وابن مرزوق وابن جزى والمقري وكثيرين غيرهم من العظماء الذين تقيؤوا ظل هذه الحضرة المرينية، وتقبلوا في نعمتها"²¹.

ما كان لأمراء المرينيين وسلاطينهم أن لا يستثمروا هذه الطاقات العلمية من أمثال ابن خلدون وابن الخطيب وابن جزى! وما كان لهم أن لا يستغلوا الفرص للارتواء من حياض العلم، وينابيع المعرفة والحضارة النابعة من إفريقيا والأندلس وغيرهما من البلاد لتصب في بحر المغرب العلمي والمعرفي ليغترف منه أبنائهم ممن حضروا هذه النهضة أو ممن سوف يأتون بعد! أليس ما شيدته المرينيون من مدارس علمية، وما بنّوه من مساجد، وما فتحوه من مكتبات وخزانات أسهم في رفع منار العلم والعرفان بعدهم؟! ثم أليس ما قاموا به من تطوير للبحث العلمي، ونهوض بالثقافة المغربية لاحقا قد مكن من حركة علمية قوية؟!

بلى! لقد كانت الدولة المرينية "في خدمة العلم، بحيث انصرفت الهمم إلى طلبه، واشتد التنافس في تحصيله، فكثر العلماء نتيجة لذلك، وفعلا فإن ما عمله المرينيون في هذا الصدد يجعلهم حريين بلقب دولة العلم الذي يطلقه عليهم بعض المؤرخين"²². كما يجعلهم حريين بوصف الداعمين للعمل الفكري ونشر العلم، وتفعيل أدوار العلماء والكتاب والشعراء، وبوصف البانين

20 - النبوغ المغربي، تأليف عبد الله غنون، دار الثقافة، دت، د ط. 183/1 - 184.

21 - المصدر نفسه، 185/1.

22 - المصدر نفسه، 185/1.

لخضارة مرينية استفادت منها الأجيال، ولا يزال المغرب يستفد منها فنيا وثقافيا وسياحيا وعمرانيا. لقد نهضوا بمشروعهم الفكري والحضاري؛ فبنوا المساجد والمدارس، وأسسوا الرباطات، وأقاموا الأبراج والأسوار، وأنشؤوا المؤسسات العلمية والتعليمية والمكتبية...

المجالس العلمية السلطانية في عهد الدولة المرينية:

استفاد المرينيون من المعارف والعلوم في عصرهم "فكانوا يعقدون المجالس للمناظرة والمحاضرة، ويطرحون الأدباء، ويحاورون الشعراء"²³. فهذا السلطان أبو الحسن بن أبي سعيد "أكثر من مجالسة العلماء والأدباء، ومذاكرتهم ومحدثهم، وكان شديد الإلف لهم، لا يصبر على مفارقتهم، وكل جنس إلى جنسه إلف... وكان السلطان أبو عنان - وما أدراك ما أبو عنان - بن أبي الحسن فقيها يناظر العلماء الجلَّة... ومثل هذا يقال في السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن وولده أبي فارس عبد العزيز"²⁴.

على أي فقد سار سلاطين دولة بني مرين في إقامة مراسم الدولة وتُظْمِهَا "على سَنَنِ لَاحِبٍ"، وطريق واضح، ومنهاج بين. غير أن الصورة أو الشكل الذي كانت المجالس العلمية السلطانية تنظم به في هذا العهد لم أجد فيما بين يدي من مصادر ومراجع وصفا دقيقا لها، كما هو الشأن لدى عبد الرحمن بن زيدان في وصف المجالس العلمية السلطانية في عهد الدولة العلوية الشريفة، شكلا ومضمونا، منهاجا وبرنامجا، مراسم ووقائع، كما سيأتي.

العلماء والعلم في عهد الدولة المرينية:

من المؤكد أن الحركة العلمية في عهد بني مرين قد عرفت نشاطا كبيرا، برعاية الملوك المرينيين أنفسهم؛ وذلك لما كانوا يمتازون به من معرفة وإطلاع، وطلب العلم وتحصيله، والبحث والتعمق فيه. ولما تميز به عصرهم من منافسة وتبار في العالِيَّة والعلم؛ فكثرت العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وغيرهم. وعلى الرغم من ذلك كان ملوك بني مرين أكثر رعاية بالعلماء، وعناية بالعلم والبحث فيه، وكذا الوسائل المساعدة على ذلك، من كتب وخزانات ومكتبات ومدارس لإيواء الطلبة وجرايات عليهم وعلى العلماء خاصة، "ولقد بذُّوا²⁵ بمآثرهم العلمية جميع من تقدم، فمدارسهم الفنية العديدة

23 - المصدر نفسه، 185/1.

24 - المصدر نفسه، 188/1 - 189.

25 - بَدُّوا: بَدَّ يَبْدُو بَدًّا فلانا: عَلَاهُ وَفَاقَهُ، "بَدَّ أَقْرَانَهُ"، و"بَدَّ الْقَوْمَ: غلبهم وسبقهم". (مجانى الطلاب، مادة/ بَدَّ).

لم يستطع أحد أن يأتي بمثلها، وخزائن الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسسوها"²⁶.

وفيما يخص الاهتمام بالعلماء والعناية بهم ورعايتهم "فلا تسئل عن شدة تقريبتهم لهم واختصاصهم بهم...، وهذا يعني أن الدولة كانت في خدمة العلم، بحيث انصرفت الهمم إلى طلبه، واشتد التنافس في تحصيله"²⁷.

الدولة السعدية:

سأقتصر على دولة المنصور الذهبي الذي امتاز بتكوين علمي راق، وثقافة عالية؛ ذلك بأنه كان "مجدداً في تثقيف نفسه ثقافة عالية، ومهتماً بتنمية مداركه إلى أبعد الحدود، فكان لا ينقطع عن الدرس وتحصيل العلوم ومدارستها، ومن أجل ذلك اتخذ لنفسه شيوخاً متمكنين ضليعين في المواد التي كان يريد أن يدرسها ويلم بها. كالحديث والتفسير والأدب والتاريخ"²⁸.

ولشغفه بالعلم وتحصيله، ولزيادته من المعارف، والتعمق والتوسع في العلوم، لم ينكفئ على ذاته، ولم يركن إلى خاصة نفسه، بل "ربط صلات ثقافية مع العلماء والأدباء والشعراء والأطباء... وغيرهم داخل المغرب وخارجه، ونشطت المراسلات الثقافية بينه وبين هؤلاء جميعاً"²⁹.

مجالسه العلمية:

يذكر عبد العزيز الفشتالي في مناهل الصفا قيام السلطان أحمد المنصور على علوم جمّة ورسوم قدمه فيها، فـ "أقدرته الملكة بها أيده الله على فهم سائر العلوم والاضطلاع بها، معقولها ومنقولها، أصولها وفروعها، قديمها وحديثها، يقتاد العويس منها والسهل بزمام إدراكه ونفوذه"³⁰. قرأ على شيوخ كثير، من جهابذة العلم والمعرفة، أمثال: الفقيه الأصولي النحوي العددي الفرضي أبي الربيع سليمان بن إبراهيم، والفقيه أبي عمران موسى السوسي، والفقيه الأستاذ نحوي زمانه أبي العباس

26 - النبوغ المغربي، تأليف عبد الله كنون، مصدر سابق، 185/1.

27 - المصدر نفسه، 185/1.

28 - احتفالات أحمد المنصور الذهبي بالمواسم والأعياد، للأستاذ عبد القادر العافية: دعوة الحق، العدد: 2-3، ص 20، 1979، ص 75.

29 - المصدر نفسه، ص 75.

30 - مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي، دراسة وتحقيق د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ص 265. (كتاب إلكتروني).

أحمد القدومي، والفقيه المتفنن الدراك الفهامة أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الشريف، واللائحة طويلة³¹.

وإذا كان المنصور قد قرأ على هؤلاء الشيوخ وغيرهم مُخْتَلَفَ العلوم والكتب فإنه "كان أيضا يتعاطى أيده الله بمحضر الملا من الفقهاء والعلماء الذين يجمعهم للتحقيق في مجلسه الكريم للمذاكرة بمراكش وفاس وفي بعض حركاته السعيدة كُتِبَ جَمَّةٌ، فمنها ما يقرأ متنه ومنها ما يرجع إليه نقلا ومطالعة"³².

هذا يؤكد أن المنصور الذهبي اتخذ المجالس العلمية السلطانية نظاما رسميا، "وعقد بقصوره كثيرا من المجالس العلمية والأدبية، كان يشارك فيها بنفسه مشاركة عالم متمكن، وكان في نفس الوقت يستفيد من الملاحظات والتدخلات وتقارير العلماء في القضايا المبسطة"³³.

كما كانت تنظم مجالس علمية خاصة أو ندوات علمية، من حين لآخر إما بمناسبة قدوم عالم من بلاد بعيدة وإما بمناسبة ما يثار من قضايا كانت تشغل بال الناس في ذلك العصر، وإما بمناسبة احتفالات بمواسم وأعياد، حيث كان يغتنمها فرصا فيجعل منها مواسم ثقافية يتبارى فيها العلماء والأدباء والشعراء، كما كانت تلقى في هذه الأعياد والمواسم دروس في الحديث والتفسير أو غيرها، يتخللها أمداح وإنشادات وترانيم³⁴.

إذن، قد عرفت دولة المنصور الذهبي السعدي - في إطار مشروعه الفكري وإشعاعه الحضاري - نشاطا علميا ثقافيا شارك فيه شخصا، سواء عند إقامته بمراكش أو فاس، أو في بعض حركاته، وذلك على مستويات:

- المجالس العلمية السلطانية.
- الندوات الثقافية بمناسبة قدوم عالم أو بسبب إثارة قضايا تخص المجتمع.
- الدروس العلمية في المواسم والأعياد.
- بناء المدارس العلمية.
- إنشاء المكتبات وخزانات الكتب...

31 - انظر: مناهل الصفا، المصدر نفسه، ص 266.

32 - المصدر نفسه، ص 268.

33 - المصدر نفسه، ص 75.

34 - المصدر نفسه، ص 75.

يمكن من خلال هذه الأعمال أن نؤكد أن حركة علمية منصورية خاصة، وحركة علمية سعدية عامة، قد انصهرتا في حركة علمية كبرى جعلت العلماء يأخذون " في إحياء ما اندثر، وجمع ما تبعثر من سالف ذلك المجد العلمي والتاريخ الأدبي؛ فلم تنشب حركة العلوم والآداب أن عاودها النشاط والانتعاش، وخصوصا بعد ما أنست من الملوك السعديين وعلى رأسهم المنصور الذهبي ذلك التعزيد الذي سبقت الإشارة إليه "³⁵.

وهذا يعطي انطبعا عن اهتمام هذه الدولة، بالحركة العلمية، وبالعلم والعلماء، وخاصة أحمد المنصور الذهبي الذي من مآثره "التي اختص بها ولم يُشارك فيها إكرامه للفقهاء، لا سيما الوافدين على مقامه من البلاد الشاسعة، فتعم جميعهم آلاؤه الواسعة، ولذلك تجدهم قد وفدوا عليه من أقاصي الأرض كالشام والعراق ومصر والحجاز وغيرها "³⁶.

المبحث الثاني:

نظام المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة:

ليس من المبالغة القول بأن المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة كانت من أرقى المجالس العلمية بالمقارنة مع غيرها من المجالس العلمية السلطانية على عهود الدول السابقة؛ إذ أولاها الملوك أمراء المؤمنين ما هي أولى به من الاهتمام والعناية والرعاية سواء بالنسبة للمجالس نفسها أو لرؤساء المجالس والشيخ، وللعلماء الكبار الذين كانوا يُستدعون إليها من سائر العواصم.

ويمكن تقسيم هذا العهد إلى قسمين:

الأول: من عهد المولى الرشيد إلى عهد المولى يوسف.

الثاني: من عهد المولى جلالة الملك محمد الخامس إلى عهد المولى جلالة الملك محمد السادس.

القسم الأول: من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية

لقد جاد التاريخ على المغرب والمغاربة بقيام الدولة العلوية الشريفة التي وحدت البلاد، فعم في ظلها الأمن والرخاء منذ قيامها إلى اليوم، وشهدت البلاد الاستقرار على طول التاريخ لهذه

35 - النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، دار الثقافة، دت، ط 1، 239/1.

36 - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد بن محمد المقرئ، ط (2)، 1403هـ - 1983م، المطبعة الملكية - الرباط، ص 15.

الدولة، أدامها الله، وأبقى فيها الملك وإمارة المؤمنين، وكتب لسائر نُظُم القصر العامر بالرباط كامل التوفيق والسداد والرشاد، تحت الرعاية السامية لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أدام الله عزه ونصره، ومن بين هذه النُظُم نظام الدروس الحسنية الرمضانية.

التدبير العلمي

الزمان والمكان:

تَحَيَّرَ الملوكُ أمراء المؤمنين في عهد الدولة العلوية الشريفة الأشهر الثلاثة: رجب، شعبان، رمضان، من السنة بصفة رسمية قارة؛ لعقد المجالس العلمية السلطانية، وإقامة مراسمها. وكان ذلك نظاماً من نُظُم القصر السلطاني، وعادةً محكمةً في حلهم وترحالهم، وفي هذا الصدد يقول صاحب (العز والصولة في معالم نُظُم الدولة) عبد الرحمن بن زيدان في عنوان متميز: "نظام الاحتفال بقراءة صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث والتفسير في الأشهر الثلاثة (رجب، شعبان، رمضان)"³⁷.

ولما كان الاحتفال بقراءة صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث والتفسير من الأهمية والتعظيم والإجلال، تحيروا هذه الأشهر لموقعها بين شهور السنة؛ فرجب شهر من الأشهر الحرم، ورمضان شهر الصيام والقيام، والرحمة والغفران، وشعبان بينهما؛ إذ فيه ترفع الأعمال إلى رب العالمين كما ورد في الحديث الشريف.

المواد العلمية:

كانت المواد التي تَحَيَّرَتْ مضمونا علمياً يُلقَى بحضرة السلطان: صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث، وكتب التفسير، وهذا مؤشر كبير على مدى حب حديث رسول الله، ومكانة صحيح البخاري لدى الملوك وسلاطين الدولة العلوية الشريفة، ومنزلة تفسير القرآن العظيم في هذه الأشهر، وبخاصة في شهر رمضان الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾³⁸. يقول عبد الرحمن بن زيدان: "اتخذ ملوك هذه الدولة"³⁹

37 - العز والصولة في معالم نُظُم الدولة، لمولاي عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق، 1/177.

38 - سورة البقرة، الآية: 184.

39 - يقصد الدولة العلوية الشريفة.

العَلِيَّة سرّد صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري وغيره مما ذكر في الأشهر المذكورة وغيرها منذ نشأت عادة محكمة⁴⁰ في ظعنهم وإقامتهم⁴¹.

برامج المجالس العلمية السلطانية:

تتكون برامج المجالس العلمية السلطانية للأشهر الثلاثة من أَنْصِبَةٍ تضمها وثائق بيداغوجية يعبر عنه بـ (أوراق البرنامج)، تتوزع على كل شهر من الأشهر الثلاثة مفرداتها (أَنْصِبَتُهَا)؛ حيث تُخَصَّرُ وتُضَبَّطُ بدقة كبيرة. قال ابن زيدان: "والأنصبه التي تقرأ محصورة لا يزداد فيها ولا ينقص، وإليكم بيان الأنصبه وما يقرأ كل يوم منها طبق أوراق البرنامج"⁴².

1- برنامج شهر رجب:

"الحمد لله، عدد أنصبه الإقراء بالحضرة العالية بالله من هذا السفر الشريف المبارك الذي هو أول أسفار النسخة المولوية من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه ونفع ببركاته ءامين، وقيدت بمكناسة الزيتون في رجب الفرد الحرام عام 1301هـ.

النصاب الأول: من الأول إلى كتاب الإمام...

النصاب التاسع: وجوب الزكاة إلى سقاية الحاج. وورقاته من هذا السفر ومن الثاني الذي يليه..."⁴³

وعدد أنصبه شهر رجب، أو برنامج شهر رجب تسعة أنصبه، وهو السفر الأول من النسخة المولوية وبعض من السفر الثاني، أي من أول الكتاب إلى سقاية الحاج.

2- برنامج شهر شعبان:

"الحمد لله، عدد أنصبه هذا السفر الشريف المبارك وهو الثاني من أسفار النسخة المولوية من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه ونفع ببركاته ءامين، وذلك بحسب الإقراء بالحضرة العالية المصونة بالله، وقيدت بمكناسة الزيتون في رجب الفرد الحرام عام 1310هـ.

40 - عادة محكمة: يقصد بها: نظام محكم يقوم على أسس وقواعد ومبادئ.

41 - العز والصلوة في معالم نُظُم الدولة، عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق، 1/177.

42 - المصدر نفسه، 1/179.

43 - المصدر نفسه، 1/179.

النصاب الأول: سقاية الحاج إلى فضائل المدينة...

النصاب السابع: باب الجهاد بإذن الأبوين إلى رأس السفر الثالث وهو كتاب بدء الخلق⁴⁴.

وعدد أنصبه شهر شعبان، أو برنامج شهر شعبان سبعة أنصبه، وهو السفر الثاني من النسخة المولوية، أي من "سقاية الحاج" إلى "كتاب بدء الخلق"، وعدد ورقات الأنصبه/ البرنامج 190 ورقة⁴⁵.

3- برنامج شهر رمضان:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم، هذا برنامج الجزء الثالث من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنه.

النصاب الأول: كتاب بدء الخلق إلى قول الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ - آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾⁴⁶...

السادس: من حديث كعب بن مالك إلى سورة الأنعام...⁴⁷

وعدد أنصبه شهر رمضان، أو برنامج شهر رمضان ستة أنصبه، أي من "كتاب بدء الخلق" إلى "قوله عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾".

وتأكيدا على تقرير هذه البرامج الثلاثة، أو مقررات المجالس العلمية السلطانية في عهد الدولة العلوية الشريفة، وعلى أنها كانت تنجز بالفعل ولا تعطل مهما كانت الظروف إلا في يومي الخميس والجمعة من الأسبوع، ذكر عبد الرحمن بن زيدان ما يؤكد إنجاز هذه البرامج واستقرار العمل بها، حيث قال: "صح من كناشة القاضي أبي العباس أحمد بن الطالب بن سودة شيخ المجلس السلطاني، قال: وعلى هذا استقر عمل سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يعني مولاي الحسن مدة تنيف على العشر سنين في سرده لصحيح الإمام البخاري في الثلاثة الأشهر أنه يقرؤه في ستة وثلاثين نصابا هـ.

وقد قوبل على ما هو محتفظ به من أوراق برنامج الأنصبه السلطانية المنتسخة من النسخة التي كانت معدة لقراءة الجلالة السلطانية المحتفظ بها في المكتبة الزيدانية فألفت موافقة لما ذكر من غير

44 - المصدر نفسه، 1/ 180.

45 - انظر: المصدر نفسه، 1/ 180.

46 - المصدر نفسه، 1/ 180.

47 - المصدر نفسه، 1/ 180-181.

زيادة ولا نقصان، ولا تعطل القراءة سفرا ولا حضرا، إلا في يومي الخميس والجمعة، وعلى هذا كان العمل جاريا من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية⁴⁸.

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام بالعلم والعلماء، وتشريف حديث رسول الله ﷺ. كما يدل على تنشيط الحركة العلمية والثقافية، وتفعيل النظام المجالسي، والحياة العلمية داخل القصر الملكي؛ وذلك في إطار دعم ملوكي علمي وتفعيل للمشروع الفكري الحضاري.

هيكلية وبنية المجلس العلمي السلطاني:

تشمل بنية المجلس العلمي السلطاني:

- أمير المؤمنين جلالة الملك.

- رئيس المجلس العلمي السلطاني.

- شيخ المجلس العلمي السلطاني.

- علماء سرد الحديث.

- علماء التقرير والمناقشة.

هذه هي العناصر الأساسية لبنية المجلس العلمي السلطاني من دولة المولى الرشيد إلى دولة المولى يوسف. وبالإضافة إلى بنية المجلس يكشف النص الزيداني عن صورة توضح سير عمليات إنجاز النصيب المحدد من الأنصب التي تقرأ، وتتمثل تلكم العمليات في: سرد الحديث يقوم به سَرَّادٌ لا شك أنه يمتلك مهارة السرد، ثم مذاكرة الملك علماء المجلس في حديث من الأحاديث وصفة هذه المذاكرة، ثم تقرير شيخ المجلس في المسألة موضوع المذاكرة، حيث يسلم له أو يناقش فيها من طرف غيره من العلماء.

منهج درس المجلس العلمي السلطاني العلوي:

تتمثل منهجية إنجاز درس المجلس العلمي السلطاني في العمليات الإجرائية أو الخطوات الأساسية التالية:

* سرد النصيب الذي يقرأ.

48 - المصدر السابق، 181/1 - 182.

* مذاكرة الملك العلماء في الحديث الذي يقرأ.

* تقرير شيخ المجلس العلمي السلطاني في المسألة موضوع المذاكرة.

* مناقشة المسألة وإبداء الرأي فيها.

* كتابة كل ما يظهر في المسألة إن احتيج إلى الكتابة.

قال ابن زيدان: "وينقسم علماء المجلس إلى قسمين: قسم للسرد، وقسم للتقرير، والعادة أن السلطان إذا شاء المذاكرة في حديث من الأحاديث يطوي الكتاب الذي بيده، ويرفع رأسه، فيشرع شيخ المجلس في التقرير، فإن أصاب وسلم له فتح السلطان كتابه وتمادى السرد على السرد وإلا ناقشه غيره وأبدى ما لديه، وهكذا إلى أن يتضح الأمر ويرتفع كل إشكال، وربما أرجئ تحرير المسألة إن تفرعت ذيلوها إلى الغد، وربما كتب كل ما ظهر له فيها"⁴⁹.

التدبير الإداري والاجتماعي:

بالطبع - ونظرا لموقع المجلس العلمي السلطاني - كان الملوك " يختارون لحضور تلك المجالس أعيان محققين علماء الدولة من سائر العواصم "⁵⁰. كانوا يختارون العلماء الذين يُشْهَدُ لهم بالمكانة العلمية، وبالمستوى العلمي المتخصص؛ إذ كانت مهمة العالم المشارك جسيمة، ومن ثم لا بد أن يكون من أهل الدراية والتحقيق والإمام والتبحر والتعمق والتمكن والقدرة على النقاش والمناظرة والاستدلال والاستنباط.

تكريم العلماء المشاركين والعناية بمقامهم:

لما كان حضور العلماء المجالس العلمية السلطانية يتطلب الإقامة الطيبة، والتغذية المناسبة، وغيرها من الأمور التي تضمن لهم الأجواء والظروف المناسبة للبحث والمطالعة والدراسة، والحضور الفكري والعلمي، تم السهر على توفير كل ما يحتاجون إليه من نقل وصائر وسكنى، فكان "يؤمر أمناء الصائر من كل عاصمة بأداء ما يحتاج إليه السفر لمن عين من علمائها للحضور مع السلطان من يوم مبارحتهم البلاد إلى أن يلحقوا به، وتُعَيَّنُ لهم الدُّورُ لنزولهم، والبغالُ لركوبهم للذهاب والإياب للقصر السلطاني مدة القراءة، وتجري عليهم النفقة الكافية لهم ولأصحابهم الذين يأخذون بأيديهم، وعلف دوابهم مدة مقامهم مع الجلالة السلطانية، زيادة على المنح والصلوات "⁵¹.

49 - المصدر نفسه، 178/1.

50 - المصدر السابق، 177/1.

51 - المصدر نفسه، 177/1.

إذن، كان العلماء الذين يحضرون المجالس العلمية السلطانية يحظون بالرعاية الكبيرة التي كان الملوك منذ ظهور الدولة العلوية الشريفة إلى يومنا هذا يولونها لهم، وقد حظوا كذلك بالعناية الفائقة، وبالحظوة العالية لديهم؛ فهم من سلف إلى خلف ما زالوا ولا يزالون يكرمون العلماء ويحلُّونهم المنزلة الرفيعة، أدام الله ملكهم.

ويؤكد صاحب العز والصولة على ذلك بقوله: "والعادة أن علماء المجلس السلطاني الحديثي إذا فرغوا من قراءة الدرس وجدوا طعام الغذاء والفقور ميسرا بصحن المسجد، فإذا أكلوا وشربوا انصرفوا لمَحَاهُم، وذلك في رجب وشعبان، أما في رمضان فبعد القراءة ينصرف كل لمحله"⁵².

ابتداء دروس المجالس العلمية السلطانية والانتهاؤها منها خلال كل سنة:

تحدث المصادر عن زمان ومكان انعقاد المجالس العلمية السلطانية بصفة قارة ومستقرة على هذا العهد، وقد سبق ذكر ذلك. أما انتهاؤها فيتم في ليلة السابع والعشرين من رمضان، أي ليلة القدر، ويصادف الاحتفال بالانتهاء منها الاحتفال بليلة القدر، قال المراكشي: "وتنتهي تلك المجالس في ليلة 27 من رمضان، وفي ذلك اليوم تجزل لهم الصلوات والعوائد وتقدم للجلالة بنات أفكار شعراء دولته وكتابها مهتئة بختم الدروس الحديثية فيجازي كلا بما يستحق، وبعد انتهاء أيام العيد يغمر أولائك العلماء بضافي النعم، وتنفذ لهم ولذويهم الكساوى، وتقضى سائر مطالبهم، ويؤمر أمناء الصائير بتنفيذ كل ما يحتاجون إليه من ضروريات السفر حقيرة أو جليلة، وينقلون إلى أهلهم مسرورين متأبطين لمكاتيب الإنعمات، وإيضاء العمال الذين يمرون بترابهم بإكرام ضيافتهم والإحسان إليهم والبرور بهم"⁵³.

التدابير والإجراءات اللازمة لانعقاد المجالس العلمية السلطانية:

من التدابير اللازمة لذلك ما يلي:

* المراسلات لتعيين العلماء للمشاركة في المجالس العلمية السلطانية.

* إعداد البرنامج / الأنصبة المحددة خلال كل شهر.

* إجراءات التنظيم والتسيير.

52 - المصدر نفسه، 183/1.

53 - المصدر نفسه، 183/1.

هكذا كان العمل الخاص بالمجالس العلمية السلطانية، زماناً ودروساً وأنصباً وتنظيماً وتديباً ومنهجيةً من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية؛ إذ يُعَلِّمُنَا بهذا ابن زيدان؛ حيث يقول: "وعلى هذا كان العمل جارياً من لدن الدولة الرشيدية إلى أواسط الدولة اليوسفية"⁵⁴.

فما ذا عن دولة جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه إلى عهد المولى جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره؟

القسم الثاني: من لدن دولة جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه إلى عهد المولى جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره.

لا يخفى على أحد أن المغرب منذ مولاي عبد الحفيظ وعلى عهد مولاي يوسف وسيدي محمد الخامس إلى 1956م كان يزرع تحت نير الاستعمار الغاشم، وكان الوضع السياسي والاجتماعي مضطرباً بسبب الأحداث المقلقة، وبسبب المقاومة وثورة الملك والشعب ضد الاحتلال الذي أذاقه القصر والشعب المرارة والحزن، فلم يعيش يوماً بل ساعة استقراراً أو هدوءاً، منذ فرض الحماية التي تحولت إلى استعمار بغض. ولكن على الرغم من ذلك لم تتوقف الحركة العلمية وكذلك المجالس العلمية السلطانية عن العمل وإلقاء الدروس في الحل والترحال، وفي الظعن والإقامة، وفي السفر والحضر، غير أنه وقع الاقتصار في الدولة المحمدية⁵⁵ "على القراءة في خصوص شهر رمضان"⁵⁶. ثم جرى العمل على هذا في عهد الملك الراحل الحسن الثاني تغمده الله بواسع رحمته، ثم جاء جلالة الملك محمد السادس أطال الله عمره فسار على نفس النهج.

ولعل ذلك يرجع إلى التطور والتحول في الإيقاع العام للنشاط الملكي وزيادة المهام والتحركات من زيارات واستقبالات ملكية، ومحادثات سياسية، وتفقد لأحوال الرعية عبر الأقاليم والعمالات والجهات، والاتصالات على المستويين الداخلي والخارجي، والتفكير في القضايا الكبرى، ومعالجة الملفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خاصة، وحل المشاكل؛ إذ لم يبق متسع من الوقت أمام هذه القضايا الوطنية ذات الأولوية، وتدبير الشأن العام.

وإن جلالة الملك محمد السادس "نصره الله وأيده أبى إلا أن يبقى لهذه الدروس نسبتها إلى جلالة والده المنعم الحسن الثاني طيب الله ثراه وأكرم مثواه اعترافاً بما قدمه للمغاربة خاصة

54 - المصدر نفسه، 182/1.

55 - نسبة إلى جلالة الملك محمد الخامس غفر الله له.

56 - العز والصولة في معالم نظم الدولة، عبد الرحمن بن زيدان، مصدر سابق، 182/1.

وللمسلمين عامة من تثيت لعقيدة الإسلام في نفوسهم وتركيز للأخلاق الكريمة السمحة في سلوكهم وتدعيم للأمن الروحي في حياتهم"⁵⁷. وذلك لأن الدروس الحسنية "تعتبر ميزة و ظاهرة ينفرد بها المغرب الكريم، حيث يحضر تلك الدروس صفوة من ألع وكبار علماء المغرب والعالم الإسلامي، ويتشرفون بإلقاء دروس دينية من ذلك المنبر الحر أمام الحضرة (المحمدية)، انطلاقاً من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، مما يكسو المجلس جلالاً وجمالاً، وبهاء ووقاراً، ويجعل النفوس المؤمنة المطمئنة تتطلع إلى مشاهدتها وتشوف إلى الاستماع لها، وترتاح إلى الاستفادة منها"⁵⁸.

الدروس الحسنية الرمضانية في رحاب القصر الملكي العامر:

أولاً: برامجها:

يتكون برنامج الدروس الحسنية الرمضانية أو مقررهما من دروس تتناول في شكل محاضرات " بالشرح والتحليل والبيان والتفصيل تفسير آيات من كتاب الله العزيز، وشرح أحاديث من سنة رسوله المصطفى الكريم في عرض وتناول عميق مستفيض، واستنباط دقيق لتوضيح ما تتضمنه تلك الآيات والأحاديث من أحكام شرعية ومقاصد سامية لمبادئ ديننا الإسلامي الحنيف، وسمو شرعه الحكيم ومكارم أخلاقه الفاضلة"⁵⁹.

ويتجدد في كل سنة برنامج الدروس الحسنية؛ إذ تُعدُّ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية كل سنة برنامجاً جديداً يختلف عن برنامج السنة السابقة، ويأتي هذا التجديد وخاصة في المضمون استجابة لما تمليه الحاجة من تناول قضايا تهم المجتمع أفراداً وجماعات، ومن انفتاح على الفكر الإنساني في كل مجال، وهذه ميزة حسنة تتميز بها الدروس الحسنية الرمضانية.

ثانياً: مضامين الدروس الحسنية:

لئن اختصت المجالس العلمية السلطانية سابقاً بقراءة صحيح البخاري موزعاً إلى أنصبة في مدة ثلاثة أشهر بحضور نخبة من العلماء فإن مضامين الدروس الحسنية الرمضانية تتناول قضايا وإشكالات ومواضيع تُعنى بالدين والفكر والاجتماع والكون والإنسان والاقتصاد والتشريع والتربية والتعليم...

57 - المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدروس الحسنية، 1420هـ (1999-2000)، تقديم للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، ص 6.

58 - المصدر نفسه، الدروس الحسنية، 1411هـ، ص 5-6.

59 - الدروس الحسنية لعام 1386هـ، تقديم وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، مطبعة فضالة، ص 5.

وإذا كانت الدروس الحسنية الرمضانية قد تميزت بسمو مضامينها، ونوعية معارفها، فإنها هي قبل كل شيء من التقاليد العلمية والسنن الحميدة التي تمسك بها جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني "إحياء لسنة أجداده المنعمين، واقتداء بأسلافه الكرام الميامين، فحافظ عليها رحمه الله وبلغ الغاية في العناية والاهتمام بها، وجدد في شكلها ومضامينها وتوجيهها، وبث فيها من خلال مشاركته الفعلية قبسا جديدا من عبقريته المتفتحة وروحه الدينية وقدرته الفائقة على معالجة دقائق العلوم وطرق أبواب الاجتهاد بفكر نير وذكاء لامع، وإحاطة علمية واسعة، بعلوم الدين وأصوله وفروعه، معقولة ومنقولة"⁶⁰.

ثم جاء الملك الشاب الباني المربي العالم المفكر جلالة الملك محمد السادس أطال الله عمره، فنهج نفس النهج الذي سلكه والده مولاي الحسن الثاني وجده المولى محمد الخامس تغدهما العلي القدير برحمته وأسكنهما فسيح جنانه، حيث تمسك بجلالته بهذه السنة الحميدة، وأحاط الدروس الحسنية الرمضانية بفائق العناية، وكريم الرعاية "وقد تشرفت صفوة من خيرة العلماء والمفكرين المسلمين من مختلف أقطار العالم بالمشاركة في إلقاء هذه الدروس متناولين بالبحث والتحليل قضايا وهموم الأمة الإسلامية من موقعها في عالم اليوم"⁶¹.

ثالثا: منهجية الدروس الحسنية:

مهما تنوعت مضامين الدروس الحسنية في هذا العهد المبارك لجلالة الملك محمد السادس نصره الله وفي عهد المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني فإنها تنطلق "من نص آية قرآنية أو حديث نبوي شريف، يكونان موضوع الشرح والتبيين، ويعمل فيه الباحث آليات الاستقراء والاستنباط، مستخرجا من أحكامه وحكمه، ومقاصده ومراميه، ما يبرز شمائل هذا الدين الإسلامي الحنيف ومزاياه وحقائقه، ومبادئه السمحة"⁶². وتتمثل - بناء على ذلك - منهجية هاته الدروس التي تلقى بين يدي أمير المؤمنين في العناصر التالية:

- تلاوة آيات بينات من الذكر الحكيم يتلوها كبار المقرئين المدعوين من داخل المغرب وخارجه قبل الافتتاح.

60 - المصدر نفسه، ص 5-6.

61 - الدروس الحسنية لعام 1429هـ، تقديم وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، أحمد التوفيق، مطبعة فضالة - المحمدية، الطبعة الأولى، 1430هـ-2009م، ص 5.

62 - المصدر نفسه، ص 5.

- الإعلان عن درس اليوم: الأستاذ الملقى، موضوع الدرس، الآية أو الحديث الشريف منطلق الدرس.

- الإذن من جلالة الملك الذي يترأسها فعليا في الانطلاق.

- مقدمة أو مدخل للدرس.

- الشرح والتبيين.

- الدعاء لأمير المؤمنين ولأفراد أسرته الشريفة.

- الختم من مولانا أمير المؤمنين.

هذا، مع افتتاح وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدروس الحسنية الرمضانية المباركة بصفة رسمية. ثم يتعاقب العلماء على إلقاء الدروس وفقا لبرنامجها المعد سلفا.

العلماء المشاركون في الدروس الحسنية الرمضانية:

من أبرز العلماء الذين شاركوا في الدروس الحسنية الأساتيد المشايخ: الحبيب بلخوجة، ومحمد سعيد رمضان البوطي، وصبحي الصالح، وسيد طنطاوي، ومحمد بن أحمد الأزرق، وعبد السلام جبران المسفيوي، وعلال الفاسي، وأحمد التوفيق، وسعيدة أملاح...

وسبقت الإشارة إلى العلماء الذين يحضرون الدروس الحسنية الرمضانية بصفته مشاركين أو ضيوفا، هم نخبة من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفقهاء والمفسرين والمحدثين... من دول عربية وإسلامية، شقيقة وصديقة، ومن مختلف الأقطار والديار، هم الصفوة ممن يتبوؤون الخطوة العالية، والمنزلة الرفيعة، في العلم والمعرفة، هم ممن يُشهد لهم على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.

هذا، وإن الدروس الحسنية "منقبة من المناقب الحميدة، ومكرمة من المكارم الحسنة، التي دأب عليها جلالته منذ أن قلده الله أمر هذه الأمة المغربية، وحافظ بها على سُنَّة من سُنَنِ أجداده المنعمين.

وهي تبرز جانبا من جوانب العناية الفائقة التي يوليها أعزه الله لشؤون الدين في هذا البلد الأمين وغيره من بلاد المسلمين، وتعتبر تكريما للعلم والعلماء، وتشجيعا لهم على القيام برسالتهم العلمية، وفتحاً للقلوب، وتنويراً للأفكار والأذهان المتشوفة إلى المزيد من العلم والعرفان، وإدراك فضائل الدين الإسلامي الحنيف ومحاسن شريعته السمحة الغراء"⁶³.

63 - المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدروس الحسنية، 1411هـ، تقديم للدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، ص 5.

خاتمة:

تعتبر المجالس العلمية السلطانية واحدة من المؤسسات أو الأجهزة الهامة، أخذ بها الأمراء والملوك الذين تعاقبوا على الحكم من الدولة الإدريسية حتى الدولة العلوية الشريفة، وقد أخذت هذه المجالس في تاريخ لاحق - بفعل التطور والتجدد - طابع النظام الذي أصبح واحدا من نظم القصر.

هذا - طبعا - مع اختلاف في المصطلح والمفهوم، ومع بعض من التطور في الشكل والمضمون، إذ لا يشك أحد أن جلوس السلطان إلى النخبة والوجهاء اختلف من دولة إلى أخرى، ولا يمكن أن نتصور أن مجالس الأدارسة هي نفسها مجالس المرابطين، ثم الموحدين والمرينيين والسعديين فالعلويين، أو أن مجالس علمية سلطانية على عهد دولة هي نسخة مجالس على عهد دولة أخرى، لكن لا ننفي أن هنالك تشابها ما بين هذه أو تلك.

ومهما يكن شكل تلك المجالس ومضمونها في عهد أي دولة، ومهما حدث من تغير في المصطلح فإن الدروس الحسنية في العصر الحاضر هي سنة حميدة ومعلمة علمية ثقافية مغربية، كما أصبحت مؤسسة كبرى يؤمها العلماء والمفكرون والمثقفون من كل أنحاء العالم، حيث يستدعون إليها لإلقاء دروس بحضرة الجلالة المحمدية؛ فاتخذت طابع مؤسسة كونية لها نظامها الذي يستند إلى مقومات تتعلق بالتدبير والتنظيم، كما يستند إلى برنامج للدروس ومنهجية أو خطة لإلقائها.

ومما تميزت به الدروس الحسنية في الوقت الحاضر:

- إشراك المرأة المغربية العاملة في إلقاء الدروس بحضرة جلالة الملك محمد السادس أيده الله؛ إذ قد تمكنت المرأة من المشاركة الفعالة فيها؛ فأضفت عليها جدة وحدثا، وأثبتت للعالم على عهد جلالة الملك حفظه الله ورعاه وسدد خطاه أن للمرأة العاملة في المغرب دوراً ريادياً في النهوض بالمجتمع والارتقاء به إلى مصاف المجتمعات الراقية.

- برنامج الدروس الحسنية الذي يتجدد كل عام؛ حيث تتناول هذه الدروس مواضيع مختلفة تتعلق بمختلف القضايا، وبما يستجد على الساحة الوطنية والعالمية.

- مشاركة أعلام وأقطاب من أهل العلم، ومن ذوي التخصصات العالية، من بلدان مختلفة تنتمي إلى قارات العالم، وإلى جامعات عليا، ومراكز علمية شهيرة...

ونظرا لذا وذاك "فقد أصبحت لهذه الدروس مكانة إسلامية، واكتست شهرة عالمية، وصارت قبلة الأنظار ومحط الاهتمام كلما أقبل رمضان، تمثل إشعاعا إسلاميا يعم نوره الآفاق، وإشراقا فكريا وتراثا حضاريا يزداد رصيده بتوالي السنين والأعوام، وَيُزْرُ ما للمغرب من أصالة حضارية، ومن عمل عظيم وأثر كبير في الدعوة المستمرة الواعية إلى البعث الإسلامي وتجديد أمر الدين، وجمع كلمة المسلمين، وإظهار معالم الثقافة والعلوم الإسلامية، ونشر مكارمها وخصائصها الدينية والحضارية"⁶⁴.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

64 - المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدروس الحسينية لعام 1411هـ، ص 6.

عُرِفُ تَرَكَ قِرَاءَةَ حَدِيثِ الْإِفْكَ فِي مَجَالِسِ السَّلَاطِينِ الْعُلَوِيِّينَ (مَجَالِسِ السَّلْطَانِ الْحَسَنِ الْأَوَّلِ نَمُودَجَا)

د. عبد القادر سَعُود
باحث، الرباط

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
وبعد، فإن الله تعالى نور عقول بني آدم بالعلم، وخص سالك طريقه بالرحمة والذكر، وميز
المجالس التي يُذكر فيها اسمه عن غيرها من المجالس، ولذلك نجد الرسول، ﷺ، يُرغب في
التعريح على المجالس العلمية في كثير من الأحاديث¹.

وقد سار الصحابة بعده على نهجه القويم، ثم بعدهم سار التابعون وتابعو التابعين، ثم بعدهم
الملوك والسلاطين في كل بلدان المسلمين²، ولهذا فإن التاريخ يشهد بظهور المجالس العلمية
السلطانية في بلاد المغرب منذ زمن متقدم.

وإذا رجعنا مع أدراج التاريخ، على الأقل إلى الدولة المغربية في عهد المرابطين، نجد أن هذه
المجالس العلمية قد بدأت مع الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين، الذي جعل من مجالسه مدرسة
تؤهل المريدين للولوج في صفوف الجيش المرابطي، الذي أصبح يوسف بن تاشفين، فيما بعد، على
رأسه أميراً للمسلمين.

1 - قال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَعَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ
عِنْدَهُ". أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله، رقم الحديث: 3378. وقال عليه السلام: "إِذَا
مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَارْتَعَوْا" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: بِمَجَالِسِ الْعِلْمِ. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير،
حديث رقم: 11158.

وقال أيضاً: إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. في
صحيحه، باب: فَضْلُ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حديث رقم: 6408. إلى غير ذلك من الأحاديث التي ترغب في إتيان مجالس العلم.

2 - وليام جيمس، قصة الحضارة 13: 96، طبعة دار الجيل، لبنان، 1988م.

ويذكر المؤرخون أن هذا الأمير كان له اهتمام كبير بالعلم والعلماء، وأن مجالسه العلمية كانت تعقد لمناقشة أمور الدين والدنيا، تحقيقاً منه لما تقتضيه إمارة المسلمين. وعلى نهجه سار ابنه علي من بعده، حيث كانت مجالسه العلمية تغص بأهل العلم من الفقهاء والعلماء، وكان يفتح فيها أبواب المناظرة والحوار والمناقشة وإبداء الرأي، ولا أدل على ذلك من المناظرة التي وقعت بحضرته بين علماء مجلسه وبين ابن تومرت الذي كان من كبار معارضيهِ³.

وعلى هذا السّن سار سلاطين الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب، حيث كان السلاطين الموحدون يعقدون مجالس علمية للمناظرة بين العلماء في كل فن، ويخصون كل فن بيوم من أيام الأسبوع، وكانوا يترأسونها وي طرحون الأسئلة بأنفسهم⁴.

وفي العهد المريني كان العلماء يُستقَطَّبون من الأقطار للحضور في المجالس العلمية، التي كانت تعقد بحضرة السلاطين، وكان أبو عنان المريني يناظر العلماء ويخبرهم من يجيز، وفي عهد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق سُنت المجالس العلمية الرمضانية⁵.

وهكذا استمر الأمر مع السعديين، حيث ازدادت الحركة العلمية ازدهارا، وأصبحت المجالس العلمية السلطانية ميدانا للتباري بين العلماء والفقهاء والشعراء بحضرة السلاطين، كما أصبحت تنظم جلسات لسرد صحيح البخاري، وكانت هذه الجلسات تختم بمناظرات بين العلماء لاستنباط الأحكام⁶.

وفي العهد العلوي عرفت المجالس العلمية السلطانية بعض المظاهر التي تؤكد تطورها الملحوظ، حيث أصبحت تؤلف على هامشها المؤلفات والرسائل في فنون مختلفة، إما تطوعا وإما بأمر من السلاطين. وكثيرا ما كان صحيح البخاري موضوعا لهذه المجالس، إذ كان يقرأ ويختتم بحضرة السلاطين. وأثناء قراءته كانت تطرح الأسئلة وتُتبادل المناقشات والمناظرات بين العلماء. ومن ذلك ما أثير من تعارض حول قراءة حديث الإفك⁷، حيث كان العرف السائد في مجالس السلاطين العلويين هو عدم قراءة هذا الحديث.

3 - آسية الهاشمي البلغيثي، النهضة العلمية على عهد المولى سليمان: ص 19، طبعة 2006.

4 - المرجع السابق: 20.

5 - المرجع السابق: 23.

6 - المرجع السابق: 25.

7 - أخرجه البخاري في صحيحه، رقم: 4750.

وسنقتصر في هذه الورقة عن إثارة هذه القضية في مجالس السلطان الحسن الأول كنموذج لمن طُبّق هذا العرف في حضرته، وذلك اعتماداً على نص ألفه الشيخ أبو العباس ابن سودة⁸ على هامش مجلس علمي سلطاني أثّرت فيه قضية ترك قراءة حديث الإفك، وقد أراد الشيخ بهذا التأليف الردّ على مَنْ اعترض على هذه المسألة.

ومن هنا سيكون تناولنا لهذه المسألة في نقطتين: الأولى منهما تخص ظهور هذا العرف واعتماده في المجالس العلمية السلطانية، على عهد السلطان الحسن الأول. والنقطة الثانية تنحصر في الجمع بين القرائن القرآنية والحجج الفقهية التي تؤيد تطبيق هذا العرف الذي سنه السلاطين العلويون في قراءة صحيح البخاري في مجالسهم العلمية.

1- ترك قراءة حديث الإفك في المجالس العلمية السلطانية على عهد الحسن الأول

لما اعتلى الملوك العلويون عرش البلاد استطاعوا، في مدة وجيزة، تخطي العقبات، والتغلب على الصعاب التي كانت تعرقل سيرهم نحو لمّ شتات الأمة المغربية، ولذلك جعلوا من الوحدة المذهبية أساساً متيناً بنوا عليه دعائم دولتهم، مما زاد في التلاحم بين الرعية، ومما شد أيضاً عرى الوحدة الوطنية، وبذلك استتب الأمن وعمّ الاستقرار، الذي هو عامل من عوامل النشاط في جميع المستويات.

فعلى المستوى العلمي، الذي هو موضوع هذه الورقة، عرفت البلاد، على عهد الملوك العلويين، ازدهاراً ملحوظاً. وكيف لا؟ وهم الذين كانوا يستخلصون لأنفسهم شيوخاً وعلماءً أفذاذاً فيتلمذون عليهم بدون استنكاف⁹. وقد حرصوا كل الحرص على أن تكون مجالسهم العلمية ميداناً للدراسة والبحث ومجالاً للجدال والمناقشة بين العلماء، في موضوعات علمية وتاريخية وأدبية¹⁰.

والسلطان الحسن الأول، أحد هؤلاء السلاطين، وهو الإمام العالم الهمام، المطبوع على المناقب والمزايا العظام، كانت مجالسه العلمية عديدة، منها ما كان يُعقد للاستفتاء حول القضايا المهمة التي

8 - هو أحمد بن الطالب بن محمد، أبو العباس، المعروف كأصلافه بآبن سودة المري، المتوفى سنة 1321هـ / 1903م انظر الأعلام للزركلي (1/ 139).

9 - آسية الهاشمي، المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية: 1/ 195.

10 - المرجع السابق: 1/ 196.

كانت تعترض سبيله في حكمه¹¹، ومنها ما كان يُعقد للبت في المستجدات التي كانت تطرحها النهضة الحديثة التي فرضها الاحتكاك بالآخر، وأخرى كانت تعقد لتدارس العلم ومناقشة العلماء، وأهم هذه المجالس لديه تلكم التي كانت تعقد لقراءة صحيح البخاري بحضرته، حيث خصص له ثلاثة أشهر من السنة، لا تتوقف القراءة إلا لضرورة قاهرة¹².

يقول الشيخ عبد القادر بن محمد بن سودة¹³ في كتابه "العنوان المغرب لمفاخر مولانا عبد الحفيظ سلطان المغرب"، لما تحدث عن مجلس السلطان الحسن الأول لحتم الجامع الصحيح بمسجد أبي الاخسيصات في رمضان من عام 1310هـ: وكان رضي الله عنه كأسلافه الكرام يحتفل لقراءة الصحيح ويعظم أهله ويعطي على ذلك الصدقات والصلوات الجزيلة التي لم يسمح بمثلها ملك قط¹⁴.

وقد كانت مجالسه تتحول إلى مناظرات ومناقشات حادة، ومن بين هذه المناقشات تلكم التي تتعلق بقراءة "حديث الإفك"، حيث كان العرف السائد في المجالس العلمية لدى السلاطين العلويين هو ترك قراءة هذا الحديث، تنزيهاً منهم لأم المؤمنين، واحتراماً لآل البيت النبوي الشريف، وفي ذلك يقول الشيخ عبد القادر بن سودة: وكانت تقع في مجلسه الشريف محاورات، فمن ذلك أن العرف الجاري هو عدم قراءة حديث الإفك، فلما وصل القارئ إليه قام بعض طلبة المجلس فقال: الصواب قراءته. فنظر مولانا الحسن لرئيس المجلس أبي العباس ابن سودة فقال له: تكلم! فقال: الصواب عدم قراءته اقتداءً بأسلاف سيدنا...¹⁵.

وهكذا كان حديث الإفك، وما وقع في ترك قراءته في المجالس السلطانية من مناقشات، دافعاً قوياً دفع الشيخ أبا العباس ابن سودة إلى تأليف كتاب ليثبت فيه حُسنَ سنة هذا العرف التاريخي الذي يتعلق بعدم قراءة حديث الإفك في الحضرة السلطانية، وقد وسم كتابه بـ: "سيوف الفتك، في نحر من اعترض ترك قراءة حديث الإفك".

11 - المرجع السابق: 2/ 44.

12 - المرجع السابق: 2/ 41.

13 - هو عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن الطالب ابن سودة. المتوفى سنة 1389هـ/ سل النصال (ص: 277).

14 - ابن سودة، العنوان المغرب لمفاخر مولانا عبد الحفيظ سلطان المغرب، مخطوط: ورقة: 17. ولهذا الكتاب عنوان آخر وسمه به صاحبه وهو: القول المستحسن في مآثر مولانا عبد الحفيظ بن السلطان مولانا الحسن، عندي منه نسخة.

15 - ابن سودة، العنوان المغرب، مرجع سابق: ورقة: 17.

ولعل الأمر السلطاني، الذي وجهه المولى الحسن لأبي العباس ابن سودة بالتكلم، كان من وراء فكرة التأليف في هذه المسألة. ففعل الأمر: تكلم! يفيد أن السلطان أراد من رئيس المجلس أن يتكلم بما يقنع المعارض، ويؤكد له سبب ترك قراءة الحديث المذكور، ويبين له القرائن القرآنية والأدلة الفقهية التي تقوي حجة السلطان في الإبقاء على عرف أسلافه، خاصة وأن ابن سودة كان رئيسا للمجلس السلطاني آنذاك، ولا يترأس مثل هذه المجالس إلا من هو في مستوى الرد على مثل هذا الاعتراض، وعلى غير ذلك من المسائل الفقهية والحديثية، المترتبة عن بعض الانتقادات أو فيما يخص توضيحات بعض المستجدات. ولذلك أراد الشيخ أن يسوغ اختصار كلامه في هذا المقام، إذ هو جواب على فعل الأمر بالتكلم الذي وجهه إليه السلطان مولاي الحسن، وفي الوقت نفسه يبرز مدى قدرته على تناول المسألة من جانبها الفقهي والتاريخي، حتى يتضح اللبس في مسألة ترك قراءة حديث الإفك لدى كل من يعترض عليها، أو ينتقدها من منظوره الخاص.

وقد أكد المؤلف في بداية تأليفه على أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله هو أول من سن هذا العرف، ثم اتبعه في ذلك من جاء بعده من السلاطين فأبقوه سائرا في مجالسهم العلمية. يقول ابن سودة في كتابه "العنوان المعرب لمفاخر مولانا عبد الحفيظ سلطان المغرب: "إن سيدنا الإمام الأفخم سيدي محمد بن الإمام الأعظم مولانا عبد الله، قدس الله أرواحهم، أمر من يقرأ صحيح الإمام البخاري بترك قراءة حديث الإفك... وبقي العمل بتركه مستمرا في مجالس ساداتنا الأئمة الأعلام، وخلفاء جدهم عليه الصلاة والسلام"¹⁶، ثم يضيف مؤكدا شرعية هذا الترك بقوله: "وحمل فعل الأئمة الكرام وساداتنا الخلفاء الأعلام على الوجوه المرضية شرعا وعقلا"¹⁷.

وقد ركز الشيخ ابن سودة في تأييده لأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بترك قراءة الحديث على وجوب طاعة الأمير فيما يأمر به في غير معصية، بدليل إجماع أهل السنة على ذلك، يقول المؤلف: وقد نص أهل السنة، رضوان الله عنهم، على وجوه طاعة الإمام في غير معصية¹⁸. وغير المعصية يشمل المندوب والمباح وحتى المكروه. وقال العلامة ابن زكري في حواشيه على صحيح البخاري: الصحيح أن الإمام إذا أمر بمندوب أو مباح صار واجبا، خلافا لمن قال: يبقى كل منهما كما كان¹⁹.

16 - العنوان المعرب: ورقة: 18.

17 - العنوان المعرب: ورقة: 22.

18 - العنوان المعرب: ورقة: 22.

19 - العنوان المعرب: ورقة: 20.

ومن هنا يتضح أن أمر الإمام بترك قراءة حديث الإفك ليس معصية، وبالتالي وجبت طاعته فيما أمر به، ما دام المأمور أو المنتقد واحد من الرعية.

إن الخوض في حديث الإفك، عند السلاطين العلويين، خوضٌ فيما لا يعني. والخوضُ فيما لا يعني مما لا يُستحسن شرعاً، والأمثلة على ذلك كثيرة، لمن أراد استقراء القرآن والسنة النبوية. وفي سير السلف الصالح أنه يجب الإمساك عما يشجر بين الناس، لأنه يدخل في باب الخوض فيما لا يعني، والرسول ﷺ، يأمر بذلك في قوله: "من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"²⁰.

وقد أورد ابن سودة مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤيد عُرف ترك قراءة حديث الإفك، الذي سنه السلاطين العلويون، في مجالسهم العلمية التي كانت تعقد لختم صحيح الإمام البخاري، حيث ذهب بعيداً في تفسير الآيات القرآنية، وتقريب فهم معانيها، وكذا النصوص الحديثية وشرحها، درءاً منه لما يمكن أن يترتب، لدى قاصري الفهم وقليلي العلم، من الشبهات التي قد تَجَرَّ إلى الغيبة والإفك والبهتان²¹.

2- القرائن القرآنية والحجج الفقهية التي تؤيد ترك قراءة حديث الإفك في المجالس العلمية لدى السلاطين العلويين.

من الآيات التي أوردها الشيخ أبو العباس ابن سودة وغيره من العلماء، في شأن ترك ما لا يعود على المرء بالنفع علماً وعملاً، كالخوض في حديث الإفك، قوله عز وجل: «يسألونك عن الأهلة»²²، وهو سؤال يبدو واضحاً، وأن الإجابة عنه لا فائدة فيها، ولذلك نجد المؤلف يفصل في معنى هذا السؤال، بقوله: "أي ما بال الشهر يبدو أولاً رقيقاً كالخيط، ثم يمتلئ شيئاً فشيئاً إلى أن يصير بدراً كاملاً، ثم يعود بالنقص كذلك إلى أن يصير لحالته الأولى؟

ولما كان هذا سؤالاً عما لا يعني، ولا يفيد العلم به نفعاً في المعاد، أعرض عن جوابه مولانا سبجانه وقال: «قل هي مواقيت للناس والحج»²³ تنبيهاً على أن اللائق بالملكف أن يسأل عما يعود نفعه عليه في الدارين²⁴ لأن شغله بما لا يعنيه يشغله عما يعنيه من أمر التكليف.

20 - أخرجه مالك في الموطأ، حديث رقم: 1883 وابن ماجه في سننه، حديث رقم: 3977. وابن حبان في صحيحه، باب ما جاء في صفات المؤمنين حديث رقم: 229.

21 - العنوان المعرب: ورقة: 17.

22 - سورة البقرة: 188.

23 - سورة البقرة: 188.

24 - العنوان المعرب، مرجع سابق: ورقة: 22.

كما كان السؤال عن معنى قوله تعالى ﴿والمرسلات عرفاً﴾²⁵ «والمسابحات سبحاً»²⁶ مما سبب في نفي صبيغ بن عسل التميمي²⁷ من طرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لأنه يسأل عما يشوش على العامة، ولا تكليف في العلم به²⁸. فكذلك من يخوض في حديث الإفك بين العامة الذين لا يعلمون معنى قوله تعالى: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾²⁹، وهو تنزيه ربّاني نزل به الروح الأمين في شأن أم المؤمنين التي لا يتناسب مقامها شرعاً مع الكذب الذي قاله المفترون، وفي ذلك يقول الشوكاني في فتح القدير: ومعنى قوله: "سبحانك هذا بهتان عظيم"، التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، والبّهتان: هو أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، أي: هذا كذب عظيم لكونه قيل في أم المؤمنين رضي الله عنها، وصدوره مستحيل شرعاً من مثلها³⁰.

ويكفي من الأحاديث التي تدل على حب الرسول، ﷺ، لزوجته عائشة، وعلى تعظيمه لمكانتها بين نسائه، أمهات المؤمنين، وهي المكانة التي لا يمكن لذوي العقل السليم بعدها، التفكير فيما اتهمت به في قضية الإفك، وهو قوله عليه السلام لأُم سلمة: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ لَا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لَحَافٍ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرَهَا»³¹.

ولهذه القرائن القرآنية والنصوص الفقهية يعد العرف في ترك قراءة حديث الإفك في المجالس العلمية السلطانية سنة حسنة سنّها السلاطين العلويون، وتداولها الخلف منهم بعد السلف، ضرباً منهم لأولئك الذين حاولوا النيل من عرض النبي، ﷺ، بتلفيقاتهم الكاذبة التي أرادوا بها مس أهل بيته المتمثلين في أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، الطاهرة البريئة التي أنزل الله تبارك وتعالى براءتها في القرآن الكريم، ودافع عنها بخمس عشرة آية في سورة النور حتى يظهر ساحتها، ويظهر للعالم

25 - سورة المرسلات: 1.

26 - سورة النازعات: 3.

27 - هو صبيغ، على وزن عظيم، بن عسل، ويقال ابن عسيل ويقال صبيغ بن شريك من بني عسيل، وهو الذي سأل عمر بن الخطاب عما سأل فجلبه وكتب إلى أهل البصرة لا تجالسوه. انظر تاريخ دمشق لابن عساكر (408 / 23).

28 - العنوان العرب، مرجع سابق: ورقة: 23.

29 - سورة النور: 16.

30 - الشوكاني، فتح القدير 4: 17.

31 - أخرجه البخاري في صحيحه (30 / 5)

براءتها من هذه الفاحشة المنكرة³². وما كان قصد المفترين، من ذلك كله، إلا بث وساوس الخلاف والفرقة بين المسلمين، وإضرار نار الفتنة في بيت الرسول ﷺ.

وهذا كله، ومثله كثير، هو ما جعل السلاطين العلويين يقفون من حديث الإفك موقفا حاسما لا يسمح بترويجه في مجالسهم بين العام والخاص، حتى لا تنزعج قلوب الأبرياء المطمئنين بمثل هذه الأمور التي كثيرا ما تثيرها الأغراض والنوايا الخبيثة، وذلك أيضا دليل راسخ وقوي على اعتقاد هؤلاء السلاطين في براءة أمنا عائشة، رضي الله عنها، وبرهان مؤكد على طمأنينة قلوبهم، حيث أمروا بعدم قراءة الحديث المذكور، قتلا منهم للإفك، وإحباطا للكيد، الذي أراد المنافقون أن يكيدوا به للسيدة الطاهرة المبرأة النزيهة العفيفة أمنا عائشة، رضي الله تعالى عنها.

وما افتراه المفترون في المس بعرض الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلا نتيجة من النتائج السيئة التي تترتب عن العجلة الشيطانية في نقل الأخبار بلا تثبت ولا تريث، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾³³.

وقد تفتن السلاطين العلويون، وهم ذوو القدم الراسخة في العلم، لخطورة ترويج مثل هذه الأكاذيب بين العامة، مما يمكن أن يحدث بعض الأفكار التي قد تحالج مرضى القلوب فيزيغوا عن الفهم الصائب لحديث الإفك.

فالأمر بعدم قراءة هذا الحديث في المجالس العلمية السلطانية هو بمثابة استئصال للمرض من جذوره، لأن مسألة الإفك افتراء وكذب وبهتان مس خير الخلق (رسول الله ﷺ) في خير أزواجه عائشة بنت أبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ومن الأحسن أن لا تكون موضوعا للنقاش بين العام والخاص ممن يحبون شيوع الفاحشة في بيت كان ينزل فيه الوحي.

فالسلاطين العلماء الذين أمروا بترك قراءة هذا الحديث كانوا على علم بما يقتضيه هذا الترك شرعا، وذلك أن نتائج تركه خير من الخوض فيه. ولهذا نجد أبا العباس ابن سودة يوجه كلمة دامغة لمن انتقد ترك قراءة هذا الحديث، واعترض على ذلك في مجلس علمي سلطاني، بقوله: "إذا وقفت أيها المنتقد على كلام هذا الإمام فحاسب نفسك فيما استحسنست من الخوض في حديث الإفك، لأن الذين رووه وأخرجوه كانوا على هدى من ربهم، فإن كنت مثلهم فأقدم، وإلا فتأخر وهو الأسلم

32 - عبد الرحمن الجزيري، الفقه على المذاهب الأربعة (5/ 115).

33 - سورة النور: 15.

لدينك، ثم انظر كيف تعمل مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَجْبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾³⁴. فالمراد بالفاحشة في الآية الكريمة هي الخصلة المفرطة في القبح وهي الفرية والرمي بالزنى أو الزنى نفسه، والمراد بشيوعها شيوع خبرها. ولهذا وجب الاحتياط من الخوض في مثل هذه الأمور، كما وجب الخوف الشديد من السقوط في المزالق التي يدفع الشيطان حربه إلى ركوبها. وهذا يفهم من كلام العلامة ابن سودة لمن اعترض على ترك قراءة الحديث المذكور، حيث قال: «فانظر أيها المنتقد تخليص خوضك في حديث الإفك فهما وتفهما من هذه المزالق وإلا نلت نصيباً من ذلك الوعيد»³⁵.

ولذلك كان أمر السلاطين العلويين بترك قراءة الحديث المذكور في مجالسهم العلمية من أجل الابتعاد عن هذه المزالق، وتكريماً لمقام نبينا، صلى الله عليه وسلم، وتشريفاً لمقام عائشة رضي الله عنها، لأن إذابة عائشة إذابة له، عليه السلام. يقول ابن سودة: "فإذا كان هذا في حق عائشة إذابة له، ﷺ، فما بالك بالخوض في حديث الإفك وذكره في ملا من الناس. اللهم إنا نعوذ بوجهك الكريم من هذا الوسواس"³⁶.

والإنسان المؤمن الورع لا بد من أن يقف موقف تأييد من هذه المسألة (ترك قراءة حديث الإفك)، إذ من العلماء، في أيامنا هذه، من لا يحب سماع هذا الحديث، وقد سألت أحد العلماء الشيوخ عن أمر يتعلق بهذا الموضوع ويتطلب ذكر لفظ الحديث، فلما سمعه قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا دليل على أن أهل المغرب، سلاطين وعلماء وعامة، كلهم يكونون لأهل البيت النبوي حبا خالصا راسخا في قلوبهم، لا يكدر صفاءه افتراء المفتريين، ولا كذب المنافقين. نسأل الله أن يُديم حبهم في قلوبنا حتى نلقى به وجه النبي الأمين.

آمين والحمد لله رب العلمين.

34 - العنوان المغرب، مرجع سابق: ورقة: 46.

35 - نفسه: 48.

36 - نفسه: 51.

رحلة محمد أبي راس المعسكري إلى فاس زمان السلطان العلوي المولى سليمان

د. أحمد العراقي
أستاذ باحث جامعة فاس

كان محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري، المعروف بأبي راس (1150-1239هـ / 1737-1824م) من أعلام زمانه المتميزين¹؛ فهو "حافظ المغرب الأوسط ورحالته، صاحب التأليف الكثيرة في الفقه والأدب والتاريخ والأنساب وغير ذلك..² تنقل في أنحاء الجزائر، ورحل إلى المغرب وتونس ثم إلى مصر والحجاز والشام؛ وحج وزار؛ والتقى بالعلماء وذاكرهم وناظرهم وساجلهم، فاستفاد وأفاد؛ كما التقى بالحكام فمدحهم ونال عطاياهم؛ وأكثر من التأليف في الفنون المختلفة علماً وأدباً، وقد غلب عليه فيه ما كان غالباً في زمانه من شرح المتن وتحشية الشروح.

ومن بين ما كان ألفه كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربّي ونعمته"؛ وهو من أهم مؤلفاته، ألفه في أخريات حياته؛ وجعله في سيرته الذاتية فاستعرض فيه ذكرياته عن ابتداء أمره، فذكر أصله ونسبه وأهله وما عاناه في طفولته وما تمّ له بعدها وما اشتغل به من تدريس العلم وتولي القضاء والفتوى والخطابة؛ ثم عرّف بأشياخه وما كان أخذه عنهم من العلوم والآداب؛ ثم انصرف إلى ذكر أسفاره في المشرق والمغرب، واستحضر ما كان تمّ له في أثنائها من لقاء كبار العلماء وما جرى له معهم من المراجعة والكلام؛ ثم أورد بعض ما كان سئل عنه من المسائل العلمية وإجاباته عنها؛ وختم باستعراض مؤلفاته المختلفة.

1 - يرجع في ترجمته إلى: جميع كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" (ويوجد مخطوطاً في نسختين بالمكتبة الوطنية بالرباط، وبتحقيق: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982؛ وعليها ستكون الإحالة)؛ وتعريف الخلف برجال السلف، لمحمد الحفناوي: 333-332/2 (ط. الجزائر، 1906)؛ وفهرس الفهارس...، لعبد الحفي الكتاني: 150/1-152 (باعتناء د. إحسان عباس، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982)؛ ومعجم أعلام الجزائر، لعادل نويّض: 146-147 (ط. 1، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1971).

2 - فهرس الفهارس: 150/1.

يكتسي هذا الكتاب أهمية بالغة لمن يهتم بصاحبه وشؤونه وبما تمّ له في حياته ؛ ويهمنّا منه الباب الثالث الذي عقده لأسفاره، وفيه ذكر لرحلته إلى فاس. وقد تمت زمان السلطان العلوي المولى سليمان (1206-1238هـ / 1791-1822م) ؛ وإذا كان لم يحدّد تاريخها فيه فإنه يمكن استنباطه مما يُفهم من سياقها ومن جملة إشارات في أثناء الكتاب. ذلك أنه ورد في الباب الأول منه أنه بعد رجوعه من حجّته لسنة 1204هـ قُلّد الفتوى والقضاء والخطابة، ولما عُزل منه سنة 1211هـ انصرف إلى شرح المقامات بشرحها الأصغر والأكبر، ثم وفد على السلطان المولى سليمان وأهداه نسخة من الأكبر وغيره فأجازه بجائزة سنّية³. يفهم من هذا أنه حلّ بفاس بعد هذا التاريخ، قد يكون في غضون سنة 1212هـ أو في التي بعدها ولكن قبل سنة 1214هـ، إذ في أوائلها (أواسط صفر منها) توفي العلامة محمد بن أحمد بنيس بالوباء، وكان ممن لقيهم بها وتباحث معه في تفسير ابن عطية، وذكر أنه عمّا قليل اخترمته المنية⁴. غير أنه كما تقدّم لنا لم يكتب كتابه إلا في أخريات حياته، وذلك بعد سنة 1233هـ فيما يقدر الدكتور أبو القاسم سعد الله - رحمه الله - فيما كتبه في تصديره⁵، أي بعد حلوله بفاس بنحو عقدين من السنين ؛ فما سطره عن رحلته إليها إنما هو استعراض لذكرياته عنها وعمّا كان تمّ له فيها.

وهي في عمومها ذكريات جميلة، احتفظ بها في ذاكرته ووجدانه، ونراه يردّد صداها في أثناء كتابه بما ينمّ عن إعجابه الكبير بها وبعلمائها وبالسلطان فيها، ويعتزّ بما لقيه فيها من تكريم وشهرة وتقدير، فهو يشير إلى بعض ما تلقّاه من الهدايا من السلطان ومن قائدها، كما يشير إلى احتفال السلطان به واستدعائه للبقاء فيها، وإلى احتفال جمهرة علمائها به وذبوع ذكره بينهم، حتى قال في ذلك : "... واشتهرت في مدينة فاس، ولقبوني بالحافظ، ثم رجعت بعدما رغبتني -نصره الله- فقلت إني ثقیل ..."⁶.

ومن إعجابه الكبير بها انصرافه قبل استعراض أحداث رحلته إليها إلى وصفها وصفا جميلا، أوسع فيه بما لم يوسع فيه لغيرها مما كان زاره قبلها وبعدها ؛ قال منه : "ورحلت إلى مدينة فاس، محلّ العلم والإيناس، والتقريب والتباعد لأناس، وهي قبة الإسلام والسلام والاستلام، المقام الأعلى والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافرة، وخزائن [...] والشهرة الساحرة والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني الباهية، والأزهار الزاهية،

3 - فتح الإله : 24.

4 - المصدر السابق : 106.

5 - نفسه : 7.

6 - نفسه : 24.

والمحاسن الشاهية ... والنهر الفياض علاها وسطا وجارا، وفلك الدولاب المعتدل الانقلاب قد استقام مدارا، ينبع العلم من صدور أهل العرفان، كنبع مائها من الجدران حفظا وأذكارا ...". ويربط مجد ما كان وجده فيها ورآه واستطابه بكونه من آثار مؤسسها المولى إدريس الأزهر، فيقول: "... حيث هي آثار السلطان إدريس المجاهد، تعبق من تلك المعاهد، شذى معطارا، حيث كرائم السحائب تزور عرائس الرياض الحباب، فتحمل لها من الدر نثارا، حيث شمول الشمال تُدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى وما هم بسكارى ... حيث المصلّى العتيق قد ربح منارا، وأزرى ببلاط الوليد احتقارا ... فما شئت من جوّ صقييل، ومغرس للحسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيل، وخفيف يعادل بثقيل ...".⁷

ويستمر في هذا الوصف الجميل المحمّل بعطر ذكرياته عن حسن مظاهر طبيعة فاس وعمرانها، قبل أن ينتقل إلى ذكرياته مع علمائها وسلطانها وقائدها؛ ويشكل ذلك معظم ما دونه عن رحلته إليها، وهي بذلك تعدّ من صنف الرحلات العلمية. فقد التقى بعدد غير قليل من علماء فاس، وتوسّع في الحديث عن بعضهم. وكان في تناوله لهم يسمّي من يذكره ويعرّف به وبمقداره بما انطبع في ذاكرته عنه، وبما كان ذاكره فيه، ويشير أحيانا إلى ما استفاده منه، وكذلك إلى ما أفاد به.

لقد التقى بمحمد الطيب بن كيران (ت 1227هـ / 1812م) وأعجب به أيما إعجاب لعلمه الجَمّ وحفظه، ولوقاره وكونه شيخ علماء زمانه، واحتفظ له في ذاكرته بما ينمّ عن تقديره الكبير، ومما قاله في شأنه: "... حافظ العصر السيّد والسند الطيب بن كيران، الطائر الصيت في الآفاق بالاتفاق، حتى صارت به الرفاق إلى أقاصي مصر والشام والعراق، وإلى مجالس غانة وفرغانة، العالم الصالح الزاهد ... أوتي الحفظ واللفظ والعلم والفهم صبيّا، وحلّ من رئاسة العلوم والزهد مكانا عليّا ... بلغ في العلم والفتوى إلى الغاية القصوى، وحمل راية الخطابة والتدريس والفتوى، فهو فخر الخلف، وأعلم الناس بالسير وأخبار السلف، وقد قالوا آخر الحفاظ الإمام السيوطي والإمام السخاوي، وأنا أقول آخر الحفاظ والبيان والبيان الشيخ الطيب بن كيران، وليس الخبر كالعيان ...".⁸

ويبدو أنه وهو يستحضر ذكريات لقائه به قد أضاف إليها بعض ما اجتمع لديه من أخباره فيما كان بعد ذلك، فذكر حدث وفاته ووقعها في نفوس الناس عامة وخاصة، قال في ذلك: "ولما توفي -رحمه الله- اهتزّت لموته فاس، وحزن لموته كل الناس، وصاروا يرثونه ويمدحونه، وحضر جنازته السلطان فمن دونه، وهذا شأن العلماء الكبار من كل الأقطار والأمصا"⁹.

7 - نفسه : 101.

8 - نفسه : 102-103.

9 - نفسه : 103.

كما التقى بـحمدون بن الحاج (ت 1232هـ/ 1817م)، وحلّاه عند الكلام عنه بما ينمّ عما احتفظ به عنه في ذاكرته من جميل الذكر والإعجاب الكبير بعلمه وأدبه ووجاهته، فقال من ذلك: "وتكلّمت مع أديب فاس وعالمها وعاملها وأحد رؤسائها وأكابرها الشيخ حمدون الذي تعلّق من العلوم بالعروة الوثقى، وسما به الأدب إلى المحلّ الأرقى، وتبادر الفقهاء والأعيان ركضا إلى المنافسة في قربهم وسبقا ... وإن هذا السيد الفقيه الجليل الكبير، الشهير الخطير، رئيس الفئة العلمية العديدة الوافرة، وكتيبتهما القائمة الظافرة، وجواد هذه الحلبة الفاسية الكريمة، وبارق هذه الديمة، تاج المفرق، وفخر المغرب والمشرق ..."¹⁰.

وجالسه مرّة أخرى بمجلس قائد فاس، فازداد معرفة به وانبساطا له، فتناشدا وتراجعا، وأعجب صاحب المجلس بما صدر عنه فيه فأكرمه بما صار يلهج بذكره، قال في ذلك: "وضمّني وإياه مجلس قائد فاس، فتناشدا أشعارا، وتراجعا مرارا . ولما سمع مني القائد رقائق كثيرة، ولطائف أثرية، أعطاني حصانا جيدا من مراكبه، ونخبة من مكاسبه ..."¹¹.

والتقى كذلك بعبد القادر بن شقرون (ت 1219هـ/ 1804م)؛ وهو أيضا من علماء فاس الكبار الذين أعجب بهم أيما إعجاب، فاحتفظ له بذكرى طيبة يُعرب عنها ما حلّاه به عند تناول الحديث عنه، فقال: "ولقيت نحويّ فاس، باتفاق الناس، ذا السرّ المصون، الشيخ عبد القادر بن شقرون، الرائض من كلام "التسهيل" كلّ شماس وحزون، نحويّ محقق، وأديب مدقق، وصالح موفق، وأستاذ تحرير نظار، وفوائد تدريسه لجين ونضار..."¹². ويبدو أن أواصر المودّة والتقدير قد صارت بينهما، حتى قرّظ له "شرحه الكبير على المقامات"؛ وكتب إلى علماء تازا يؤنّبهم على ما بلغه من تقصيرهم معه، ويذكّرهم بمقداره وشهرته¹³.

ولقي غير هؤلاء، ومن بينهم محمد بن أحمد بنيس (ت 1214هـ/ 1799م) ومحمد بن طاهر الهواري (ت. 1220هـ/ 1805م) ومحمد بن عمرو الزروالي (ت. 1230هـ/ 1814م) ومحمد ابن منصور الشفشاوني (ت. 1232هـ/ 1816م).

10 - نفسه : 105.

11 - نفسه : 105.

12 - نفسه : 105.

13 - نفسه : 106.

وكانت له مع كل منهم مذكرات ومراجعات، وطرح أسئلة وإجابات في فنون علمية وأدبية مختلفة ؛ فقد تباحث مع بنيس في "تفسير ابن عطية"، ووقف على نظم ونثر الهواري، وحضر ختم "المختصر" للزروالي وسأله عن كيفية تقريره لبعض مسائله، وأقرّ بتفوق ابن منصور في نحو ابن هشام . وكان قد تباحث مع بعضهم بمحضر الشيخ الطيب بن كيران لما أنكروا عليه قوله لأحدهم بعد شربه : "صحة" ؛ فأتى بما لديه في شأنها من حجة ونقل، فعدلوا عن إنكارهم وأقروا بصواب ما انتهى إليه ؛ قال في ختام ذلك : "... فاعترفوا بفضلي، وبصحة نقلي وعقلي"¹⁴. وكان من بين ما تناشده مع الشيخ حمدون بن الحاج شعرا للعباس بن الأحف، أنشده المؤلف بـ : "دب السلول له ... فقال فيه حمدون : "دب السلول له ..."، فأقرّ بتصويبه، وذكر أنه قد استفادها منه¹⁵.

وإذا كانت لقاءاته مع من أورد ذكرهم من علماء فاس يحتفظ لها في وجدانه بذكر طيب محبب إلى نفسه، ويتلذذ باستعراضها ويتتشي، فإنه قد كان له مع غيرهم ممن حرص على عدم تسميتهم مواقف تدمر ونفور. ومن بينهم أحدهم استعار منه مؤلفه "درة الخواشي على شرح الشيخ الخراشي" فكتب عليها طررا في انتقادها انتقادا لاذعا، قال في وصفه : "... فأتى إلى نقلي فيها عن كلام الخطاب، ولم يتأن للحن وفحو الخطاب فنسخ وسلخ ومسح، حتى تركه أبيًا وهجره مليًا وصيّره نسيا منسيا ... وقد سوّد بذلك الاعتراض في طرة الحاشية، وأظهر فيها العوار .."¹⁶. فانبرى للردّ عليه ونقض ما عقده، وأبدى غضبه وامتناعه منه وممن مال إلى رأيه. ويبدو أن المؤلف كان حادّ الطبع، قليل الصبر، لا يقوى على انتقاد غيره واعتراضه.

وجعل آخر ذكرياته عن رحلته إلى فاس حديثه عن لقاءاته بالسلطان المولى سليمان وحضور مجلسه والإشارة إلى بعض مذكراته معه . وقد أبدى إعجابه الكبير به، فتوسع في تحليلته والدعاء له والثناء عليه وعلى خلافته ثناءً كبيراً، قال من ذلك : "حضرت مجلس ذي الخلافة الذي ارتفع في عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع وعزها الذائع على ما أسست الأسلاف، ووجب لحقها الحازم وفرضها اللازم الاعتراف، ووسعت الآملين لها البقاع الرحبية والأكناف ... ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السماوات العلى الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة، وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود ولا تدركه

14 - نفسه : 104.

15 - نفسه : 105 ؛ والقصد هنا إلى بيتي العباس بن الأحف، يقول في أولها : "راجع أحبّك الذين هجرتهم .." وقد أوردهما المؤلف؛ وانظرهما وقصة إنشادهما في : الأغاني، للأصفهاني : 218/5 (ط.5، دار الثقافة، بيروت، 1981).

16 - نفسه : 102.

الأوصاف، خلافة وجهة تعظيمنا إذا توجهت الوجوه، ومن نؤثره إذا أهمتنا ما نرجوه ونفديه إذا استمنح المحبوب واستدفع المكروه، السلطان الخليفة الجليل، الأثيل الأصيل النبيل، الأعلى الأجل، الأظهر الأبر، الأرضى الأمضى، الأحفل الأكمل الأجل الأنبل، الذي انعقدت إمامته عقد الدرّ والجمان، أمير المؤمنين مولانا سليمان، أبقاه الله بركة وأمنا وأمانا، لا يخصّ جلب الخير إليه وقتا ولا يفتر زمانا، مؤيدا ومعانا ...¹⁷.

وأعجب بمجلسه، وبما كان يدور فيه بين من يحضرونه، وأجل في وصفه بما يفيد ذلك قبل أن ينقل بعض ما أسهم به فيه، فقال: "وكان مجلسه -نصره الله- لا يخلو من العلم والعلماء، تعليما وتعلما"¹⁸. ثم انصرف إلى استعراض بعض مذكراته مع السلطان، وبعض ما تلقاه من استفساراته وأسئلته، وبما كان أجابه عنها. وهي في عمومها في العلوم الشرعية وغيرها، وخصوصا في التاريخ وفي الرجال. وقد أبدى تهيبه منه غير ما مرّة بمثل قوله: "فسكت، خشية منه"، وعقب في أثناء ذلك بما لاحظته ووقف عليه مما كان لدى المولى سليمان من علم كبير ومعرفة واسعة، قال: "فأجبت بما عندي؛ وعلمت أن له يدا في التاريخ والأنساب وأيام العرب، وذلك العلم الذي تعني به الملوك قديما ..."¹⁹.

إن هذا السلطان كما يشهد له التاريخ كان من عداد مثقفي عصره، وكان له تعلق بالعلم والعلماء، يستدعي إلى مجالسه: "أعلام وقته من العلماء والأدباء، فيذاكرهم ويباحثهم، ويبيدي رأيهم قبولا وردّا فيما قد يعرض خلالها ... وكان يحضرها أحيانا العلماء والأدباء الوافدون على المغرب من الأقطار، وقد أعجبت بعضهم فلهجوا بذكرها وأثنوا على صاحبها ..."²⁰.

لقد كانت أحداث رحلة أبي راس العسكري إلى فاس ومشاهداته فيها، ولقاءاته مع عدد من أعلام علمائها، ومع السلطان بها، وما حظي فيها من تكريم، ذكرى جميلة اجتهد في استحضارها عند كتابة سيرته الذاتية وتجميع أهم محطات حياته في حلّه وترحاله، وتناسى غيرها مما لم يلاق فيه مثل ذلك فلم يعرج على ذكره، ومنه سكوته عن مروره بتازا في طريقه إلى فاس، وقد ندّت منه إشارة في أثناء ترجمته لعبد القادر بن شقرون إلى عدم احتفال علمائها به وتقصيرهم في حقّه.

17 - نفسه : 106.

18 - نفسه : 106.

19 - نفسه : 107.

20 - الشعر بالمغرب زمان العلويين، لأحمد العراقي : 108-109. (ط.1، فاس، 2008).

مقالات جامعة
في الحركة العلمية
بالمغرب

المغرب وشنقيط:

متانة الروابط العلمية والثقافية والروحية

ذ. بوها ولد محمد عبدالله
كاتب وباحث موريتاني

مقدمة:

اعتاد خريجو المحاضرة الشنقيطية في القرون الماضية إعمال الرحلة إلى المغرب والمشرق العربيين طلبا للعلم واستزادة من المعرفة، حيث كانت بلاد المغرب الأقصى أول محطة لهم، ومركز جذب بالنسبة إليهم، من خلال حواضرها العلمية ومزاراتها الروحية كفاس ومكناس وسجلماسة وتارودانت وتامكروت ومراكش... إلخ.

وقد جاءت بدايات هذا التواصل الثقافي والعلمي مع خروج الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي الذي لقي في طريق عودته من الحج الفقيه أبا عمران الفاسي (ت 430هـ)، وطرح عليه حاجة أهل الصحراء إلى من يعلمهم أمر دينهم، فاهتم هذا الأخير بالموضوع وبعث معه أحد خيرة تلامذته هو عبد الله بن ياسين الذي جاء للصحراء وبدأ يعلم الناس وأزال البدع ووحّد البلاد في إطار سني جامع.

لكن تعاظم شأن دولة المرابطين في الشمال وتصديها لحروب الاسترجاع في الأندلس وإخضاع أمراء الطوائف وتوحيد العدوتين وغير ذلك كان مشجعا لهجرة المؤرخين نحو الشمال، وهو ما يفسر صدودهم عن الصحراء ردحا من الزمن، حيث ترك ذلك فراغا في تاريخ المنطقة وعلاقتها مع محيطها. ومما لا شك فيه أن حركة التواصل الثقافي عرفت انتعاشا خلال عهد المرينين والسعديين ومع ذلك لا توجد مراجع توثق ذلك التواصل قبل العهد العلوي¹.

1 - الصلات العلمية بين علماء شنقيط وعلماء فاس في عهد الدولة العلوية. محمد الأمين بن محمد بيب. مجلة الغنية عدد مزدوج 2 و3. ربيع الثاني 1434هـ، مارس 2013م ص 12.

وقد أدى اهتمام سلاطين المغرب العلويين بالعلم وحلقات النقاش والمناظرة إلى توطيد العلاقات بالعلماء الشناقطة، ومن ذلك تقرير ملك المغرب عبد الحفيظ بن الحسن على كتاب للشيخ محمد حبيب الله بن مايابى الشنقيطي، الذي ختمه بقوله: كتبه عبد الحفيظ المالكي مذهبا والأشعري عقيدة².

وكثيرا ما كان الشناقطة يعرفون أنفسهم من خلال الهوية الدينية والثقافية المشتركة للبلدين فيختمون بها رسائلهم ويجعلونها فواتح لأنظامهم؛ فهاهو الشيخ محمد المامي بن البخاري يقول معرفا بنفسه: في أول نظمه للقواعد المالكية (صداق القواعد):

قال عُيَيْدُ رَبِّهِ الْمُقْتَدِرِ ❀ مُحَمَّدُ ابْنُ الْبُخَارِيِّ الْأَشْعَرِيِّ
الْقَادِرِيُّ الْمَالِكِيُّ الْمَذْهَبِ ❀ الْمَغْرِبِيُّ الْبَارِكِيُّ النَّسَبِ

وهكذا فقد تجلت قوة تلك العلاقات في دعوة بعض علماء الشناقطة لمبايعة سلطان المغرب، وهو ما لقي ترحيبا كبيرا بين الأهالي لغياب إمام للمسلمين في شنقيط، ونظرا لما يترتب على عدم نصب الإمام من فتن فقد بايع العلامة الطالب أحمد بن اطوير الجنة سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام، وغيره كثير³.

وكما اتضح فلم تقتصر الروابط الشنقيطية المغربية على مجال العلوم والمعارف، بل شملت أيضا الجوانب السياسية والاجتماعية، فقد زار المولى إسماعيل بلاد شنقيط وتزوج من أختائه بنت بكار بن أعلي بن عبد الله زعيم منطقة لبراكة⁴ وكانت أمّا لابنه المولى عبد الله⁵. وفي الجانب السياسي رحب السلطان عبد العزيز بن الحسن بوفد المقاومة الموريتانية لما زاره يطلب دعمه للتصدي للمستعمر الأجنبي، فقدم لهم كمية من العتاد وبعث معهم ابن عمه مولاي الحسن بن مولاي إدريس الذي شارك في معركة انيملان المظفرة وفي حصار تجكجة⁶.

بدأت روابط التواصل الثقافي والعلمي بين البلدين بالرحلات المتبادلة، مما ساهم في وحدة المكون الفقهي والعقدي، وعزز الانسجام في السلوك والممارسة، وستتناول هذه المكونات كما يلي:

2 - السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص: 238، الطيب بن عمر بن الحسين المحقق، دار ابن حزم، بيروت الطبعة: 1، السنة: 1416هـ.

3 - الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، إزيد بيه ولد محمد محمود، ص: 207، ط2، 2003.

4 - تقع في الجنوب الموريتاني

5 - تاريخ ابن اطوير الجنة الطالب احمد بن طوير الجنة الحاجي الوداني. تحقيق سيدأحمد بن أحمد سالم. ص: 45. منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط. 1995.

6: بلاد شنقيط المنارة والرباط. الخليل النحوي ص: 335 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987.

1- الرحلات المتبادلة بين المغرب وشنقيط

أ- الزيارة المغربية لبلاد شنقيط:

نعرض هنا لنماذج من آثار علماء المغرب الذين زاروا بلاد شنقيط، والذين يعود لهم الفضل في نشر الدعوة الوسطية في هذه البلاد:

1- عبد الله بن ياسين⁷:

أسس رباطه في الصحراء وبدأ بالدعوة والتعليم وتدرج حتى وصل مرحلة الجهاد وفتح الصحراء لتصبح دولة إسلامية بعد أن كانت قبائل أمية متناحرة، حيث كان مرشداً، وإماماً وقاضياً، في نفس الوقت لدولة المرابطين في عهد يحيى بن إبراهيم، ومن أحكامه، أخذه لثلاث الأموال المختلطة لتطيب بقيتها كما فعل مع قبيلة لمطة، وكان يعزر من يتخلف عن الصلاة عشرين سوطاً وخمسة أسواط لمن تفوته الركعة الواحدة⁸. وغير ذلك من الأحكام التي كان الرجل يجتهد ويحكم بها في بيئة عvisية على الطاعة في تلك الفترة.

2- أحمد الذهبي: شريف تلمساني، وفقهه، رحل إلى مدينة شنقيط في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، وأقام بها مدة، يدرس علوم الدين، وهو أول من درس مختصر خليل بن إسحاق في مورتانيا⁹.

3- الشاب الشاطر: وهو شريف علوي حسني من أهل مدينة فاس ذكره البرتلي باسم الشريف الشاب، وقال إنه كان حياً في عام 1045هـ، وأشاد بعلمه، وقد انتخب أربعة من نوابغ الطلاب ليعلمهم ولما أراد السفر قال لهم "تركتم فيكم المحمدين والعبدلين. وقد اختار من هذه المجموعة الطالب محمد بن الأعمش الذي هو أحد المحمدين، ولم يعين صاحب الوسيط من العبدلين سوى القاضي عبد الله بن الطالب محمد قائد هجرة العلويين من شنقيط إلى بلاد القبلة¹⁰.

7 - عبد الله ابن ياسين: هو عبد الله بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، أصله من قرية "تماماناوت". راجع: فقه التمكن عند دولة المرابطين، د. علي محمد الصلاحي ص: 21. ط 1، 2006). وأمه تنسب إلى قبيلة كزولة. ويعتبر بعض الدارسين أن تماماناوت هي ذاتها تامانارات، الواقعة في جنوب المغرب الأقصى، وأن معنى الكلمة هو "الجو الفاصل" باعتبار أنها تفصل بين منطقتين متمايزتين من حيث المناخ والظروف الطبيعية الأخرى (صحراء الملثمين الناني ولد الحسين، ص: 359).

8 - التاريخ القضائي في كبريات النزاعات القضائية في مورتانيا محمد بن ولد حمين ص: 84.

9 - تاريخ ابن أطوية اللجنة الطالب أحمد بن أطوير اللجنة الحاجي الوداني. تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم. ص: 227 منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط. 1995. وكذلك بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص: 73.

10 - الوسيط في تراجم أدياء شنقيط. أحمد بن الأمين الشنقيطي ص: 578، ط 1، 1329هـ. راجع كذلك بلاد شنقيط المنارة والرباط، ص: 73، وأيضا: السلفية وأعلامها في بلاد شنقيط ص: 227.

ب- رحلة الشناقطة إلى المغرب:

تعتبر الرحلة في طلب العلم مسألة قديمة، فقد أخبرنا القرآن برحلة موسى عليه السلام ولطلبه العلم على يد الخضر عليه السلام كما أنها قد تكون واجبة قال الله عز وجل:

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾¹¹.

وسلك الصحابة نفس الطريق لطلب العلم والبحث عن الطريق المستقيم ومن ذلك قصة أبي ذر لما خرج يسأل عن خبر النبي ﷺ، وهكذا سار الشناقطة على نهج السلف الصالح في طلب العلم، فجابوا حواضر المغرب وكانت لهم مواقف مشهودة مع علمائها وسلاطينها ومنهم:

1. ابن رازكة¹²، وقد ترجم له البرتلي، فيقول: عالم فذ كان عارفا بعلم الأصول، وماهرا في المنطق، أخذ عقائد أهل السنة، وعلم المعاني والبيان والمنطق ممن أدركه من علماء المغرب الأقصى والسوس الأدنى كالسيد أحمد العطار، وأبي مدين القاضي الأكبر، وغيرهما¹³.

وقد قال ابن رازكة يمدح السلطان سيدي محمد بن مولاي إسماعيل:

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا ❀ وسمها بحور الآل تسبحها سبحا
ولا ترعها إلا الذميل فظالما ❀ رعت ناضر القيصوم والشيخ والطلحا
ولا تصغ للنهالين فيما نويته ❀ وخف حيث يخفى الغش من يظهر النصحا
فكن قمرأ يفري الدجى كل ليلة ❀ ولا تك كالقمري يستعذب الصدحا
وقارض هموم النفس بالسير والسرى ❀ على ثقة بالله في نيلك الربحا
وأم بساط ابن الشريف محمد ❀ مبيد العدا ذكرا ومبدي الهدى صباحا
فتى يسع الدنيا كما هي صدره ❀ فأضحى به صدر الديانة مندحا
ومن هو غيث أخضل الأرض روضه ❀ فلا يظما لأوي إليه ولا يضحى
فتى يستقل البحر جود بنانه ❀ على حالة استكثار حاتم الرشحا
تزيد على الفاقات فيضات كفه ❀ فيغرق في التيار من يأمل النصحا

11 - التوبة الآية 123.

12 - هو عبد الله بن محمد العلوي، الوسيط ص 4.

13 - شرح ودراسة وتحقيق ديوان ابن رازكة، محمد سعيد بن دهاه ص: 15، 16.

حتى يقول:

أبوك لحكم الشرع ولأك عهده ❀ فلم تلق كدًا للسؤال ولا كدحا
وأعطاكه إذ ليس غيرك أهله ❀ وللعقل نور ميز الحسن والقبحا
كفى باتخاذ المال في القصد يمنه ❀ فلسنا نخط الرمل أو نضرب القدحا
مهيّب مخوف بطشه تحت حلمه ❀ عفو يرى إلا عن الباطل الصفحا

ومن تلاميذ ابن رازكة الذين اشتهروا بعده ونشروا العقيدة الأشعرية على نطاق واسع المختار ابن بون حامل لواء الأشعرية في بلاد شنقيط.

2. الشيخ محمد عبد الله بن أبي بكر¹⁴، وقد درس على الشيخ أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي القراءات العشر، وعلوما أخرى، وعاد إلى أهله بمكتبة كبيرة، وقد وصفه البرتلي بأنه:

"كان إماما جليلا، صدرا من صدور العلماء بحرا من مفاخر النجباء، لا تكدره الدلاء، محبا للسنة مميتا للبدعة انتهت إليه رئاسة الإقراء ببلاد التكرور في زمانه وبعد صيته"¹⁵.

3. العلامة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، الذي رحل إلى الحج وفي طريقه مر بالمغرب ومكث فيها عدة سنوات درس خلالها على عدد من علمائها أمثال: الشيخ البناني محشي شرح عبد الباقي الزرقاني، على مختصر خليل بن إسحاق، والشيخ التاودي المعروف بابن سودة، وعمر الفاسي (ت1188هـ) شارح لامية الزقاق، كما أخذ أيضا الطريقة الشاذلية، وعاد إلى بلاده حاملا معه مكتبة ضخمة¹⁶.

وبعد عودة العلامة سيدي عبد الله من الحج لقي مكانة خاصة لدى سلطان المغرب إذ حدثت بينهما قصة طريفة تكاد تتفق جل المصادر عليها¹⁷، وهي أن السلطان محمد بن عبد الله بن مولاي إسماعيل لما سمع بمقدم سيدي عبد الله، أرسل يستقدمه فامتنع ورد عليه قائلا: العلم يؤتى ولا يأتي، فأمر جنوده أن يحملوه على الهيئة التي يجدونه عليها، فوجدوه على سرير يطالع كتابا فحملوه

14 - هو: أبو محمد عبد الله بن أبي بكر التنواجوي، فقيه لغوي، أشعري العقيدة، له اليد الطولى في علوم القراءات، وقد وجد الناس يلحنون في القراءات في بلاد شنقيط ويصحفون في الحروف، فأزال اللحن والتصحيح عنهم، الخليل النحوي، ص: 112، والسلفية وأعلامها في بلاد شنقيط، ص: 237.

15 - فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور: ص: 208، 209، والخليل النحوي، ص: 112. سابق.

16 - السلفية وأعلامها في بلاد شنقيط، ص: 237، راجع أيضا: فتح العليم في معرفة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم.

17 - راجع: فتح الشكور في علماء تكرور الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، وهدية الصمد في مناقب الجد.

وأتوه به دون أن يغير شيئا من حالته التي وجدوه عليها فلما استنطقه وذاكره صار لا يصبر عن مذاكرته وجعله أقرب الناس إليه لأن السلطان كان من علماء عصره، فأحبه سيدي عبد الله كذلك وأثنى عليه¹⁸:

4. كما رحل أيضا محمد الحافظ بن محمد المختار بن حبيب العلوي المتوفى عام 1236هـ، لأداء مناسك الحج وفي عودته هو الآخر مر بالمغرب واستقر فيه عدة سنوات، وأثناء إقامته في مدينة فاس، لقي بها أحمد بن محمد المختار التيجاني المتوفى عام 1230هـ وأخذ عنه طريقته، ثم عاد إلى بلاده بعد أن نهل من العلوم والمعارف فأصبح أشعريا تيجانيا مشهورا¹⁹.

كما كان بعض الشعراء الشناقطة يتصلون بالملوك العلويين قصد مدحهم والكتابة لهم، فـ "ثقافة الصحراء كانت دائما ثقافة تواصل، حيث نجد العلماء والأدباء الصحراويين يتوافدون على أقاليم الشمال، إما للدراسة والتدريس وإما للاتصال بالملوك، قصد مدحهم أو الكتابة لهم"²⁰.

2- الروابط العقدية بين المغرب وشنقيط

بدأت العقيدة الأشعرية تنتشر وترسخ في القطر الموريتاني حين ظهر علماء أشاعرة في المغرب، ونقلت مؤلفاتهم إلى المحاضر الشنقيطية، واعتمدت في مقرراتها²¹، فقد اتجهت أفواج من خريجي المحاضر إلى علماء المغرب، واعتنوا بمؤلفات السنوسي في العقيدة الأشعرية، عناية فائقة جعلتهم يستوعبونها حفظا وفهما وينظمونها وينظمون شروحها. ومن أشهر العلماء الشناقطة الذين أخذوا العقيدة الأشعرية من علماء المغرب العلامة ابن رازكة والذي أخذ عنه علماء أفذاذ اشتهروا بعده ونشروا العقيدة الأشعرية على نطاق واسع أمثال: العلامة المختار بن بون حامل لواء الأشعرية حيث ألف نظما عقد به الصغرى والوسطى والكبرى للسنوسي وسماه (وسيلة السعادة) يقول فيه:

نظما حوى عقائد الشريف ❀ محمد السنوسي الظريف
لخصت فيه ما حوته الصغرى ❀ مع ضمن وسطاه وضمن الكبرى
سميته وسيلة السعادة ❀ في نشر ما تضمن الشهادة²²

18 - فتح العليم في معرفة سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، ص: 39.

19 - بلاد شنقيط المنارة والرباط. الخليل النحوي، ص: 111، والسلفية وأعلامها في موريتانيا، ص: 237.

20 - ثقافة الصحراء، عباس الجراري، 1987م، ص: 35، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

21 - السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص: 229.

22 - وسيلة السعادة مخطوط، ص: 6، نقلا عن السلفية وأعلامها في موريتانيا، ص: 230.

وقد ظهر بعد السنوسي²³، ابن عاشر²⁴ وكان لكتبه رواج كبير في البلاد الموريتانية، وخاصة كتابه المرشد المعين على الضروري من علوم الدين الذي يعتبر مقدمة للمبتدئين. ويحتوي على مقدمة عقدية على طريقة الأشاعرة إضافة إلى أبواب العبادات وخاتمة في علم السلوك.

3- الروابط الفقهية بين المغرب وشنقيط

شمل المكون الفقهي في بلاد شنقيط عدة تيارات، فالتيار الأول أخذ أصحابه نهج شيوخ المذهب في المغرب والأخذ بالعلوم الشرعية ووسائلها المختلفة والميل إلى التقليد في الفروع. ومن أبرز أعلام هذا التيار عبد الله بن الطالب محمد بن حبيب العلوي في شنقيط (ت 1103هـ-1691م). يقول النابغة القلاوي:

والاجتهاد في بلاد المغرب ❀ طارت به في الجو عنقا معرب²⁵
ويقول محمد ولد محمدن فال:

وأهل مغرب عليهم يمنع ❀ غير الإمام مالك أن يتبعوا
لفقد غيره وكل خارج ❀ عن نهجه فهو من الخوارج²⁶

أما التيار الثاني فقد دعا أصحابه إلى العمل بظاهر الكتاب والسنة وإجماع القرون المزكاة ودعوا إلى الرجوع للأهميات والتخفيف من التمسك بالفروع، ومن أبرز رواد هذا التيار محمد بن حبيب الله لمجيدري (ت 1205هـ-1790م).

4- الروابط الصوفية بين المغاربة والشناقطة

أخذ العلماء الشناقطة طريقة الإمام القاسم الجنيد البغدادي (ت 297) على غرار نظرائهم المغاربة والتي لخص مبادئها ابن عاشر في نظمه المرشد المعين على الضروري من علوم الدين :

23 - أبو محمد بن يوسف الحسني السنوسي الفقيه، من أشهر علماء الأشعرية في بلاد المغرب، له مؤلفات كثيرة منها: الكبرى وشرحها والوسطى وشرحها والصغرى وشرحها، توفي في تلمسان 895هـ.

محمد يوسف مقلد شعراء موريتانيا القدامى والمحدثين، ص: 465، والوسيط، 84.

24 - هو أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري الأندلسي والفاسي، له مؤلفات عديدة في العقيدة وعلم القراءات وعلم الكلام والأصول والفرائض وغيرها، توفي عام 1040هـ.

25 - نظم بوطليحاية، النابغة القلاوي، تحقيق، يحي ولد البراء ص: 1.

26 - التاريخ القضائي وكبريات النوازل القضائية في موريتانيا، محمدن ولد هين، ص: 81.

وَتَوْبَهُ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يُجْتَرَمُ ❁ تَجِبُ فَوْراً مُطْلَقاً وَهِيَ النَّدَمُ
بِشَرْطِ الإِقْلَاعِ وَنَفْيِ الإِصْرَارِ ❁ وَلَيِّتْلَافَ مُمَكِّنَا ذَا اسْتِغْفَارِ
وَحَاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنَابٌ وَامْتِثَالٌ ❁ فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ بِذَا تُنَالُ

حتى يقول:

يَصْحَبُ شَيْخاً عَارَفَ الْمَسَالِكِ ❁ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكِ
يُذَكِّرُهُ اللَّهَ إِذَا رَأَاهُ ❁ وَيُوصِلُ الْعَبْدَ إِلَى مَوْلَاهُ.....الخ

كما كان للطرق دور كبير في نشر الإسلام والتواصل بين المغرب وشنقيط حيث كانت الطريقة القادرية ممثلة في الزاوية الكتبية والفاضلية، وكذلك الطريقة الشاذلية التي تمر سلسلتها في موريتانيا بالشيخ محمد بن ناصر الدرعي (1036هـ-1626م)²⁷، لتأتي بعد ذلك الطريقة التيجانية حيث وفد علماء شناقطة إلى أبي العباس أحمد التجاني مؤسسها في فاس، وتلقوا عنه الطريقة التيجانية وكان على رأسهم الشيخ محمد الحافظ ابن المختار بن حبيب العلوي (ت 1247هـ)، فبدأ بقبيلته التي هي من أكثر قبائل موريتانيا علماً²⁸ وأخذ عنه مشايخ من قبائل شتى مما أسهم في نشرها في مناطق البلاد وما جاورها من بلاد السودان الغربي

5- الروابط السياسية ومقاومة الاستعمار

انتبه المستشرقون لعمق العلاقات التي تربط البلدين على جميع الأصعدة وبالأخص الصلات الروحية والعلمية، فيرى المستشرق ليون فابير Léon Fabert أن علماء ومشايخ الطرق الصوفية لقوا مكانة وتقديراً كبيرين لدى ملوك المغرب، وقد انفرد بعضهم بحظوة أكبر مثل الشيخ ماء العينين حيث كانت تقدم له الهدايا من طرف السلطان المغربي كما يقول فابير²⁹.

ويضيف بول بلانشي أن الأهالي في شنقيط ورغم مبايعتهم لأمير البيطان كزعيم سياسي فهم على بيعه للسلطان المغربي كخليفة للمسلمين، وقد أدرك ذلك عندما وقع في الأسر أثناء قيامه بمهمة استطلاعية في منطقة آدرار وكان برفقته المترجم السنغالي دودو سك (ابن المقداد)، حيث رفض السكان إخلاء سبيله، وطالبوا ببعثه إلى سلطان المغرب ليفتدي به مساجين من المسلمين.

27 - تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، ص: 152، سابق.

28 - القادرية في موريتانيا رسالة ماجستير، إعداد محمد الداه أحمد، إشراف: عبد الشكور محمد أماني لعروسي، ص: 179، ج: 1،

1412هـ، جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة.

29 - Léon Fabert, Voyage dans le pays des trarzas et Sahara occidental, p : 385, 1892, AFA.

يقول بول بلانشي: "...وقد عرف الأمير الحالي المختار ومن قبله أحمد كيف يحافظ على نوع من الاستقلالية رغم قبوله الاتفاق والضريبة العرفية من سين لوي، واعترافه بسلطان المغرب زعيما دينيا، هذا السلطان الذي رغب الأهالي من حسان وزوايا في إرسالنا إليه كمساجين لعقابنا كما يقولون على دخولنا تراب السلطان"³⁰.

وقد كانت لأعل شنظوره - وهو أحد أمراء اترارزة - صلات بالعالم والشاعر ابن رازكة، حيث صحبه أعل شنظوره في رحلته إلى المغرب لطلب الاستعانة بالسلطان المغربي وكسب صراعه مع أبناء عمومته على إمارة الترارزة. هذه التطورات الداخلية تفتن لها المستشرقون وسطرها بول مرقى إذ يقول: إن أعل شنظوره كانت له صلات قوية بالسلطان المغربي مولاي إسماعيل حيث كان يطلعه على أحوال الإمارة وقد تطورت الأوضاع حتى طلب أعل شنظوره من السلطان مساعدته في الاستيلاء على الإمارة³¹.

ويضيف "كرستيان فاناكر" ملاحظا لنفس التطورات أن علاقة إمارة اترارزة بالمملكة الشريفة تطورت بشكل كبير مع حكم أعل شنظوره الذي أهدي ختم السلطة الشريفة وهو الختم الذي أعاده إلى أمير المؤمنين في بداية القرن 18³².

ولما أصبح المحتل على الأبواب اجتمعت قبائل البلاد الشنقيطية³³ وقررت إرسال ركب إلى الشيخ ماء العينين بمقر إقامته في اسماره بالصحراء ومنه إلى سلطان المغرب لطلب المساعدة بالعتاد وعدة الحرب لمواجهة الاحتلال: "وقد حل الركب بمراكش سنة 1906 فأعطاهم السلطان عبد العزيز كمية من العتاد وبعث معهم ابن عمه مولاي الحسن ابن مولاي إدريس الذي شارك في معركة انيملان المظفرة وفي حصار تجكجة"³⁴.

30 - من تقرير بلاشي وثائق من التاريخ الموريتاني (نصوص فرنسية غير منشورة)، ترجمة وتحقيق وتعليق، محمد بن محمد بن. ص: 222. منشورات جامعة نواكشوط، المطبعة الجديدة، نواكشوط (موريتانيا) 2000.

31 - Paul Marty, Etudes sur l'islam et les tribus maures, p: 69.

32 - السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية 1900-1969. ص: 70. محمد الراطي بن صدي. المطبعة الوطنية الموريتانية بدون السنة.

33 - ممثلين من قبيلة الأقلال وإدو علي وتجكانت وأهل سيدي محمود ومشظوف والسمايد والرقبات وتكنة وأولاد أبيري وأولاد بالسباع وأولاد دليم ولعروسيين ومسومة وأولاد عامني والطرشان وإدابلحسن وأديسات وأهل بوحين وأولاد اللب وإدوعيش وإدشلي وتاكاط واجيجبة وغيرهم. بلاد شنقيط المنارة والرباط. ص: 335.

34 - بلاد شنقيط المنارة والرباط. سابق ص: 335.

وقد رصد المستشرق "روسو" هذا الموقف بقوله إن المقاومة المسلحة في آدرار ما كانت لتكون لولا مساعدة السلطان المغربي : "هذه الجهود الموحدة لم تكن لولا رعاية الشريف مولاي إدريس في آدرار..."³⁵. وهو ما دفع الإدارة الاستعمارية إلى وصف بعض الزعامات الدينية بأنها تثير الفرع ضد الفرنسيين ومنهم الشيخ ماء العينين بسبب مقاومته للاحتلال. يقول روسو: "فمؤامرات الشيخ ماء العينين تتواصل فهذا الشيخ مثير للقلق، فمن أجل أن يبقى على شهرته، أثار ضدنا فدائيه ومناصريه في آدرار، وهو يعتبر حلقة الوصل بين المنشقين والسلطات المغربية"³⁶.

وقد جاء رصد الحركة الاستشراقية لهذا التواصل الروحي والعلمي والسياسي بهدف دراسة هذه العلاقات ومعرفة الآلية المناسبة لوضع حد لها، حيث نجحت القوة الاستعمارية في محاصرة البلاد الشنقيطية وقطع طرق إمداد المجاهدين بالسلاح والعتاد القادم من المغرب، حتى أخضعت البلاد بشكل تام، لكنها في المقابل لم تنجح في قطع الصلات الروحية والعلمية التي ظلت قائمة.

35 - Territoire civile de la Mauritanie J. Ross, p :4.

36 - Ibid, p :6.

أدب الجدل الديني من خلال "رحلة الشهاب إلى معانقة الأحباب" لأحمد بن قاسم الحجري

د. مصطفى الصمدي
كلية الآداب بنمسك

يخضر مصطلح الرحلة بقوة في التراث الإسلامي إلى درجة أنه يكاد يكون هو المحرك الأساسي للحركة العلمية والثقافية، فبالرحلة تنفست الدعوة الإسلامية هواء جديداً، بل وحفظت من الزوال، وكان المسلمون أول الراحلين من مكة إلى الحبشة على مرحلتين وهم يحملون مشروع الدعم المسيحي للديانة الإسلامية لدى النجاشي الملك النصراني العادل، ثم من مكة إلى المدينة بقيادة نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والتسليم، ومن المدينة إلى باقي الأصقاع في مهمة الإقراء والتعليم والتدريس والتبليغ.

ثم ينقضي العهد النبوي، فتكون الرحلة عاملاً من عوامل جمع الحديث وحفظه وتدوينه، وهكذا يكثر الراحلون إلى من عندهم علم بالسنة رواية وسندا وهم يستحضرون النصوص الدينية الباعثة على الرحلة والمحفزة إليها والمُبيِّنة لفضلها وثوابها، مما جعلهم يركبون الصعاب والذلول لتلقف الحديث والعلوم من أفواه الرجال مهما نأت المسافة وبُعَدَت الشقة.

ومن هذه النصوص مثلاً لا حصراً قوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾¹، وقول الرسول ﷺ "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة"².

وتنشط الرحلة كذلك طلباً للفتوى والمسائل والأقضية والمناظرة، فكانت بعض الحواضر الإسلامية التي استقر بها أصحاب المذاهب وشيوخ العلم ممن طبقت شهرتهم الآفاق وصارت

1 - سورة التوبة، الآية 123.

2 - الحديث رواه أبو داود في سننه 364/1، والترمذي في باب فضل العلم على العبادة.

بأخبارهم الركبان موئل الراحلين وملاذ التلاميذ وطلاب العلم لإرواء نهمهم العلمي وعطشهم المعرفي، وكلها رحلات مخوفة بالمغامرة والمخاطرة، لكن الثواب يعظم بالصبر مع سلامة القصد ونبيل المشروع.

وإذا كان طلب العلم عاملاً أساسياً للرحلة، فإن هناك سبباً آخر له دوره وأثره، وهو العامل السياسي، ذلك أننا وجدنا كثيراً ممن رحل من العلماء والنبغاء إنما رحلوا هرباً من الفتن السياسية والقلاقل الاجتماعية بحثاً عن الأمان والاستقرار.

ولعل خير من نخبرنا بهذا النوع من الرحلة، كتب التراجم التي تذكر كثيراً من هؤلاء الرجال عبر مراحل تاريخية محددة، وأماكن شهدت فتنًا ومشكلات سياسية، فنجد في الترجمة صاحب الرحلة وسببها ووجهتها والمحطات التي عرج عليها وأماكن الاستقرار.

هكذا تفعل الفتنة فعلتها في الأندلس مع بداية القرن الخامس الهجري بعد سقوط الخلافة فيخرج كثير من العلماء عن أوطانهم بعد أن تفرقت الأندلس أيدي سباً بحثاً عن جو الاستقرار ولم يرجع كثير منهم، وآخرون رجعوا بعد أن أمنت الفتنة واستقر الأمر للمرابطين³.

ولئن نعمت الأندلس ببعض الاستقرار فيما بعد، فإن فتنة أعم وأطم ستحدق بالوجود الإسلامي بعد أن تناثر عقد الأندلس حبة حبة، لم يبق إلا حصن غرناطة مقاوماً وممانعاً إلى أن سقطت مع نهاية القرن التاسع الهجري، وقبل الطرد النهائي عاش المسلمون زهاء قرن من الزمن فتن التنصير والاضطهاد ومحاكم التفتيش، وهي المحنة التي اكتوى بلظاها العلماء والعامة على السواء.

وفي هذا الجو الأليم يبرز اسم صاحبنا أحمد بن قاسم الحجري كأحد هؤلاء الأعلام الراحلين من الأندلس إلى المغرب بدافع الفتنة والخوف على الملة والدين، فكانت رحلة مغامرة انبنى عليها مشروع الدفاع عن الدين ومناظرة كبار القساوسة والرهبان، وهي الرحلة الموسومة في كتب التاريخ بـ "رحلة الشهاب إلى معانقة الأحباب".

1- من هو أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي

ولد عام 977 هجرية (1577م) حسبما يفهم من جملة كتبها بخط يده في حاشية كتابه "ناصر الدين على القوم الكافرين" بقرية قريبة من غرناطة تسمى الحجر الأحمر، ونشأ يبطن الإسلام ويظهر

3 - راجع تراجم كثير من هؤلاء في الصلة لابن بشكوال 430/2، ونفح الطيب للمقري وفيه حديث مطول عن الفتنة السياسية 385/1.

النصرانية، وعكف في صغره على دراسة اللغة القشتالية وآدابها حتى أتقنها إتقان الماهرين من أهلها وصار من يسمعه يتكلم بها لا يشك في أنه قشتالي أصيل، أما أحكام الشريعة الإسلامية وقواعد اللغة العربية فإنه تعلمها من أهل بيته ولكنه لم يكن يجزؤ على إظهار معرفته بها خوفاً على نفسه من التلف في ذلك الزمن العصيب، وعلى ذلك افضح أمره لما اكتشف أسقف غرناطة جان مينيديث دي سالفيرا أنه يحسن العربية، وسبب ذلك أنه كان يحضر مجالس تعقد تحت رئاسة الأسقف المذكور لترجمة نصوص عربية وجدوها يوم 19 ربيع الثاني عام 996 هجرية (18 مارس 1588م) في جدار صومعة الجامع الكبير التي أمر الأسقف بهدمها، وكان يحضر تلك المجالس تراجمة من المدجنين، فكان إذا أشكل عليهم لفظ دلهم الفقاي على معناه، والمرء مخبوء تحت لسانه، فعرف الأسقف أنه يجيد العربية وطمأنه للحاجة إليه، وعرف به الأسقف دون بيدرو كاسترو الذي خلفه لما مات وبقي يعقد مجالس الترجمة بعد وفاته⁴.

2- الإطار التاريخي لرحلة الحجري

لن نفهم شخصية الحجري التواق للرحلة إلا إذا وضعناه في سياقه التاريخي، فالرجل عاش في غرناطة بعد سقوطها في أيدي النصارى سنة 1492م 897 هجرية، فشهد محاكم التحقيق والتفتيش، وعانى من ظروف القهر والاضطهاد التي فرضت على المسلمين الذين أصبحوا يسمون بالمدجنين لأنهم أرغموا على التنصير، فعاشوا يظهرن النصرانية ويبطنون الإسلام، وهكذا كان ابن القاسم الحجري يمني نفسه بالهجرة والهروب من هذا الجو، فظل يتحين الفرصة للرحلة إلى بلاد المغرب الأقصى لينعم ببركة دار الإسلام ويلحق بإخوانه في الملة والدين.

وهكذا سيتجه إلى المغرب متخفياً ومتنكراً على ظهر سفينة محملة بالقمح كانت متوجهة إلى ميناء البريجة (الجديدة حالياً) فلم يتفطن له من كان معه من النصارى نظراً لبشرته البيضاء وسحته الإسبانية ثم إتقانه اللغة القشتالية حيث يقول: "ولما أن جئت إلى البلاد التي هي على حاشية البحر حيث هو الحرس الشديد وجلست بينهم فلم يشكوا في بما رأوا من الكلام والحال والخطابة، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين"⁵.

4 - عبد الوهاب بن منصور / أحمد الفقاي الحجري آخر موريسكي يؤلف بالعربية ويدافع جهرة عن الإسلام ص 7.

5 - انظر الباب الثاني من كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين / باب قدومنا إلى بلاد المسلمين، وما اتفق لنا عند خروجنا من بين النصارى سالمين / ص 35 / سلسلة المصادر الأندلسية للتعاون الدولي / تحقيق وتقديم وترجمة. شورد فان كونكسفلد، قاسم السامرائي، جيرارد فيخرز.

وهكذا فإن الحجري عاش بغرناطة زمن الاضطهاد الديني، وخرج منها قبل قرار الطرد من طرف الملك فليب الثالث بحوالي اثني عشر سنة. على أن هجرات المسلمين من الأندلس كانت قد بدأت قبل قرار الطرد لكنها كانت اختيارية تزكيتها البواعث الدينية والإيمانية بحثا عن أرض الإسلام، وكذلك وجدنا بعض الفتاوى الفقهية في هاته المرحلة تحرم البقاء تحت ذمة النصارى، وهنا نستحضر الفتوى المشهورة لأحمد بن يحيى الونشريسي جوابا على سؤال ورد إليه من أهل غرناطة يسألونه عن حكم البقاء في بلاد عدا عليها النصارى وهل تلزمهم الهجرة، فكانت الفتوى الموسومة بـ "أسنى المتاجر في من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يستحق من العقوبات والزواج" ⁶. فاستجاب لها كثير من الأندلسيين فهاجروا ورحلوا وفي طريقهم إلى الشواطئ المغربية لم يسلموا من النهب والقرصنة والعدوان.

ثم صارت الرحلة بعد قرار الطرد إجبارية وإلزامية عمقت من جراح هؤلاء المدجنين الذين أصبح يطلق عليهم "الموريسكيون" وهي لفظة قذية تنتقص من عرقهم، وهي تصغير للفظـة "المورو" صاحب السحنة العربية ذي الديانة الإسلامية.

لقد عز على هؤلاء المهجرين فراق الديار، فكانت مأساة إنسانية لا تزال الدراسات والأبحاث تترى بشأنها وتتوالى، وفي هذه المرحلة كان الحجري يدعو الله وهو بالمغرب أن يفرج عن إخوانه هناك، وهو العارف بما كانوا عليه من قهر وظلم واضطهاد.

يقول في مقدمة كتابه ناصر الدين على القوم الكافرين "من نعم الله تعالى علي أن جعلني مسلما في بلاد الكفار منذ أعرف نفسي... وقد جعل الله في قلبي محبة للخروج من بلاد الأندلس مهاجرا إلى الله تعالى ورسوله والقدوم إلى بلاد المسلمين، وقضى الله تعالى الغرض والمراد وبلغنا إلى مدينة مراكش بالمغرب، وبعد ذلك باثني عشر سنة فرج الله تعالى على المسلمين بالأندلس الذين كانوا فيها تحت قهر النصارى وظلمهم، فأمر عليهم سلطان البلاد المسمى بفليب الثالث بالخروج جميعا من بلاده، واتفق لكثير من المسلمين، وجاءوهم كل واحد من الرياس في سفينته، وبعد أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين وأربعة من تلك السفن المنهوبة خرجت بالمغرب الأقصى فأحسن المسلمون البربر بالأندلس وجاءوا إلى مدينة مراكش، وهي دار سلاطين المغرب

6 - راجع الفتوى بتفصيل في المعيار المغرب للونشريسي 133/2.

وطلبوا من السلطان مولاي زيدان بـ ... أن يأذن لهم في إرسال بعض أصحابهم مع رجل من الأندلس⁷.

لم يكن هذا الرجل الأندلسي إلا صاحبنا أحمد بن القاسم الحجري الذي سينتقل في رحلة لا تقل مغامرة عن رحلته الأولى من الأندلس إلى المغرب، وسينتقل من المغرب هذه المرة عبر ميناء أسفي إلى فرنسا وهولاندا في وساطة دبلوماسية لاسترجاع ممتلكات المسلمين التي نهبها الإفرنج أصحاب السفن، وكذا افتكاك كثير من الأسرى المسلمين في السجون النصرانية.

لقد تخللت هذه الرحلة الشهيرة مناظرات دينية مع كبار القساوسة والرهبان يظهر فيها حس الرجل الذكي في هذا المجال، وعلمه الغزير بالتوراة والإنجيل مما مكنه من إفحام مناظريه لكن بأدب وحلم.

إن رحلة الشهاب لتعد بحق درسا في فن المناظرة والجدل الديني، فالرجل وإن كان تكوينه اللغوي مقبولا بالنظر إلى الواقع الذي عاش فيه وهو يخفي إسلامه وعربيته ثم تدهور اللغة العربية بسقوط دولة الإسلام، بالرغم من كل ذلك فإني وجدت له حسا فقهيا وعقائديا مفعما بالمنطق والحجاج العقلي، ينضاف له اطلاعه الواسع على معتقد المخالف في الشريعة والدين، الشيء الذي مكنه من تفنيد مزاعمهم وشبهاتهم حول الإسلام عقيدة وشريعة، وكثيرا ما انقلبت طعونهم حجة عليهم، ويختم في الغالب جداله معهم بقوله "فبهت الذي كفر" "وجعل بعضهم ينظر إلى بعض" "ولم يدروا ما يقولون"...

إن هذه المناظرة الشيقة لتعد بحق رحلة في الزمان والمكان، وجولة في الأفكار والمعتقدات تخللتها مجالس عنوانها البحث عن المشترك العقدي وأخوة الدين، مع وصف التقاليد والأعراف وطرق العيش والطعام وحال الرجال مع النساء وغير ذلك...

وقد مكنتني تتبع فصول هذه الرحلة من التقاط عناوين كبرى ميزت شخصية الحجري في مجال الحوار الديني، منها ما يلي:

أ- إيراد المثال وإظهار الرغبة في الأخوة والمحبة:

قال له قسيس اشبيلية يوما "إنكم لا تمشون إلا بعضكم مع البعض ولا تعطون بناتكم للنصارى ولا تتزوجون مع النصرانيات. قلت له لماذا تتزوج النصرانيات، وكان بمدينة انتقرا رجل

7 - انظر كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين ص 10.

من قرابتي عشق بنتا نصرانية، ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة إلى الكنيسة ليتم النكاح... أخذ عنده سيفاً لأن قرابتها حلفوا أنهم يقتلونه في الطريق، وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد من أقاربها بل يتمنون موته وموتها، والنكاح لا يكون ليتخذه الإنسان أعداء بل أحباباً وقرابة.

قال لي والله إنك قلت الحق، وتودعنا بخير وذهبت. وما ذكرت له عن الأندلسي والنصرانية كان صحيحاً وأسلمت على يده وحسن إسلامها غاية الحسن وأسلمت على يدها أمها عجوزة⁸.

ب- مناظرة بمدينة "روان الفرنسية" غاية في الحكمة:

يقول أبو القاسم الحجري: "ثم مشينا إلى مدينة روان وجاء إلينا تاجر كنت عرفته في مراکش اسمه "قرط"، ولطول مكثه ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غاية، وبدأ يتكلم في دين المسلمين ويشكر دينه، وقال (المسلمون في دينهم مباح الزنا والسرقة) قلت هذا باطل. قال بل صحيح، لأنني سمعت علماءكم يقولون أن بعضاً سأل نبيكم قال. المؤمن يزني. قال له يزني. قال المؤمن يسرق. قال يسرق. قال أيضاً. المؤمن يكذب. قال له المؤمن لا يكذب. قلت له المؤمن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده شرعاً، وإذا زنا المحصن يرجم إلى أن يموت"⁹.

وهكذا فإن الحجري يفقه الحديث جيداً، فالمؤمن يطبع على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب.

ج- تدوين المشترك العقدي:

وللحجري علم بفرق النصارى واختلافاتهم العقدية، لكنه يبحث عما يجمع الأديان التوحيدية الثلاثة، يقول: "وقد وقع لي كلام في مدينة روان مع قاضي القضاة بعد أن زرته وكان يعرف اللسان العجمي الأندلسي فسألني عن مسألة في ديننا لأنهم كانوا مختلفين فيها- أعني أصحاب البابا- وكان القاضي على مذهبه وبين النصارى الذين يكفرون به وبكل ما يقول ما عدا التثليث لأنهم متفقون فيه، وذلك أنه قال لي: إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له. ففرح وانشرح له لأنه موافق لاعتقادهم، والذين يكفرون بالباب من النصارى يقولون إنه لا يصل للميت دعاء ولا صدقة ولا شيء من الدنيا بعد موته"¹⁰.

8 - ناصر الدين ص 33.

9 - ناصر الدين ص 46.

10 - ناصر الدين ص 48.

د- مناظرة بباريس يظهر فيها الحجري علمه الواسع بالتوراة:

ويمضي الحجري في رحلته وهو يحتاج هذه المرة راهبا في مسألة عقيدة التثليث. يقول "... قال الراهب. الله تبارك حين خلق الدنيا أمر كل شيء من المخلوقات في الدنيا أن يخرج وينبت ويلد على طبعه ونوعه ومثله، ورأى الله تعالى أن ذلك صلاح، فعرفت أن هذا القول أخذه من الباب الأول من التوراة، قال لي ماذا تقول أفعل ذلك صلاح؟ قلت نعم كلما أمر الله تعالى به فهو صلاح، قال، حين رأى الله تبارك وتعالى أنه صلاح أن كل شيء يخرج ويلد على طبعه ومثله، قال: ماذا تقول قلت له: على هذا القياس كان سيدنا عيسى يحتاج أن يكون له ولد مثله وابنه يكون ابن آخر فتكثر الآلهات إلى ما لا نهاية لها.

قلت له ماذا تقول. فبهت وبقي بورقته مبطله غير مقبولة وكذبه ظاهر. قال تعالى ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا بآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ وذهبنا عن الراهب¹¹.

و- مناظرة حول الخمر ويستدل فيها الحجري بنصوص من الإنجيل:

وفي باريس أيضا جرت له مناظرة مع أحد قضاتها المرموقين، حيث قال له القاضي مخاطبا "ما السبب حتى منعتم نبيكم الخمر، قلت منعه الله تعالى لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم هو العقل والذي يزيله هو الخمر وهو أقبح المسائل كلها، قال. حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الإنسان منه حتى يسكر.

قلت . ظهر أنه ممنوع لكم في الإنجيل ولا انتبهتم له. قالوا في أي موضع. قلت في الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى عليه السلام أن تدعوا وأوله (أبونا الذي في السماء ... إلى أن تقولوا ولا تدعنا نقع عند فتنة النفس. قالوا عندنا هذا. قلت . هل يجوز أن تأخذ الفتنة بيدك وتطلب أن لا يدعك تقع فيها. قال نحن نتحفظ في شربنا حتى لا يذهب العقل.

قلت لهم عندي أن من مثلكم قضاة وعلماء ومن أكابر الناس أن الإنصاف للحق موجود عندكم والبعد عن الكذب والباطل، وتكلموا بينهم وضحكوا جميعا، وبضحكهم اعترفوا بما رأوا من نفوسهم مرارا من الوقوع في الفتنة بكثرة الشرب¹².

11 - ناصر الدين ص 58.

12 - ناصر الدين ص 71.

ومن خلال هذا الحوار الهادئ يمكن استنتاج ما يلي:

- الجلوس إلى مجلس الحوار.
- الاطلاع على فكرة المحاور وعقيدته
- الذكاء في ترتيب الأدلة.
- سعة الاطلاع على الشريعة.

يقول مثلاً "طالعت كتاباً من كتبكم بالأعجمية وفيه (إن في مدينة كبيرة بإيطاليا من بلاد النصرى أن من يحكم بين الناس لا يشرب خمرًا ما دام في سنة حكمه... فمنعوها لما فيها من المفاسد). فحينئذ أخذوا في الكلام فيما بينهم وقالوا لي. نحن رأينا رجالاً من أهل دينكم وتكلمنا معهم ولم نر قط من قال لنا مثل هذا الكلام، والأجوبة ومن كان في تلك الدرجة يحتاج أن يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصرى"¹³.

هـ- الحجري يقع في فتنة حب فتاة بمدينة بوردو بعد أن راودته عن نفسه :

وأشد فتنة اعترضت صاحبنا في الديار الفرنسية وقوعه في غرام شابة جميلة في ضيافة صاحب الطابع بضواحي المدينة، لكنه حاول أن يدفع الهوى عن نفسه وهو يحاورها في صراع مرير مع نفس تتجاوزها الغواية الشيطانية والخشية الربانية، ولنقرأ نفسيته وهو يحكي ما وقع له، يقول: "وكانت في تلك الديار بنت من قرابته (قرابة صاحب الطابع) ذات مال عظيم مما ترك لها والداها، وهي من أربع وعشرين سنة، ولها من الحسن والجمال كثير، وطلبها للزواج كثير من أكابر أهل بلادهم ولم ترض بأحد منهم... ثم جاءت البنت وقالت لي أن أصف لها حال النساء اللاتي هن في غاية الحسن والملاحة عندنا، فذكرت لها ما تيسر، وكانت البنت تزين نفسها وتسالني هل في بلادنا من تلبس لباس الحرير مثلها، ثم قالت لي أعلمك تقرأ بالفرنجة، وصرت تلميذا لها، وأخذت في إكرام أصحابي... وكثرت المحبة بيننا حتى ابتليت بمحبتها بلية عظيمة، وقلت قبل ذلك كنت في خصام مع النصرارة على المال، وفي الجهاد على الدين، الآن هو الخصام مع النفس والشيطان... وكنت أخرج إلى بين الأشجار وأدعو الله أن يثبتني، فمشى إبليس إلى صاحب من أصحابي وكان أكبرهم سناً ووسوسة، واتفق معه أن يكلمني في شأن البنت، وكنت أخفي ما أصابني من الهم بسبب البنت عن أصحابي، ليلا يظهر لهم ضعف مني، إذ كنت أقويهم أن يغلبوا نفوسهم عن النساء المحرمات والميل

لهن، فجاءني صاحبي على وجه السر والنصح وقال لي. هذه البنت ما يخفى حالها، وهي تعمل الخير الكثير معنا بسبب محبتها لك. إذ هي طاهرة ليست بخافية، وأنت تعرف العادة الجارية في هذه البلاد، أن الرجل يمد يده للبنت ويلاعبها وليس بعيب عند أحد من هؤلاء الناس، وهي تقف أمامك مرارا قريبا منك تنتظر أن تلاعبها وأنت لا تفرحها ولا تشرحها، قلت في نفسي: هذا أقوى من الشيطان، وقلت له يا صاحبي. هذا عندنا ممنوع في ديننا، وجسدها ليس حلالا لي، قال لا أقول لك إلا أن تلاعبها فقط، قلت له قال صاحب البردة:

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ❀ إن الطعام يقوي شهوة النهم

فلم ينفع مع صاحبي شيء مما قلت، لأنه جاء من ورائي ودفعني إليها، وحين ذهب خاصمته على حمقه. وسألتني هل عندي امرأة في بلادي، فقلت لها عندي، ثم قالت وتزوجون أكثر من امرأة، قلت لها جائز ذلك في ديننا، ثم قالت هل عندك أولاد، قلت لها عندي، وقلت في نفسي حين علمت ذلك تنقص المحبة، فلم تنقص شيئا، ورأيتهما يوما زينتا نفسها وكانت ترعاني وليس لي هبر بما أضمرت، وسرت إلى الجنان، والبساتين بتلك البلاد ما لها حيطان، وسمعتها تنادي، فجئت من داخل البستان، وفهمت من حالها ما لا يخفى...¹⁴.

وختاما فإن رحلة الحجري لتعد بحق ذخيرة تاريخية وفقهية على السواء لرجل عاش مغرب العقيدة بالأندلس ومات مغرب الوطن بتونس وبينهما رحلة تحمل مشروع التطهيرية والعرقية التي طالت مسلمي الأندلس وما ترتب عنها من مأس وآلام ما تزال تستحث همم الدارسين والباحثين لأجل استيفاء جوانبها التاريخية والاجتماعية والدينية.

المكتبات في الأندلس في العهد المرابطي والموحدي

د. فائزة البوكيلي
كلية الآداب المحمدية

اهتم المجتمع الأندلسي بجمع الكتب وإقامة المكتبات باعتبارها وسائل أساسية لتناقل الثقافة وتداولها، إلى جانب الحوارات والمناظرات العلمية. وقد انفردت قرطبة في ميدان المكتبات بوضع خاص نظرا لكثرة علمائها وتفننهم في مختلف ضروب المعرفة، مما جعلها قبلة الوافدين من العلماء وطلاب العلم من الأقطار الإسلامية والمسيحية للاطلاع على خزائن كتبها.

وقد ترجم من ذخائر مكتبات قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى إلى اللغة اللاتينية عدد من المؤلفات في مجالات مختلفة، وعن طريقها عرفت أوروبا كتب اليونان القديمة والمؤلفات الفارسية والهندية والسريالية¹. فنشطت حركة نشر الكتب بفضل المجهودات التي قام بها الوراقون، حتى أصبحت قرطبة أشهر وأكبر سوق في الأندلس وأروبا، وقبلة لكل من كان في حاجة إلى مخطوط أو كتاب معين².

ويصف المقرئ الأهمية العلمية التي حظيت بها هذه المدينة بقوله: "منتهى الغاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى، ووطن أولى العلم والنهى، وقلب الإقليم وينبوع متفجر العلوم وقبة الإسلام، بها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة". أما من ناحية العناية بالكتب والاهتمام بها، وبذل المال الكثير في شرائها والحصول عليها، فيقول: "وهي أكثر البلاد في الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، وصار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب،

1 - محمد مفتاح دياب، ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد السابع، 1390هـ/1990م، ص. 257.

2 - مفتاح محمد دياب، نفسه، ص 264.

ويُنتخب فيها ليس إلا كي يقال عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به"³.

ومن الدلائل على وجود سوق رائجة للكتب بقرطبة، رواية محمد بن عبد الملك بن سعيد⁴ عن الحضرمي⁵ جاء فيها: "أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع، وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي، لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد استحسنته ولم أبال بها أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأخرجني وحملني على أن قلت له: نعم! لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه"⁶.

يستشف من هذه الرواية إشارات هامة، فهي تدل على ما كان يحظى به أصحاب خزائن الكتب من جاه وقدر رفيع في المجتمع القرطبي، إضافة إلى ما بلغه حال الكتاب من تفنن في إخراجه على أجمل صورة في خطه البديع وتجليده الفاخر، وما يدلنا على حرص العلماء على الكتب وشغفهم، وإن كانت ظروف المعيشة لا تساعد بعضهم كما هو حال الحضرمي.

وقد حافظت قرطبة على مكانتها في مجال جمع الكتب في مختلف العصور، ومما يثبت ذلك: المناظرة التي دارت بين العالمين ابن زهر الإشبيلي وابن رشد القرطبي في حضرة الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، حيث كان كل منهما يسعى إلى تفضيل مدينته على مدينة الآخر، فانبرى ابن رشد

3 - المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج1، صص. 462-463.

4 - محمد بن عبد الملك بن سعيد هو جد علي بن موسى بن سعيد الأديب الأندلسي المشهور، ولد سنة 514هـ/1120م، كان أبوه ممن خدموا الدولة المرابطية، ثم دخل في طاعة الموحدين هو وابنه محمد هذا، وقد تولى الابن عددا من الولايات للموحدين كإشبيلية وغرناطة، وتوفي سنة 589هـ/1193م. المقرئ، نفح الطيب، ج2، ص. 355.

5 - يقول يوسف العربي "هناك أكثر من شخص حملوا هذه الكنية، ولكن يبدو أن المقصود بهذا الخبر عبد الله بن يحيى الحضرمي (ت. 578هـ)". انظر الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1995م، ص. 123. الهامش 2.

6 - المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص. 463.

للرد على منافسه قائلا: "ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية"⁷.

واضح إذا من خلال هذا الحوار أن مدينة قرطبة ظلت تحظى بمكانة رفيعة فيما يتعلق بمجال الكتب التي امتدت إلى عصر الموحدين، وإن كان ابن رشد قد بالغ في النيل من مكانة إشبيلية ودورها في هذا الصدد⁸.

والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن قرطبة لم تنفرد وحدها بعشق الكتب والمكتبات، بل اشتهرت إشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية بحب القراءة. فقد شغف أهلها بإنشاء المكتبات وجمع الكتب على اختلاف أنواعها. وكانت بها سوق خاصة لبيع الكتب من مختلف ضروب المعرفة، يفد إليها العلماء والأدباء بحثا عن نفائس التأليف ونوادر التصانيف، إضافة إلى كثرة ما احتضنته من الوراقين حتى نسب إليهم أحد شوارعها الكبيرة فسمي بشارع الوراقين⁹.

وقبل الخوض في الحديث عن أنواع المكتبات الموجودة بالأندلس، فإنه لا ضير في أن نشير ولو إلى موارد الكتاب والحرف التي تعنى به نسخا وتجليدا.

أولا: موارد الكتاب الأندلسي

اهتم الأندلسيون بالحصول على الكتب من مصادر عدة، منها ما ألف في الأندلس، ومنها ما جلب إليها من ربوع البلاد الإسلامية ومن غيرها من البلدان.

أ- كتب العالم الإسلامي

وهي كتب ألفها علماء العرب وعلماء الأمم الأخرى سواء في ظل المجتمع الإسلامي أو خارجه أو قبله، فدخلت الأندلس إما مترجمة إلى العربية أو بلغاتها الأصلية¹⁰. وقد بدأت رواية

7 - المقرئ، نفع الطيب، ج 1، ص 155.

8 - البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس 422-488 هـ/1030-1095 م، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط 1، 1414 هـ/1993 م، ص 188.

9 - ربيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص 219؛ البشري، المرجع نفسه، ص 190.

10 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية 92-494 هـ/711-1102 م، مؤسسة الرسالة، ط 1، ص 258؛ حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1998، ص 57؛ فائزة البوكيلي، الحياة العلمية في الأندلس في العصر المرابطي، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005 م، ج 1، ص 107 وما بعدها.

الكتب المشرقية ونقلها إلى الأندلس ضعيفة عند نهاية القرن الثاني الهجري، لكنها كثرت في القرون اللاحقة وشملت مصنفات الحديث واللغة والنحو والأدب والشعر¹¹.

وقد شارك الرحالون الأندلسيون من علماء وطلاب مشاركة فعالة في نقل هذه الكتب إلى الأندلس، خصوصا مؤلفات شيوخهم في المشرق بعد الحصول على إجازاتهم في رواية ما ألفوه، فكانت هذه الكتب بذلك أكثر ضبطا، وأرفع منزلة وأوسع انتشارا في الأندلس بين العلماء وطلابهم¹².

وتعتبر كتب التراجم والطبقات وكتب البرامج والفهارس من المصادر التي تساهم في رصد حركة انتقال المرويات وتتبعها من المشرق إلى الأندلس¹³، وقد شملت المرويات التي أدخلها الأندلسيون إبان هذه الفترة مختلف التخصصات، من نماذجها المكتوبة مصنف "اختصار الكشف والبيان عن تفسير القرآن" لأبي بكر الطرطوشي رواه عنه أبو بكر بن العربي¹⁴، و"أحكام القرآن" لعلي بن محمد الطبري رواه عنه محمد بن أحمد الخزرجي (ت 546هـ/ 1151م ببغداد)¹⁵، واختصار كتاب أبي جعفر بن جرير وهو "البيان في تفسير القرآن" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد النحوي الجاحظ رواه أبو بكر غالب بن عطية عن "مختصره" بمكة¹⁶، ومختصر "كتاب البحري الكبير في تفسير القرآن" لأبي عبد الله محمد النحوي رواه ابن عطية عن المؤلف سماعا وإجازة¹⁷، وكتاب "القرآن وإعرابه" لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج رواه أبو الحسن عباد بن سرحان وأبو بكر بن العربي وأبو الحكم عبد الرحمان بن عبد الملك¹⁸.

11 - زهير محمد، الكتب المشرقية في الأندلس رواية وشرحا من النشأة إلى القرن السابع الهجري، جزآن، رسالة دبلوم الدراسات العليا (مرفوعة) جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1411هـ/ 1991م، ص: 14-380.

12 - كريم عجيل حسين، مرجع سابق، ص. 259 وما بعدها.

13 - عن أهمية البرامج والفهارس ينظر عبد العزيز الأهواني، "كتب برامج العلماء في الأندلس"، مجلة معهد المخطوطات العربية، مصر، المجلد 1، ج 1، 1375هـ/ 1955م، ص. 91-120؛ محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، تقديم فهرس ابن عطية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، ص: 41-42.

14 - ابن خير، فهرس ما رواه عن شيوخه، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1379هـ/ 1979م، ص. 59. أصل هذا المؤلف هو "الكشف والبيان" لأحمد بن محمد الثعالبي أو الثعلبي 427هـ/ 1036م، وقد اختصره الطرطوشي.

15 - ابن عبد الملك، الذيل، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1964م، السفر 5، ق 2، رقم 1151.

16 - ابن عطية، فهرس ابن عطية، ص. 62.

17 - المصدر نفسه، ص. 73.

18 - ابن خير، فهرس ما رواه عن شيوخه، ص. 64.

ومن أمثلة الكتب التي رويت في الحديث وعلومه "المسند الصحيح المختصر من السنن" لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261هـ/876م) ومن رواه أبو بكر بن العربي عن إمام الحرمين أبي عبد الله الحسين الطبري¹⁹، و"الجامع المختصر من السنن" (رواية ابن محبوب) "لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت. حوالي 275هـ/888م)، ومن رواه من الأندلسيين أبو بكر بن العربي ببغداد عن ابن الطيوري، ورواه عنه أيضا أبو الحسن عباد المعافري ببغداد سنة 492هـ/1099م²⁰.

ومن علماء العصر الموحي الذين أدخلوا عددا من الكتب المشرقية إلى الأندلس نذكر أبا بكر بن أحمد الكناني (ت. 608هـ) وأحمد بن أحمد بن خلف الحضرمي (ت. 643هـ). فقد تصاحب هذان العالمان في رحلة علمية إلى المشرق، وعادا بكتب لا عهد لأهل الأندلس بها انتسخاها هناك، ولكي ينسخا كتباً في وقت أقصر، اتفقا على أن ينسخ كل واحد منهما غير ما ينسخه الآخر، حتى إذا وصلا إلى الأندلس أخذ كل منهما ما فاته من الآخر، فتمكنا من جلب في رحلتها هذه عددا من الكتب أهمها: "كشف الزمخشري" وصحاح الجوهرى "و"شرح السنة" للبعوي²¹، ولقد شملت عملية جلب الكتب المشرقية إلى الأندلس مختلف التخصصات من علوم القرآن والحديث وأصول الدين والفقه، وعلوم اللسان وغيرها من العلوم²². لم يقتصر جلب الكتب على العلماء والطلبة، بل ساهم التجار بدورهم بشكل لافت في هذا المجال، واهتم بعضهم بالعلم وحرص على طلبه، فكان يتاجر ويطلب العلم في آن واحد، ولعل البعض الآخر منهم وجد في تجارة الكتب وسيلة مميزة للحصول على المال الذي يلزمه في رحلته²³.

ومن جهتهم ساهم رجال الدولة المرابطية والموحدية من حكام وأمرء في العمل على جلب الكتب المشرقية إلى الأندلس، ومن هؤلاء أبو عمر ميمون بن ياسين اللمتوني الذي اشتهر باعتناؤه بالآثار واقتناء الأصول، وهو الذي اشترى "صحيح البخاري" في مكة من أبي ذر الهروي، وابتاعه منه "بمال جليل" وأوصله إلى المغرب²⁴.

19 - المصدر نفسه، ص. 74 وما بعدها.

20 - المصدر نفسه، ص. 117 وما بعدها.

21 - ابن عبد الملك، الذيل، السفر الأول، القسم الأول، ص. 29 وما بعدها؛ العريني، الحياة العلمية، ص. 127.

22 - مبارك أمين، الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق خلال القرن الهجري الخامس، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، شعبة التاريخ، وحدة الأندلس، تاريخ وحضارة، الموسم الجامعي 2000-2001م، ص. 269.

23 - مكي محمود علي، "الرحلات بين المشرق والأندلس"، مجلة البنية، السنة الأولى، عدد 2، يونيو 1962، ص. 43؛ كريم عجيل حسين، الحياة العلمية، ص. 261.

24 - ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشرها عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1375هـ/1956م، ج2، ص. 718، الترجمة رقم 1823؛ ابن عبد الملك، الذيل، ق8، تحقيق محمد بنشرية، الرباط، 1984م، ج2، ص. 406.

ب- المؤلفات الأندلسية:

ألف علماء الأندلس في شتى ميادين العلم؛ كعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وفروعه، وفي اللغة وعلومها، وفي التاريخ والجغرافية، كما ألفوا في الطب والحساب والهندسة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم، ويكفي أن نستعرض كتب التراجم لتبين غزارة التأليف وضخامة الإنتاج العلمي وتنوعه في الأندلس، فالمعروف عن أهل الأندلس أنهم كانوا يهتمون بالعلم أيما اهتمام، ويتذوقونه ويستمتعون بقراءته ومدارسته²⁵.

وقد ساهم رجال الدولتين المرابطية والموحدية في تشجيع المؤلفين ورعايتهم، كما اهتموا بإنشاء مكتبات يجمعون فيها نواذر المخطوطات ومصنفات شتى، مما جعل العديد من العلماء يحرصون على تقديم ما يؤلفونه لهم²⁶، فكانت تلك الرعاية عاملاً مساعداً في تهيئة الأجواء المناسبة للحركة العلمية²⁷، فقد كان المنصور الموحدي (580-595هـ) يتابع حركة التأليف ويسأل عن المؤلفات الجديدة، ويأمر بنسخ كل كتاب يصدر، وإيداعه في خزائنه²⁸. فكان من نتائج ذلك انتشار صناعة الوراقة في الأندلس وتكاثر النساخ، وهذه كلها عوامل ساعدت على ازدهار ونشاط حياة الكتاب وسرعة تداوله بين طلاب العلم.

ج- جلب الكتب من غير بلاد المسلمين:

قام التجار والطلاب بدور مهم في حمل تلك الكتب إلى الأندلس، كما كانت سفارات الأمم المسيحية إلى قرطبة أهم الأبواب التي دخلت منها الكتب إلى الأندلس، إلى جانب انعكاسات الحروب الأندلسية المسيحية التي كانت توقع بأعداد كبيرة من الكتب في أيدي النصارى، وغالبا ما كان بعض أمراء المسلمين يحصلون عليها كهدايا من هؤلاء النصارى، أو يقايضها العلماء المسلمون بالسلع التي يحتاجها النصارى²⁹؛ مثال ذلك ما فعله محمد بن سعيد بن مدرك الغساني المالقي (ت حوالي 570هـ) فقد كان شديد العناية باقتناء ذخائر الكتب، "واجتمع لديه منها ما لشيء فوقه كثرة وجودة". ويقال إن السبب في حصوله على هذه الكتب، تلك المجاعة التي ألت ببعض بلاد النصارى، فبعث إلى تلك البلاد مركبا كبيرا محملا بالطعام، وجعل على رأس هذه الحملة شخصا له

25 - عبد الرحمن الحجي، "الكتب والمكتبات في الأندلس"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، العدد الرابع، 1392هـ/ 1972م، ص. 367.

26 - ابن عبد الملك، الذيل، ص 5، ج 1، ص 19.

27 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية، ص 268.

28 - ابن عبد الملك، المصدر نفسه، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م، السفر السادس، ص 382.

29 - العريني، الحياة العلمية، ص 128.

معرفة بالكتب، بصيرا بانتقائها، وأوصاه ألا يبيع شيئا من هذا الطعام إلا بالكتب، فجلب له من نوادر الكتب الشيء الكثير مما عجز كثير من أهل عصره الحصول عليه³⁰.

وهكذا ساهم رواج الكتاب بموارده المتعددة في إغناء المكتبات الأندلسية سواء العامة أو الخاصة منها، وكان ذلك من أهم عوامل إنهاء الحركة العلمية.

ثانيا : أنواع المكتبات

1- المكتبات العامة: وهي مكتبات كانت في خدمة المجتمع والحركة العلمية، وهي نوعان:

أ- مكتبات المساجد:

المكتبات من هذا النوع كثيرة جدا، وقلما خلا مسجد من مساجد الأندلس من مكتبة تحتوي على مجموعة من الكتب يرجع إليها الدارسون والقراء³¹. وكانت مصادرهما مما أوقفه العلماء عليها ليتنفع به أكبر عدد من طلاب العلم وتقربا إلى الله تعالى. وقد قام ولاية الأندلس في عهد الدولتين المرابطية والموحدية بدور كبير في رعاية هذه المكتبات وفي إغنائها للمساهمة في تنشيط الحركة العلمية بولاياتهم.

ب- مكتبات القصور:

يقصد بها ما أنشأه الولاة من مكتبات في قصورهم خدمة للحياة العلمية، واعتبرت مكتبات عامة لأنها مفتوحة لكبار العلماء والأدباء ورجال الدولة، ومن كان يتردد عليها من الوجهاء والأعيان، ومن لهم صلة بهؤلاء الولاة³².

ويشير د. شوقي بنين إلى أن ابن تاشفين كانت له خزانة قيمة بمراكش قد يكون حمل إليها، عقب زيارته الكثيرة، العديد من الكتب ذات الخطوط المشرقية والأندلسية أساسا. ويبدو أن النواة الأولى لهاته المكتبة قد تكونت أولا من خزانة ملوك الطوائف ومن مجموع خزانة الملوك الأمويين، حيث انتهى عدد من المخطوطات التي كانت في حوزة الخليفة الأموي الحكم الثاني (ت 366هـ/ 977م) إلى خزانة ابن تاشفين³³.

30 - محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل، السفر السادس، ص. 213؛ العريني، الحياة العلمية، ص. 128-129.

31 - الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، ص. 100.

32 - الحجي، "الكتب والمكتبات في الأندلس"، ص. 371.

33 - أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب في المغرب، تعريب مصطفى الطوي، أطروحة لنيل الدكتوراه مع مقدمة في علم المكتبات، كلية الآداب، الرباط، إشراف أحمد شوقي بنين، الموسم الجامعي 1422-1423هـ/ 2001-2002م، ص. 174 وما بعدها.

وقد واصل خلفاؤه تزويد المكتبة المذكورة بروائع المخطوطات، خاصة ابنه علي الذي جاء بالكتب من كل أقاليم الأندلس، وقد عثر في القرويين على مصدر المدرسة المالكية "الموطأ" مكتوبا على رق الغزال في عدة مجلدات وحاملا اسم علي بن يوسف³⁴.

وتعدد المصادر أسماء مجموعة من رجالات الدولة المرابطية والموحدية من كان لهم اهتمام باقتناء الكتب، فالمنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر كان عاملا على بلنسية (ت. 550هـ/1155م) بميورقة، كان له اهتمام بالغ باقتناء الكتب والمؤلفات النادرة والقديمة، وتمكن أن يجمع من ذلك "ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه"³⁵. ويبدو أن اهتمام أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف - الشهير بابن تعيشت نسبة إلى أمه - بجمع الكتب هو الذي جعل ابن خاقان (528هـ/1134م) يهديه كتاب "قلائد العقيان"، ودفع ابن زهر (ت 557هـ/1162م) إلى تأليف كتاب "الاقتصاد في صلاح الأجساد" في الطب سنة 515هـ/1121م³⁶، ولعل أشهر مكتبة من هذا النوع تلك التي أنشأها ولي غرناطة من قبل أبي يعقوب يوسف (558-580هـ) محمد بن أبي إبراهيم³⁷ (ت 569هـ). فقد كان له اطلاع واسع في علم التاريخ ومن المشاركين في علوم الأدب، واشتهر بأنه صاحب همة عالية في اقتناء الكتب ونسخها حتى اجتمعت له خزانة ضخمة في مختلف العلوم³⁸، ومن الولاة الموحدين في الأندلس الذين اهتموا بإنشاء المكتبات في قصورهم أبو إبراهيم إسماعيل بن عبد المومن الذي ولي إشبيلية من قبل أخيه أبي يعقوب يوسف (588-580هـ). فقد كانت له خزانة كتب كبيرة، حرص على تزويدها بمختلف الكتب في كافة فروع العلم، وقد رتب فيها عددا من النساخ تفرغوا لنسخ ما يريده من كتب لإيداعها في هذه الخزانة، وكان على رأس هؤلاء النساخ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عفير (ت. قبل 580هـ)³⁹.

2- المكتبات الخاصة:

لا وجود لأدلة صريحة على وجودها بالأندلس⁴⁰، وإن كانت بعض الدراسات الحديثة تؤكد وجودها بأعداد كبيرة⁴¹، فلم يقتصر الاهتمام بالكتب والمكتبات في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس

34 - أحمد شوقي بنين، تاريخ خزانات الكتب في المغرب، ص. 175.

35 - ابن الأبار، التكملة، ج2، ص. 712، الترجمة رقم 1808؛ ابن عبد الملك، الذيل، ق8، ج2، ص. 378.

36 - ابن عبد الملك، المصدر نفسه، السفر 5، ج1، ص. 19.

37 - العريني، الحياة العلمية، ص. 135.

38 - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ص. 222؛ العريني، المرجع نفسه، ص. 136.

39 - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 389؛ العريني، الحياة العلمية، ص. 1356.

40 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية، ص. 279 وما بعدها.

41 - ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ص: 157-158.

على الحكام والأمراء فقط، بل إن غالبية أفراد المجتمع الأندلسي كانوا شغوفين بدورهم بالقراءة وجمع الكتب كل حسب ما تسمح به ظروفه المالية⁴².

هذه المكتبات الخاصة كان يمتلكها العلماء وأفراد المجتمع الأندلسي المتعلمين، وقد كان العلماء يضعونها رهن إشارة طلاب العلم للاستفادة من محتوياتها⁴³، ويلاحظ أن بعض العلماء كان يوقف ما لديه من الكتب على طلبة العلم. من هؤلاء محمد بن فرح بن عيسى بن فرح بن أبي العباس بن إسحاق التجيبي الطليطلي (ت 485هـ / 1092م)، الذي أوقف كتبه على طلبة العلم بالعدوة⁴⁴.

و من العلماء الذين اشتهروا باقتناء الكتب وامتلكوا مكتبات في بيوتهم نذكر أبا داود المقرئ سليمان بن أبي القاسم نجاح (ت 496هـ / 1103م) الذي كانت له مكتبة عامرة بالكتب ببلنسية، وضع الكثير منها بخطه، وقد آلت إلى تلميذه أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي (471-564هـ / 1078-1169م)⁴⁵.

وهناك أيضا عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الله التجيبي، المعروف بابن المشاط الطليطلي (ت 500هـ / 1107م) الذي "جمع كتباً في غير ما فن من العلم"⁴⁶، كما أن الأديب محمد بن أحمد بن عون المعافري القرطبي (ت 512هـ / 1118م) كان معنياً بالعلم ومشهوراً بالمعرفة والفهم، نابهاً في الفقه، جمع كثيراً من الكتب وبذل في سبيل ذلك جهوداً مفضية في البحث عن نفائسها⁴⁷. ومن اشتهر كذلك بجمع الكتب، إبراهيم بن عبيد الله المعروف بالنوالة الذي وصفه الحجاري صاحب "المسهب" (ت 520هـ - 1126م) فأثنى عليه وعلى علمه وأدبه، وذكر أنه استعان بكتبه في تأليف كتابه "المسهب"⁴⁸. والأديب الراوية أبو عبد الله محمد بن سليمان النفزي المعروف بابن أخت غانم (ت 525هـ / 1131م) حيث "كان شيخاً مسناً من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب"⁴⁹، وعبد الملك بن سلمة بالمرية المتوفى سنة 540هـ / 1145م من غير وارث إلا بيت المال فألت

42 - مفتاح محمد دياب، "ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس"، ص. 260.

43 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية، ص: 283-284.

44 - ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، الدار المصرية للنشر، 1966م، ج 2، ص. 528، رقم الترجمة 1225.

45 - ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، ج 1، ص. 200، رقم الترجمة 457.

46 - المصدر نفسه، ج 2، ص. 329، رقم الترجمة 740.

47 - المصدر نفسه، ص. 541، رقم الترجمة 1260.

48 - ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط. 1، 1952م، وط. 2، 1964م، ج 1، ص. 71.

49 - ابن الأبار، التكملة، ص. 451؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، دار المنصور، الرباط، 1974، ج 1، ص. 258.

كتبه ببلنسية وماله بالمرية إلى هذا الأخير⁵⁰، وكان أبو بكر بن العربي (ت 542هـ/1147م) بيت في منزله بقرطبة والكتب عن يمينه وشماله، ينام في مكتبته إذ غلبه النوم دون أن يغير أثوابه، وكلما استيقظ مد يده إلى كتاب، والمصباح يضيء لا يطفأ⁵¹.

ومن المكتبات التي اشتهرت في العهد الموحد نكتفي بالإشارة إلى بعضها على نحو ما ورد عند الباحث يوسف العريني، ومنها مكتبة أسرة بني الفرس، وهي من الأسر العلمية في الأندلس، ظهر فيها عدد من العلماء كمحمد بن عبد الرحيم (ت 567هـ) الذي شهد له بالتقدم في أكثر من ميدان من ميادين العلم، كما له دراية بالقراءات والفقه، ويشارك في الأحاديث والأخبار، مع البصر بالفتوى ووجوهها، وقد جمع في هذه العلوم كتباً لا نظير لها، كان أكثرها بخط يده⁵². انتقلت هذه المكتبة فيما يبدو إلى ابنه عبد المنعم بن محمد (ت 597هـ) الذي كان هو الآخر عالماً وقاضياً في عدد من مدن الأندلس. ولا شك أنه زود بدوره هذه المكتبة بأعداد كبيرة من الكتب مما ظهر في عصره. ولا تسعنا المصادر في معرفة مصير هذه المكتبة التي ربما حازها أحد أبنائه وهو عبد الرحمان بن عبد المنعم (ت 663هـ) ثم أصابها ما أصاب غيرها من الضياع أو الحرق نتيجة الزحف النصراني الذي بلغ أقصى درجاته في القرن السابع الهجري⁵³.

من المكتبات التي اشتهرت في هذه الفترة، مكتبة ابن خير الإشبيلي. فقد جمعها محمد بن خير ابن عمر (ت 575هـ). كانت الكتب التي تحتويها في حالة جيدة لما تطلبت من إنفاق كثير فقد عانى أشد المعاناة لمعالجتها وتصحيحها بحسن خطه وجودة تقييده وضبطه. ففي ذلك قطع دهره وأنفق حياته، فلحق بالمتقدمين وأربى على المتأخرين⁵⁴، وقد عرضت هذه المكتبة للبيع بعد وفاة صاحبها، ولكون طلاب العلم يعرفون قيمة الكتب التي تضمها فقد غالوا في أثمانها لحرصهم على الفوز بها وحفاظاً على الكتب التي قضى صاحبها عمره في جمعها وتصحيحها والتعليق عليها⁵⁵.

ومن المكتبات التي اشتهرت في هذه الفترة كذلك مكتبة ابن العشاب، وهو أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بابن العشاب (ت 637هـ). كانت من كبريات المكتبات الخاصة في هذا العصر، فقد أنفق في جمع كتبها أموالاً طائلة، وقد أسهمت رحلته الطويلة إلى بلاد المشرق في تزويد

50 - ابن عبد الملك، الذيل، ترجمة 33، ص. 19 وما بعدها.

51 - الضبي، بغية الملتبس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص. 80 وما بعدها، رقم الترجمة 179.

52 - ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص. 509-510.

53 - العريني، الحياة العلمية، ص. 137.

54 - ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص. 524.

55 - المصدر نفسه، ج 2، ص. 524؛ والعريني، الحياة العلمية، ص. 137.

هذه المكتبة بكافة التصانيف في كل العلوم، ولم يكن ابن العشاب يمنع أحدا من الاستفادة منها، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث كان يهب الأصول النادرة من الكتب للمحتاجين إليها⁵⁶.

من هذه المكتبات نذكر كذلك مكتبة ابن البناء الإشبيلي، وهو محمد بن أحمد بن عبد الرحمان العبيدي المعروف بابن البناء (ت 646هـ) كان حسن الخط، متقن التقيد، ومن المولعين بجمع الكتب. كان ينسخ كل ما يقع تحت يديه من أمهات الكتب ويودعها مكتبته، حتى اتسعت لتضم أعدادا كبيرة من الكتب حتى قيل إنه عندما خرج من إشبيلية أخرج معه نحوًا من خمسمائة مجلد كلها بخط يده⁵⁷.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن جمع الكتب أو امتلاك المكتبات الخاصة من نصيب الرجال وحدهم، بل هناك العديد من النساء اللواتي اشتهرن بدورهن بحب العلم والمعرفة، واقتناء الكتب من كل فرع من فروع المعرفة⁵⁸.

ثالثا: الوراقة والوراقون

عني الأندلسيون بالكتاب عناية بالغة، فازدهرت عندهم صناعة الوراقة التي تهتم بنسخ الكتاب وتجليده وتصحيحه بالضبط والرواية وغيرها⁵⁹، وقد انتعشت مهنة الوراقة بعد أن نشطت حركة التأليف في الأندلس، وهو ما يشير إليه المقدسي بالقول: "وأهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة"⁶⁰.

أ- صناعة الورق في الأندلس

اشتهرت الأندلس بمصانع الورق، وامتد تأثير صناعتها وانتشارها في معظم المدن الأندلسية، وإن تميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة وشاطبة. فهذه الأخيرة أكدت تميزها بصناعة الورق الجيد حتى امتدحها الإدريسي (493-560هـ/1100-1165م) بقوله: "ويعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغرب"⁶¹، ويؤكد ذلك ياقوت الحموي (ت 626هـ/1229م) قائلا: "ويعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها إلى سائر بلاد

56 - محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الثاني، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص: 511-512؛ والعريني، الحياة العلمية، ص. 138.

57 - محمد بن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص. 680؛ العريني، الحياة العلمية، ص. 138.

58 - ريبر، "المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا"، ترجمة جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد 4، سنة 1858، ص. 92؛ مفتاح محمد دياب، "ازدهار حركة نشر الكتب والمكتبات في الأندلس"، ص. 263.

59 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، دار النهضة للطبع والنشر، القاهرة، ج 2، ص. 974.

60 - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1906، ص. 239.

61 - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، دون تاريخ الطبع، م 2، ص. 556.

الأندلس⁶². ولم يقتصر الأمر على الأندلس فقط، بل امتد تأثير صناعتها إلى المشرق، حيث تم تصدير الورق الأندلسي إلى مدن المشرق حسبما أشار إليه الجغرافي الإدريسي⁶³. وقد وصفت المصادر المسيحية الإسبانية ورق شاطبة بأنه كان ورقا أبيض أملس⁶⁴، مما حذا بالأوروبيين إلى المسارعة إلى اقتباس صناعته ونقل طرقها إلى عدد من مدنها. فقد شجع الملك ألفونسو العاشر الإسباني العالم صناعة الورق الشاطبي في قشتالة، وبات يصدره إلى فرنسا منذ عام 1270م، وتسربت من هناك إلى بلدان أوروبية أخرى كإيطاليا وإنجلترا وألمانيا⁶⁵.

ومع ذلك ظل الورق الشاطبي محتفظا بمكانته الفنية، ومتفوقا على نظيره الأوربي رونقا وبهاء وزخرفة⁶⁶. ومنذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي انتقلت صناعة الورق من شاطبة إلى مدينة طليطلة⁶⁷، ثم ما لبثت بلنسية أن أصبحت تحتل الريادة في هذا المجال بداية عصر الموحدين، وذلك لوفرة الكتان بها وجودته مقارنة بشاطبة، وكثرة عدد الوراقين والنساخ.

وقد أنتجت الأندلس في العصر المرابطي الورق الملون مع الحرص على متانته وجودته. فقد شدد ابن عبدون في رسالته على أن يطلب من صناع الورق أن يزيدوا في قال الكاغد وفي ذلك⁶⁸.

ب- صناعة الوراقة (النسخ، الخط، التجليد)

كان لازدهار حركة التأليف في هذا العصر ورغبة الناس في اقتناء الكتب دور في زيادة الاهتمام بالكتاب نسخا وتجليدا وضبطا وزخرفة، وفي انتعاش تجارته أيضا، كان يطلق على القائمين على الشؤون الفنية للكتاب اسم الوراقين، إذ كان من بين مهامهم أيضا بيع الورق وسائر مستلزمات أدوات الكتاب، كالأقلام والحبر وما إلى ذلك، وقد اشتهروا بجودة الخط وإتقانه حتى استحقوا الشناء من طرف الكثيرين كما هو شأن المقدسي حيث وصفهم بالمهارة والحدق في رسم الخطوط⁶⁹.

62 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، م3، ص. 351.

63 - الإدريسي، المصدر السابق، ص. 192.

64 - سامية مسعد، الوراقة والوراقون في الأندلس في عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، ط1، 2000، ص. 31-32.

65 - سيدو، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعير، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط2، 1389هـ، ص. 425؛ سامية مسعد، المرجع السابق، ص. 32؛ البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، ص. 198.

66 - البشري، المرجع نفسه، ص. 198.

67 - محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1398هـ/ 1978م، ص. 74.

68 - ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، نشر بالمجلة الأسبوعية عام 1934، طبعة أخرى، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي، 1955، ص. 48.

69 - المقدسي، أحسن التقاسيم، ص. 239.

وقد تميز ما نسخ في الأندلس في عصور الازدهار بالضبط والبعد عن التصحيف مع وضوح الخط، والحرص على مقابلة ما ينسخ بالأصل. فحسب ابن خلدون⁷⁰ فإن الخط الأندلسي قد طغى بجلوته على نظيره القيرواني في هذه الفترة، وبرز خطاطون على الطريقة الأندلسية بين مغاربة وأندلسيين استوطنوا المغرب. وأدت مزاحمة الخط الأندلسي للقيرواني إلى حدوث منافسة بين الخطين، على نحو ما عبر عنه الأديب الأندلسي أبو العباس ابن البراء التجيبي - من أهل الجزيرة الخضراء - في قطعة ميمية من سبعة أبيات ردا على ذم الخط الأندلسي من طرف أبي الفضل بن يوسف النحوي القلعي نزيل فاس سنة 513هـ/1119م⁷¹.

وقد نال القرآن الكريم اهتماما عظيما، حيث اعتنى الأندلسيون بنسخه وضبطه وتجليده وزخرفته، فكان سليمان بن إبراهيم بن محمد بن خالد الأنصاري الأندلسي (كان حيا سنة 535هـ/1140م) "يكتب المصاحف ويحيدها"⁷². وكان عابد بن مسعود ابن عابد الصدي (توفي بعد 536هـ/1141م) "مصحفيا بارع الخط جيد الضبط مقتدى به في ذلك متنافسا فيما يكتب منه ومتغالى به"⁷³.

كما أن محمد بن عبد الله بن سهل الأنصاري البلسني ابن غطوس (ت 610هـ) وهو ثالث ثلاثة من أسرته قصروا أنفسهم على نسخ القرآن، وهي صناعة أخذها عن أبيه وأخيه. وقد أخذ على نفسه العهد بأن لا يخط حرفا غير القرآن. ويروى أنه كتب ألف نسخة من الكتاب الكريم، وكان الملوك ومن دونهم يتنافسون فيما ينسخه ابن غطوس من المصاحف، حيث كانت له طريقة فريدة في كتابة المصاحف اشتهر بها فاتبعها وسار عليها من أتى بعده⁷⁴.

وينسب إلى بعض الوراقين عنايتهم أيضا بمصادر السنة الشريفة، كالوراق محمد بن محمد بن بشير المعافري القرطبي (ت 481هـ/1088م) الذي كتب بيده "صحيح مسلم بن الحجاج"⁷⁵. ومحمد

70 - ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص. 968-969.

71 - تنظر الأبيات في: ابن الأبار، المقتضب من تحفة القاد، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني ودار الكتب الإسلامية، بيروت، ط2، 1983، صص. 61-62؛ محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 2، 1991، ص. 21.

72 - ابن عبد الملك، الذيل، السفر الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1964، الترجمة 141، ص. 60.

73 - المصدر نفسه، ص. 98، رقم الترجمة 180.

74 - ابن الأبار، التكملة، ج2، ص. 593-635؛ العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، ص. 131.

75 - ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص. 526، رقم الترجمة 1219.

بن خلف بن مسعود بن شعيب المعروف بابن السقاط القرطبي (ت 485هـ/ 1092م) الذي كتب بيده "صحيح البخاري" وغيره، وصنع الخبر من ماء زمزم وعرف بجمال خطه وسرعته في الكتابة⁷⁶.

لم يكن حسن الخط والجودة في الضبط مقتصرًا على الوراقين، وإنما كان يحاكيهم في ذلك علماء كثيرون وصفوا بالبراعة في الضبط وبالمهارة في نسخ الكتب، ومع تفردهم عن غيرهم باحتفاظهم بها نسخوا في مكتباتهم ليفيدهم في التدريس⁷⁷.

فقد ذكر ابن عبد الملك أن عبد الواحد بن محمد بن خلف (ت قبل 540هـ/ 1145م) "كان أنيق الوراقة كتب بخطه الكثير، وقفت على خطه بنقله البيان والتحصيل لابن رشد من أصله"⁷⁸، كما كان علي بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفاري السرقسطي (ت 535هـ/ 1140م) عارفاً بالنحو واللغة والأدب بارع الخط حسن الوراقة. قال عنه ابن عبد الملك "كان لغويا أدبيا ذا خط صالح من رواية الأدب، وتجول في أقطار الأندلس، واستقر بآخره في وادي آش، وأقرأ بها، وذبح بها"⁷⁹، كما أن عتيق ابن عبد الجبار بن يوسف بن محرز الجذامي (ت 539هـ/ 1144م) "كان بارع الخط رائق الوراقة نافذا في عقد الشروط"⁸⁰. وكان النحوي عريب بن عبد الرحمان "نحويا لغويا أدبيا حسن الخط جميل الوراقة"⁸¹. وكذلك سفيان بن عبد الله التجيبي (ت 546هـ/ 1151م) حيث "كان من أهل المعرفة التامة بعلوم اللسان على تفاريقها حسن الوراقة ذا خط صالح من الكتابة"⁸².

كانت عملية النسخ تتم على طريقة النقل المباشر المضبوط من المخطوط، أو الإملاء على عدد من النساخ من أجل تعدد النسخ مع مقابلتها بالأصل عند الانتهاء للضبط والتصحيح⁸³. كما كان محمد بن محمد الأنصاري (ت 610هـ) حسن الخط جيد الضبط كتب بخطه علما كثيرا، وكان - لضيق ذات يده - يتخذ من الوراقة مصدرا لمعيشته⁸⁴.

76 - المصدر نفسه، ج2، ص.529، رقم الترجمة 1227.

77 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية، ص.289.

78 - ابن عبد الملك، الذيل، السفر الخامس، الترجمة 147، ص.69 وما بعدها.

79 - المصدر نفسه، السفر الخامس، الترجمة 481، صص.237-238.

80 - المصدر نفسه، السفر الخامس، الترجمة 236، ص.120 وما بعدها.

81 - المصدر نفسه، السفر الخامس، الترجمة 292، ص.143 وما بعدها.

82 - المصدر نفسه، السفر الرابع، الترجمة 119، ص.47.

83 - ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص.74.

84 - ابن الأبار، التكملة، ج2، ص.588.

وقد تمت الإشادة بحسن وراقة الوراقين البلنسيين، الذين اشتهر من بينهم محمد بن علي بن عطية (ت. حدود 540هـ/ 1145م) الذي "كان أنيق الوراقة رائقها، وتوارث الناس التنافس فيما كتب إلى اليوم، وكم حام كثير من الوراقين على سلوك طريقته فلم يدركوها"⁸⁵.

وسار على نهجه أيضا أبو عبد الله محمد بن مروان بن يونس (ت. 541 أو 542هـ/ 1146 أو 1147م) حيث "كان حسن الوراقة معروفا بذلك، وكتب بخطه علما كثيرا"⁸⁶. وكان أبو محمد عبد الله بن الفضل اللخمي (ت. حوالي 490هـ/ 1097م) أدبيا جليلا، ذا حظ من اللغة والنحو والشعر، قعد لإقراء العربية ببلنسية، وكان "بارع الخط، رائق الوراقة"⁸⁷. كما كان عبد الملك بن عبد العزيز بن وليد اللخمي الشاطبي الأصل، نزيل فاس، كان حسن الوراقة... صحيح النقل متقنا، ونسخ - بفاس - كتاب الاستذكار لابن عبد البر، الذي فرغ منه في وسط رجب عام 498هـ/ 1105م⁸⁸.

وكان أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة الشنتريني (517هـ/ 1123م) لغويا شاعرا، قليل الخط في بلوغ أمانيه والوصول إلى مراكز الجاه لدى ملوك عصره، لكنه كان متذمرا فاشتغل بمهنة الوراقة، وكان يجيدها ويتقنها"⁸⁹. وبالمثل، فقد شاركت النساء في هذا النشاط، وحسبما أورده عبد الواحد المراكشي نقلا عن ابن فياض في تاريخه أخبار قرطبة بقوله: "كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟"⁹⁰.

ويعمل خوليان ربييرا سبب إقبال الوراقين على استخدام النساء في عملية النسخ "أنهم مع كتابة المرأة يحصلون على نسخ أوضح نظافة، وأشد اعتناء، وأبلغ مهارة، وأحسن خطأ، وأرخص ثمننا لقلة أجورهم عن النساخ من الرجال"⁹¹.

85 - ابن عبد الملك، الذيل، السفر السادس، ص. 456.

86 - المصدر نفسه، السفر الثاني، ص. 468.

87 - المصدر نفسه، السفر الثاني، ص. 807، رقم الترجمة 197.

88 - المصدر نفسه، السفر الخامس، قسم 1، رقم 79، صص. 34-35.

89 - السيوطي، بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، وشركاؤه، ط 1، 1384هـ، ج 2، ص. 57.

90 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم ممدوح حقي، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، البيضاء، 1978، ص. 520.

91 - ربييرا، التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ص. 205.

اشتهرت من بين نساء تلك الفترة طونة بيت عبد العزيز بن موسى (ت. 506هـ/1112م)، إحدى فقيهات النساء التي كانت بديعة الخط، حسنة الكتابة⁹². وقد استوطنت المغرب في هذه الفترة ثلاث وراقات أندلسيات هن: سعيدة بنت محمد بن فيّره الأموي التطيلي، ولها أخت أصغر منها، سكنتا معا مدينة مراكش واشتغلتا بنسخ الكتب⁹³. وكذلك ورقاء بنت الحاجة الطليطلية، وهي خطاطة بارعة أقامت بمدينة فاس وتوفيت بها عام 540هـ/1145-1146م⁹⁴.

أما فيما يخص تجليد⁹⁵ الكتاب وزخرفته، فقد نال الأندلسيون درجة رفيعة في هذا المجال، حيث أبدوا مهارة وإتقانا كبيرا في تفسير المؤلفات والعناية بشكلها الخارجي. فالتجليد يحفظ الكتاب ويصونه من التلف⁹⁶، ويضفي عليه جمالا وسهولة في الاستعمال، ولذلك كان الوراقون أحرص على أن يكون الكتاب في أجمل صورة ليطابق مظهره الأنيق ما يحتوي عليه من علم نفيس⁹⁷.

وكانت مألقة في الأندلس أكثر المدن براعة وإتقانا في صناعة الجلود عامة، وتجليد الكتب تجليدا نفيسا على وجه الخصوص، وقد بذل الهواة من جامعي الكتب والأمراء في سبيل ذلك جهدا رائعا كانت نتيجته تكوين المكتبات العامرة، والتشجيع المتواصل لتنسيقها، وإبداع تجليد كتبها، مما أسهم بنصيب ملحوظ في هذا التطور الذي لا نظير له في فن تجليد الكتب في العصور الوسطى⁹⁸.

ولعل أبلغ درجات تطور صناعة التفسير في المغرب والأندلس في العصر الموحد، ما قام به عبد المومن بن علي أول خلفاء الدولة الموحدية، في تفسير وتحلية المصحف العثماني، فقد جلب من أقطار الدولة لهذا الغرض أمهر المهندسين والصواغين، والنظاميين، والزواقين، والرسامين، والمجلدين...، واجتمع كل هؤلاء وغيرهم من أهل البراعة والحدق في غير هذه الصناعات،

92 - ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص. 658، الترجمة رقم 1541.

93 - ابن عبد الملك، الذيل، القسم الثاني، ص. 487 و494؛ عبد الوهاب التازي، المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، ط 1، 1413هـ/1992م، ص. 107 وص. 112 وما بعدها.

94 - سامية مسعد، الوراقة والوراقون في الأندلس، ص. 55.

95 - يطلق عليها أيضا مسمى التفسير في المغرب والأندلس، ولعلها اشتقاق من السفر وهو الكتاب الكبير. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سفر، وانظر تقديم عبد الله كنون، كتاب التيسير في صناعة التفسير لأبي بكر الإشبيلي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدير، المجلد السابع والثامن لستتي 1959-1960، صص. 9-42؛ سامية مسعد، الوراقة والوراقون في الأندلس، ص. 33.

96 - كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، ص. 132.

97 - البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص. 205.

98 - أحمد شلبي، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي جوانب التاريخ والنظم والفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط10، 1992، ص. 173.

وصنعوا له خزانة وأغشية محلاة بالذهب والفضة، فأصبح قطعة فنية بالغة الجمال، تدل على ما وصل إليه الفن في هذا العهد⁹⁹.

وقد اهتم بعض المؤلفين بوضع كتب تتناول صناعة تفسير الكتب، مثل كتاب "عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب" الذي يعود لمؤلف مجهول من أهل القرن الخامس الهجري، وفيه ما يدل على أنه وضع للمعز بن باديس (398-454هـ/1008-1062م) وهو عبارة عن شرح مفصل لهذه الصناعة وأصولها. فقد تطرق مؤلفه في إحدى أبوابه إلى طريقة التجليد، والمواد والآلات التي يحتاج إليها المجلد، وطريقة نقش الجلد بالذهب.

وكان أشهر مسفر في هذه الفترة هو بكر بن إبراهيم بن المجاهد اللخمي الإشبيلي (ت 629هـ)، فقد اعتبر من كبار المسفرين، بل إنه ألف في هذه الصناعة كتابا أسماه "التيسير في صناعة التفسير"¹⁰⁰، ضمنه خبراته التي استفادها من خلال عمله الطويل في هذه المهنة.

على العموم، يمكن القول، فيما يتعلق بباب الكتب والمكتبات والنسخ والوراقة، إنه اجتمع في بلاد الأندلس ما تفرق في غيرها، فليس غريبا أن تعرف هذه المنطقة من دار الإسلام تفوقا ورفعة في هذا الميدان بالنظر إلى البيئة العلمية السائدة آنذاك. فنشاط وازدهار العلوم بشتى أنواعها من فلك ورياضيات وطب وهندسة وفلاحة، وكذلك علوم الدين من فقه وحديث وشرعية وأصول، وكذا علوم اللغة بالإضافة إلى بيئة الفلسفة والشعر والأدب التي كانت تعرف نشاطا قل نظيره. فحرص الأندلسيين على المعرفة والاطلاع والتعلم كان موازيا لحرصهم على جمع الكتب واقتنائها ونسخها مما جعل الوراقين يحظون بمكانة عالية، لما كانوا يبذلونه من مجهودات جبارة في صيانة الكتب والمخطوطات، بل والتنافس في إخراجها في أبهى الحلل. فكانوا يقومون بعمل شارك فيه الخلفاء والأمراء المرابطون والموحدون حيث جندوا طاقات هائلة وأموالا وفيرة في اقتناء هذه الكتب وإقامة المكتبات. هذا النشاط في ميدان الوراقة كان دون شك حافزا مهما في تنشيط الحقل المعرفي. فقد كانت دكاكين الوراقين مجالا للحلقات العلمية حيث تدور المناقشات والمناظرات، كما كانت هذه

99 - العربي، الحياة العلمية في الأندلس، ص. 132-133؛ انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص: 366-367؛ الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/1997م، ج2، ص. 126-130.

100 - هذا الكتاب ألفه للمنصور الموحدي، وقد قام الأستاذ عبد الله كنون بنشره في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد، المجلد السابع والثامن، 1960-1959، ص. 9-42، ويضم هذا الكتاب عشرين بابا أولها باب الأدوات التي تستعمل في التفسير وآخرها العيوب في التفسير. انظر العربي، الحياة العلمية، ص. 134.

الدكاكين نقط تجمع والتقاء للأساتذة وطلاب العلم لتبادل الأفكار وكل ما جد في عالم الكتب والمكتبات. لذلك نجد من هؤلاء العلماء أو الطلبة؛ كل حسب موارده المادية، من يتهافت على اقتناء الكتب وإعادة نسخها وخطها. وهو مجهود لم يكن حكرا على الرجال، بل ساهمت فيه النساء بحظ وافر حتى اشتهر من بينهن أسماء لامعات. وقد انعكس هذا على قيمة الكتاب، ومن ثم قيمة العلوم أو ما كان يتضمنه من معارف بوجه عام.

قراءة فی کتاب

المجالس العلمية الحفيظية من خلال كتاب "الدروس الحديثية في المجالس الحفيظية"¹، للشيخ المكي محمد بن علي البطاوري الرباطي (ت 1355 هـ / 1936م)

د. عبد الرزاق وورقية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس

مقدمة:

من الأمور المطلوبة شرعا المذاكرة في العلم، حتى اشتهر قول المحققين: إنما العلم المذاكرة، ففي مجالس المذاكرة تثار القضايا العلمية الجديدة، وتفك الإشكالات المستعصية، فكم من مسألة أجيب عنها في مجالس العلم، وبذلك مدحت المجالس العلمية، وأصبحت سنة متبعة عند العلماء والسلاطين، وقد تجلت إقامتها والعناية بها في المغرب بوضوح، حيث "كان ملوك الدولة العلوية يعتنون بدراسة الحديث، ويعقدون له مجالس طوال أشهر ثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، فكان رجال الدولة وملوكها يحضرون عليه العلماء والمثقفين من عواصم المغرب لإلقاء دروس حديثة في الصحيحين والموطأ، وشفاء عياض"².

وجريا على سنن الملوك العلويين في العناية بالعلم وأهله، عقد المولى عبد الحفيظ رحمه الله مجالس علمية، وكان يحضرها العلماء من جميع أقاليم المغرب، مجليا بذلك تمسك السلاطين العلويين بترسيخ القيم الدينية والشرعية، فبالرغم من الظروف العصيبة التي كان يمر بها المغرب قبل فرض الحماية، من تكالب قوى الاستعمار آنذاك، حرص المولى عبد الحفيظ رحمه الله على المحافظة على سنة

1 - طبعت طبعتها الأولى سنة 1946، على نفقة دار النشر "الباب" بالرباط.

2 - من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين: الرباط وسلا، عبد الله الجراري، ط1، 1971، مطبعة الأمانة الرباط: 227/1.

أجداده في عقد المجالس للعلماء للمذاكرة والمناظرة والمناقشة من أجل تثبيت المبادئ الدينية، وحفظ الأحكام الشرعية، وقد تم تدوين تلك الدروس من بعض العلماء المشاركين فيها، منهم قاضي الرباط آنذاك الشيخ المكي البطاوري الذي جمع دروسه في كتاب سماه: "الفوائد الحديثية في المجالس الحفيفية" وفي هذا المقال سوف أقدم نبذة عن تلك المجالس الحفيفية من خلال قراءة موجزة في هذا الكتاب، وذلك حسب العناصر الآتية:

1. نبذة عن المؤلف.

2. سبب وبداية انعقاد الدروس الحفيفية.

3. أبرز مواضيع الدروس الحفيفية.

4. نموذج من الدروس الحفيفية ألقاه القاضي البطاوري بين يدي السلطان المولى عبد الحفيظ.

1. نبذة عن المؤلف:

هو الشيخ القاضي أبو حامد المكي محمد بن علي البطاوري الشرشالي الرباطي، قال عنه المرحوم عبد الله الجراي: "والبطاوري من أفذاذ المعرفة الذين جاد بهم هذا البلد الطيب إذ كان آية الآيات في تحصيله وتلقينه وإملاءاته في شتى العلوم التي كان يدرسها مع طلبته الكثيرين بالزاوية التهامية بالرباط وأحيانا بضريح المولى المكي قبالتها، مما أصبح من أجله مثال الغرابة والندرة في قوة الحافظة، وترتيب الأفكار حتى مثله تلاميذه بعروس في هدوئه وتؤدته، وحلاوة تعابيره سواء في دروسه اللسانية والأدبية أو التشريعية والفقهية، ولا أدل على هذا من دروسه الحديثية التي أملاها بين يدي المغفور له سلطان المغرب المولى عبد الحفيظ، وحضور نخبة من علماء المغرب"³.

أخذ العلم عن شيوخ مثقفين بارزين "كالعلامة المرحوم أبي إسحاق التادلي الرباطي، وعمه أبي عبد الله محمد التهامي البطاوري، وأبي عبد الله الهاشمي بن أحمد الزياتي، والقاضي ابن عبد الرحمن البربري، وأبي زيد عبد الرحمن لبريس، وأبي حفص عمر عاشور، والشيخ أبي حامد العربي بن السائح، وسواهم من الفقهاء وأجازته جماعة منهم"⁴.

3 - التأليف ونهضته في المغرب الحديث في القرن العشرين، عبد الله بن العباس الجراي، ط1، 1958، مكتبة المعارف، الرباط: 251/1.

4 - المصدر نفسه.

وللشيخ البطاوري مؤلفات غزيرة، ومصنفات بديعة في أغلب الفنون الأدبية والعلوم اللغوية والعقدية والمنطقية والفقهية والتاريخية⁵... ومن أهمها وأشهرها:

• شرحه على مقصورة المكودي، الموسوم بـ "أزهار الأغصان المصهورة من رياض أفنان المقصورة".

• شرحه المفيد على الشمقمقية لأبي العباس بن النونان، في الفنون الأدبية.

• تقييد فيه شرح لرأية العطار سماه: "منح الأوطار من نفع العطار" وقد أورد فيه نكتا أدبية مفيدة.

• شرح مختصر على صغرى السنوسي في العقيدة.

• شرح على البيقونية في اصطلاح الحديث.

• شرح على ألفية العراقي سماه "معارج الرقي".

• كتاب "البدر الطالع على الكوكب الساطع" وهو شرح لنظم السيوطي لجمع الجوامع.

• شرح مورد الزمآن في رسم القرآن للخراز.

• طرر وهوامش على موطأ مالك.

• الحلل المجوهرية في شرح الجوهرة، في العقيدة.

• الفوائد الحديثية والمجالس الحفيفية، وهي الدروس التي ألقاها بين يدي المغفور له السلطان المولى عبد الحفيظ بالقصر الملكي عام 1330 هـ. وهو الكتاب موضوع قراءتنا في هذا المقال.

وتعد هذه الآثار العلمية ثروة نفيسة ومتنوعة، قال عنها المرحوم عبد الله الجراري: "إنها تدل على ثقافة واسعة لشيخنا المترجم البطاوري، وقدرة على التحرير والتأليف في مختلف العلوم والمعارف علاوة على ما له من حواشي وتقايد وأراجيز وقصائد شعرية، وفوائد علمية، ومكاتيب إنشائية، وتقاريط نثرية، وخطب الجمع والأعياد التي يضيق عن تفصيلها الكتاب"⁶.

5 - المصدر نفسه: 1/251 وما بعدها.

6 - التأليف ونهضته: 1/255.

توفي القاضي البطاوري رحمه الله، سنة 1355 هـ، الموافق لـ 1936 م.

2. سبب وبداية انعقاد المجالس الحديثة الحفيفية:

كانت المجالس العلمية السلطانية تعقد على عهد المغفور له المولى عبد الحفيظ في القصر الملكي بداية شهر رجب وتستمر طيلة شعبان ورمضان، بحضور نخبة من علماء المغرب المبرزين، حيث ذكر الشيخ البطاوري أن افتتاح هذه المجالس "كان في ثالث رجب عام ثلاثين وثلاثمائة وألف صدر النهار"⁷.

وقد كان التركيز فيها يقع على شرح الحديث النبوي الشريف، والكتاب المعتمد في ذلك غالبا هو الجامع الصحيح للإمام البخاري.

وسبب انعقادها هو أنه لما قدم المولى عبد الحفيظ إلى الرباط وكان مولعا بعلم الحديث خصوصا صحيح البخاري، رغب في الاجتماع بعلماء العدوتين: الرباط وسلا للمذاكرة معهم في فن الحديث جريا على عادته مع علماء فاس في عقد المجالس للمذكرات العلمية، يقول الشيخ البطاوري في هذا: "إنه لما حل بهذا الثغر الرباطي المحروس بعناية الله ركاب السلطان المعظم، العلامة الأفخم، مولانا عبد الحفيظ بن السلطان الأعظم، الهمام الأكرم، مولانا الحسن في أواخر جمادى الثانية عام ثلاثين ومائة وألف وكان له ولوع بعلم الحديث خصوصا صحيح الإمام البخاري، تآقت نفسه إلى الاجتماع بعلماء العدوتين رباط الفتح وسلا للمذاكرة معهم في فن الحديث على ما كان عليه مع علماء فاس أثناء مقامه بها، وكنت إذ ذاك متوليا خطة القضاء برباط الفتح، فأصدر أمره الشريف لي ولقاضي سلا الفقيه الأجل أبي الحسن عواد بانتخاب أفراد من علماء العدوتين وحضورهم بالمشهد المحمدي الحسني بالحضرة السلطانية بقصد سرد صحيح البخاري، فانتدب من دعي من علماء الحضرتين مع من كان بركاب السلطان من علماء شنجيط والمجموع يناهز العشرين، وأسندت رئاسة المجلس لقاضي سلا المذكور، فكان الافتتاح في ثالث رجب عام ثلاثين وثلاثمائة وألف صدر النهار"⁸.

نستنتج من هذا النص التاريخي الذي يؤرخ للدروس الحديثة جملة أمور منها:

7 - الدروس الحديثة في المجالس الحفيفية، المكي محمد بن علي البطاوري، ط 1، 1947م، دار النشر "الباب"، الرباط: ص 2 و 3.

8 - المصدر نفسه.

أولاً: إن المجالس العلمية الحفيفية كانت تعقد في فاس، وبعدها تم عقدها بالرباط عندما سافر السلطان إليها، واستمرت هناك طيلة شهري رجب وشعبان وتوقفت بعد مغادرة المولى عبد الحفيظ، كما أكد ذلك المؤلف في آخر الدرس السابع من كتابه حيث قال: "وهو آخر ما باشرته من ذلك لعزم السلطان على السفر وكان ذلك في أواخر شعبان من العام المذكور صدره، وكانت الدروس السبعة المتقدمة متخللة بدروس قاضي سلا الفقيه أبي الحسن وبالبطالة في عدة أيام لمقتضيات شتى"⁹.

ثانياً: إن الحضور كانوا من نخبة العلماء المغاربة المختارين لذلك، ويضاف إليهم من كان مدعوا من علماء شنقيط.

ثالثاً: إن رئاسة المجلس كانت تسند إلى قاضي سلا أبي الحسن العواد كما ذكر المؤلف.

رابعاً: كان موضوع الدروس هو أحاديث صحيح البخاري، وقد كان أول درس في باب "مناقب قریش" ألقاه قاضي سلا المذكور، وبعده كانت الدروس تلقى بالتناوب بين القاضي السلاوي والقاضي الرباطي البطاوري¹⁰.

وقد استمرت هذه الدروس العلمية بعد المولى عبد الحفيظ أي في عهد المولى يوسف أيضاً، قال الجراري: "فهذا المولى يوسف طيب الله ثراه، كان يعمر الأشهر الثلاثة بدراسة حديث الرسول الأكرم صلوات الله عليه بمسجد القصر الملكي بالرباط، وذلك بعد صلاة الظهر إلى قرب صلاة العصر"¹¹.

3. أبرز مواضيع الدروس الحفيفية:

دارت المجالس العلمية الحفيفية في أغلبها على أحاديث الجامع الصحيح للبخاري، ويظهر من خلال ما سيأتي من دروس القاضي البطاوري أن كل درس كان يتناول باباً من أبواب صحيح البخاري، حيث أورد في ما أملاه من دروسه سبعة دروس، خصص كل درس منها لباب مختار من أبواب صحيح البخاري وفيما يلي نبذة مختصرة عن مجمل ما ألقاه في مجلس السلطان من محاضرات:

9 - المصدر نفسه: ص 123.

10 - المصدر نفسه: ص 2 و3.

11 - من أعلام الفكر المعاصر: 227/1.

الدرس الأول: في باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتطرق فيه القاضي البطاوري لشرح لفظ المناقب، ثم لاسمي عثمان وعفان وما يتعلق بهما من الكنى والفوائد اللغوية، وعرف بالصحابي الجليل بما ورد عنه في السنة والسيرة والأشعار عن نسبه وأزواجه وخلافته ومناقبه الكثيرة، وكان هذا الدرس من أطول الدروس وأغناها¹².

الدرس الثاني: في باب حديث الإسراء، وقول الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾¹³ شرح فيه حديث الإسراء، وأورد تفسيراً للآية، مدعماً قوله بشواهد اللغة والآثار، ولا يترك فائدة لغوية أو حديثية أو تاريخية إلا أوردتها كالفرق بين الإسراء والمعراج، وتاريخ بناء بيت المقدس ... وغير ذلك وفق ترتيب مضبوط بقواعد العلماء في المحاضرة.

الدرس الثالث: في باب شهود الملائكة بدر، شرح فيه حديث حضور الملائكة غزوة بدر مع المسلمين نصره لهم وعونا لهم على أعدائهم، وبدأ درسه بشرح معنى الملائكة في اللغة وفي العقائد، وتحدث عن أنواعها ووظائفها، وفصل القول في شهودها غزوة بدر وثبوت ذلك في القرآن والسنة، والحكمة من ذلك، مدعماً درسه بالآيات الواردة في الموضوع، وصحيح الأخبار.

الدرس الرابع: في غزوة ذات الرقاع، وتحدث فيه عن سبب تسميتها بذات الرقاع، وعن الفرق بين الغزوة والسرية، وتاريخ وقوع الغزوة، وعن بعض من حضرها من الصحابة رضي الله عنهم.

الدرس الخامس: في فتح مكة، وتحدث عن تاريخه، وعن عدد جيش المسلمين فيه، كما أورد بعض خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وعن عفوهِ على أبي سفيان ومن دخل بيته.

الدرس السادس: في كتاب تفسير القرآن، وقد تطرق فيه الفقيه البطاوري لمعنى التفسير والفرق بينه وبين التأويل، وفصل في معنى الرحمن الرحيم، كما سيأتي في نص الدرس.

الدرس السابع: باب في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾¹⁴، في هذا الدرس فسر الفقيه الآية مبتدئاً كعادته بالمعاني اللغوية منتقلاً منها إلى المعاني الاصطلاحية مع بيان الاستعارات والتشبيهات الواردة في الآية مستعيناً بآيات أخر وبما ورد في السنة في الموضوع.

12 - ينظر الدروس الحديثية: من ص 4 إلى ص 43.

13 - سورة الإسراء، جزء من الآية: 1.

14 - سورة البقرة، جزء من الآية: 221.

4. نموذج من الدروس الحفيفية ألقاه القاضي البطاوري بين يدي السلطان المولى عبد الحفيظ

الدرس السادس:

(بسم الله الرحمن الرحيم كتاب تفسير القرآن الرحمن الرحيم اسمان من الرحمة الرحيم والراحم بمعنى كالعليم والعالم) أي هذا كتاب في بيان تفسير القرآن الكريم، والبسملة مقدمة على الترجمة في رواية أبي ذر وفي رواية غيره: كتاب التفسير بسم الله الرحمن الرحيم، بتأخير البسملة، وتعريف التفسير وحذف المضاف إليه، وفي رواية أخرى: كتاب تفسير القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، قال الفخر الرازي عند قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ هذه الآية تقتضي أن هذا الذكر يعني القرآن مفتقر إلى بيان رسول الله ﷺ، والمفتقر إلى البيان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل، فلماذا قال بعضهم: متى وقع التعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث، لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية، والحديث مبين له بدلالة هذه الآية أيضا والمبين مقدم على المجمل. والجواب أن القرآن منه محكم ومتشابه كما قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات﴾ والمحكم كما لابن السبكي هو المتضح المعنى، فيجب كونه مبينا فثبت أن القرآن ليس كله مجملا، فقوله تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ محمول على المجملات أي لتبين للناس ما أجمل من الأحكام فبيان المجمل من القرآن تكفل به رسول الله ﷺ، فأحاديثه كالشرح والتفسير للقرآن، والتفسير مصدر فسر مزيد فسر كضرب ونصر، يقال فسر الشيء فسرا أبانه، وفي القاموس: الفسر الإبانة، وكشف المغطى كالتفسير، فالتفسير تفعيل من الفسر، وأصل الفسر نظر الطبيب إلى الماء ليعرف العلة، وقيل إنه مقلوب من سفر كجذب وجذب، فيكون من الاشتقاق الكبير الذي لا يشترط فيه ترتيب الحروف، يقال سفرت المرأة كشفت وجهها كأسفرت وقال تعالى: ﴿والصبح إذا أسفر﴾ أي أضاء قال ابن المرحل:

وأسفر الوجه إذا أضاء ❁ كذلك الصبح فقل سواء

وقال العيني معنى التفسير اللغوي البيان، ومعناه الاصطلاحي هو الكشف عن مدلولات نظم القرآن واختلفوا في التفسير والتأويل، فقال أبو عبيدة وطائفة هما بمعنى، وقيل التفسير هو بيان المراد باللفظ، والتأويل بيان المراد بالمعنى، وقال أبو العباس الأزدي: النظر في القرآن من وجهين: الأول، من حيث هو منقول، وهي جملة التفسير، وطريقه الرواية والنقل، والثاني من حيث هو معقول، وهي جملة التأويل وطريقه الدراية والعقل، قال الله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ فلا بد من معرفة اللسان العربي في فهم القرآن العربي، فيعرف الطالب الكلمة وشرح لغتها

وإعرابها، ثم يتغلغل في معرفة المعاني ظاهرا وباطنا فيوفي لكل منهما حقه. ه قال المؤلف رضي الله تعالى عنه (الرحمن الرحيم) قصد تفسير الرحمن الرحيم الواقعين في البسملة المفتتح بها القرآن العظيم من غير خلاف، فلا يجري هنا الخلاف الذي بين الأئمة الأربعة، وكذلك بين القراء السبعة هل هي آية من الفاتحة أو من أول كل سورة، لأنهم كلهم معترفون بأن القرآن العظيم مبدؤ بها للتبرك في الكتابة والتلاوة في غير الصلاة، بل نقل إجماع الأمم على أن الله تعالى افتتح كل كتاب منزل بها، ويحتمله حديث: "البسملة مفتاح كل كتاب" أي من الكتب المنزلة، وقال بعضهم: معناه أنه ينبغي أن يصدر بها كل كتاب. "اسمان من الرحمة" أي مشتقان من الرحمة كما قال الحافظ والقسطلاني وغيرهما، وزعم بعضهم أنه غير مشتق لقولهم: وما الرحمن؟ وأجيب بأنهم جهلوا الصفة لا الموصوف، ولذا لم يقولوا: ومن الرحمن؟ والدليل على اشتقاقه ما صححه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه سمع النبي ﷺ يقول: "قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي" الحديث، قال القرطبي: وهذا نص في الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق. ه والاشتقاق كما قال في جمع الجوامع رد لفظ لآخر ولو مجازا لمناسبة بينهما في المعنى والحروف الأصلية، والرحمة في اللغة الحنو والعطف، وهو بمعنى قول من قال: رقة في القلب وانعطاف أي تأثر، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها، ولا شك أن هذا المعنى يستحيل وصفه تعالى به عقلا، لأن التأثير والتغير من العوارض الجسمانية، والله سبحانه منزّه عن الجسيمة ولوازمها لبرهان مخالفته تعالى للحوادث، وحيث تعذرت الحقيقة فيصار إلى المجاز للقاعدة التي أسسها الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى، وهي أنه إذا وصف الله سبحانه بوصف ولم يصح حمله على حقيقته، حمل على غايته ولازمه، أي إذا ورد في الكتاب أو السنة إطلاق وصف في جانب المولى سبحانه لأن صفاته تعالى توقيفية كأسماؤه الحسنی، بمعنى أنه يتوقف إطلاقها على ورودها في لسان الشرع كما قال في الجوهرة:

واختير أن اسماء توقيفيه ❁ كذا الصفات فاحفظ السمعية

ووصفه تعالى بالرحمة وارد في الكتاب والسنة، والحقيقة محال فتعين المصير إلى المجاز، وهذا المجاز هنا هو مجاز مرسل تبقى علاقته اللازمة والملزومية أو السببية والمسببية من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم أو من إطلاق السبب وإرادة المسبب، ورقة القلب وانعطافه يلزمها إرادة الإحسان لمن رق عليه ثم الإحسان له بالفعل، قال الشيخ أبو الحسن الأشعري: يحمل على إرادة الإحسان لأنها اللازم الأقرب للحقيقة، إذ لا واسطة بينه وبين الحقيقة. وقال الإمام أبو بكر الباقلاني: يحمل على الإحسان نفسه لأنه اللازم الأصلي المقصود بالذات، وإن كان لازما أبعد لكونه لازم اللازم، فردها

الأشعري إلى صفات الذات، وهي صفات المعاني التي هي القدرة والإرادة إلخ لأنها راجعة للإرادة. وعلى قول الباقلاني تكون من قبيل صفات الأفعال وصفات الذات قديمة باتفاق أهل السنة لقول الجوهرية:

وعندنا أسماؤه العظيمة ❁ كذا صفات ذاته قديمة

وصفات الأفعال تختلف فيها، فقليل: إنها حادثة، وهو قول الإمام الأشعري لأنها عبارة عن التعلق التنجيزي للقدرة، لأن القدرة، كما قال الشيخ السنوسي، صفة يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرادة، ولها تعلقات: تعلق صلاحية قديم، وهو صلاحيتها في الأزل للإيجاد والإعدام، وتعلق تنجيزي حادث، وهو إيجاد الله تعالى بها الممكن فيها لا يزال، وهذا هو المعبر عنه بصفات الأفعال، ويقال لها صفات التكوين وإليها أشار الشيخ:

أما صفات الفعل فالتكوين ❁ وهو بأنواع له تعيين
كالخلق والرزق وكالإعطاء ❁ والمنع والإفقار والإغناء

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي: إن صفات الأفعال قديمة كصفات الذات، وعلى مذهبه قال صاحب بدء الأمالي:

صفات الذات والأفعال طرا ❁ قديمات مصونات الزوال

والإمام أبو منصور الماتريدي من أئمة أهل السنة رضي الله تعالى عنهم، وانظر ما أورد على مذهب الأشعري وما أجيب به، وبقية تعلقات القدرة في مطولات علم الكلام، وعلى كل حال فالمجاز مرسل أصلي في المصدر وهو الرحمة، تبعي في الوصف وهو الرحمن الرحيم، وجعله بعضهم من باب الكناية، وهي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه، كما في التلخيص فلفظ الرحمن أريد به لازم معناه، وهو إرادة الإحسان أو الإحسان على نحو ما تقدم، وإن لم يجز إرادة الحقيقة هنا، لأن المراد بجواز إرادته معه أن لا ينافي المعنى الكنائي في حد ذاته المعنى الحقيقي كذلك وإن منع منه مانع خارجي هنا، وهو الاستحالة العقلية، هذا باعتبار اللغة، وأما بحسب العرف أو الشرع، فقد جوز بعضهم جعل الرحمن الرحيم حقيقة عرفية أو شرعية في الإحسان أو إرادته لكثرة إطلاقها في ذلك بلا قرينة، والمجاز لا يكون إلا بقرينة، والقائل بالمجاز يقول: إن القرينة خارجية، وهي الدليل العقلي المانع من إرادة الحقيقة، وقال حفيد السعد: إنه استعارة تمثيلية، وقررها بقوله: شبه حاله تعالى بحال ملك رق قلبه على رعيته فعمها بإحسانه، فأطلق عليه تعالى الرحمن الرحيم، وأريد غايته التي

هي الإحسان أو إرادته، لكن قيل في إطلاق التمثيلية في هذا المقام: سوء أدب، إذ ليس كمثله سبحانه شيء. وبعضهم أجراه على قاعدة المتشابه من قبيل آيات الصفات كالوجه واليد، فيجري على قاعدته من التنزيه عن ظاهره إجماعا بين الخلف والسلف، ثم قال السلف: نفوض، وقال الخلف: نؤول، وإلى ذلك أشار في الجوهرة بقوله:

وكل نص أوهم التشبيها * أوله أوفوض ورم تنزيها

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرحمن الرحيم اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر فالرحمن الرقيق، والرحيم العاطف على خلقه بالرزق، وقيل: الرحمن لجميع الخلق، والرحيم للمؤمنين، وقيل: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. وعن ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وعن المبرد: الرحمن عبراني، والرحيم عربي، قلت: في العبراني بالخاء المعجم. ه نقله العلاقة العيني في عمدة القارئ. قال العلامة القسطلاني: وقول المبرد مرغوب عنه. ه

(الرحيم والراحم بمعنى واحد كالعليم والعالم) من المقرر في فن الصرف أن صيغة فاعل قياس اسم الفاعل من الثلاثي المجرد الذي ليس على فعل بالضم، وصيغة فاعل تكون صفة مشبهة، وتكون صيغة مبالغة، واسم الفاعل يفيد الحدوث والصفة المشبهة تفيد الثبوت، وصيغة المبالغة تفيد تكثير الفعل، فحصل إشكال في كون فاعل وفاعل بمعنى واحد، وقد أبرزه العلامة العيني رحمه الله تعالى في صورة الاعتراض، وأجاب عنه ونصه قوله: الرحيم والراحم بمعنى واحد فيه نظر، لأن الرحيم إن كان صيغة مبالغة فيزيد معناه على معنى الراحم، وإن كان صفة مشبهة فيدل على الثبوت، بخلاف الراحم فإنه يدل على الحدوث، وأجيب بأن ما قاله بالنظر إلى أصل المعنى دون الزيادة، انتهى بلفظه. ومراده بأصل المعنى أن كلا منهما يدل على الوصف، ومن قام به مع قطع النظر عن الحدوث والثبوت والتكثير، وعبرة الشهاب القسطلاني رحمه الله تعالى نصها: الرحيم والراحم بمعنى واحد كالعليم والعالم، وهذا ما ينظر إلى أصل المعنى، وإلا فصيغة فاعل من صيغ المبالغة فمعناها زائد على معنى الفاعل، وقد ترد أيضا صيغة فاعل صفة مشبهة وفيها أيضا زيادة لدلالاتها على الثبوت، بخلاف مجرد الفاعل فإنه يدل على الحدوث، ويحتمل أن المراد أن فاعلا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول، لأنه يرد بمعنى مفعول كفتاة أو فتى كحيل وقتيل وجريح فاحترز عنه ه. وهنا انتهى الدرس السادس بمعونة الله تعالى وتوفيقه الجميل، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ديوان العدد



في مجلس الأخيار

الشاعر: محمد الإدريسي
فاس

أحاديث علم، للمريد كأنها * نساء شوق، يستلذ هبوبها
تعيد صدى الماضي، وتسمع حاضرا * صرير ليال حين يندى كتيها
وترضع أيام الشريد تفأؤلا * يشق رياضاً، من جنان قلبها
وتسكب نورا من عصير مجامع * تأخى بها مفتى القرى وأديها
وتنحت بالصخر العظات، وتستقي * سحائب خلد يستحيل نضوبها
وكيف لسحب أن يغيض نوالها * وفي الأرض يسعى بالدلاء رغوبها
قرائن سبك، ينسج الشعر غزلها * وأحكام شعر ضيقات دروبها
هو الوصف لا يجني زهور حقيقة * ولكنه ظل الخفايا، قريبها
وفي مجلس للعلم، إن كنت حاضرا * حقائق وصف تستيك ضروبها
به من رجال الدين والفكر ثلة * خزائنهم، روح الحقيقة طوبها
رجال، مفاتيح السلامة زادهم * بربرهم، للنائبات طيبها
هم ينسجون الشمس برد عقيدة * بأحداق موت قد أقام غروبها
ونصرة أرض فرض عين لديهم * إذا ما دعت للنصر سيفاً حروبها
وحب ملك قاد للعز شعبه * سريرتهم، في مختفاه عيوبها
تيممة حرز للنساء محمد * حفيد صلاح، للمعالي ريبها
مراود سود من رباه تعطرت * ففاخر بسام الجفون غضوبها
أسير الضنى في عهده اعتاد منة * فشاد بأفضال كريم جليها
سلام له من قبة العلم والتقوى * به قد تباهى شبيبها وشبيبها
بها مشرق تخشى طلائع غربه * إذا الشمس قد ولت، وعز ضربها
فيا أهل دار أسكنوا الدار نورها * ففي الظل يسعى بالمسموح غريبها
فأنتم قناديل الليالي، وأنسها * وضرع التداني ما استدارت خطوبها

فمدوا صحاف العلم في كل بقعة ❁ فيربوها ما امتد، شبرا، نصيبها
وليس لنفس ضل في الدهر سعيها ❁ نجاة، وفي مسعاها غمت ذنوبها
فمن نبعكم تسقى فسائل ربنا ❁ وفي ظل عرش يستظل رقيبها
هنيئاً لنا، عرش وعلم تألفا ❁ فغنى لنا في الخالدات طروبها

كُلُّ الْحَيَاةِ صَلَاةٌ لَا انْتِهَاءَ لَهَا

بمناسبة بناء مسجد الحسن الثاني

1993

الشاعر : عبد الكريم الوزاني
فاس

عَجَّ بِالْذِّيَارِ وَرُمَ مَنْ أَنْتَ تَنْشُدُهُ *
وَمَتَعَ الرُّوحَ فِي أَرْجَاءِ مَسْجِدِهَا *
فِي لَيْلَةِ الْمَوْلِدِ الْغَرَاءِ رَأَيْتُهُ *
تُسَابِقُ الْقَسَمَ الْمَوْعُودَ مَعْبَرُهَا *
فَقَدْ تَسَامَتْ بِهِ نَحْوُ الْفُنُونِ وَلَا *
ظَبَاؤُهَا مَرَحَاتٌ مَا عَرَفْنَ بِهَا *
مِنْ كُلِّ فَاْرِهَةٍ غَيْدَاءٍ مَخْبَرُهَا *
وَكُلَّ أَرْوَغٍ فِي عَرْيَيْنِهِ شَمَمُ *
أَشَاهِدُ الْحُسْنَ أَنَا جُلْتُ وَاعْجَبِي *
فِي غَيْرِهِ صِفَةً لِلْحُسْنِ وَاحِدَةً *
فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ لِلنَّقْصِ مَعْدُنُهُمْ *
عَهْدِي بِهِ وَسِرَاجُ الْعِلْمِ مُتَّقِدُ *
الْمُرْتَوُونَ بِهِ وَالظَّالِمُونَ إِلَى *
يَا بَابِي الصَّرْحُ! هَذَا الصَّرْحُ مَفْخَرَةٌ *
أَرْجَاؤُهُ كَحَرِيرِ الْهِنْدِ نَاعِمَةٌ *
يَا بَابِي الصَّرْحُ كِسْرَى "طَائِفَةٌ" قَزَمُ *
بَنَاهُ فِي طَرْفَةٍ لِلْعَيْنِ خَاطِفَةٌ *
لَمْ يُثْنِهِ عَنْ رَفِيعِ الصَّنْعِ مَشْغَلَةٌ *
بَوَارِجُ الْبَحْرِ لَا تَرْضَى بِجَارِيَةٍ *
بِاللَّهِ يَا جَنْبَاتِ الْبَيْتِ قُلْنَا

وَانْظُرْ بَعَيْنَ الرِّضَا مَنْ أَنْتَ تَقْصِدُهُ *
فَهِيَ فَيْضٌ لَهُ مِنْ أَمْسِهِ غَدُهُ *
تَهْفُو إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى تُعَاهِدُهُ *
عَزَمُ الْمُشَى رِحَابُ الصَّدْرِ سَرْمَدُهُ *
يَسْمُو إِلَى الْفَنِّ إِلَّا هُوَ. تَعَاهِدُهُ *
إِلَّا مَطِيرَ سَحَابٍ نَبْعُهُ يَدُهُ *
طِيبٌ وَمَظْهَرُهَا لِلْمَسْكِ مَحْتَدُهُ *
لَهُ مِنَ الْعُمَرِ أَحْلَاهُ وَأَرْغَدُهُ *
مِنْ رَبَّةِ الْحُسْنِ تَرْعَاهُ وَتَعْبُدُهُ *
وَحَارَ مُجْتَمَعِ الْأَوْصَافِ سَيِّدُهُ *
وَفِيهِ لِلْفَضْلِ أَوْفَاهُ وَأَرْشَدُهُ *
وَسَادَةٌ حَوْلَهُ بِالْعِلْمِ تُرْفِدُهُ *
مَعِينِهِ كَوَكَبٌ حَلَاهُ فَرْقَدُهُ *
رَمْلُ الضُّفَافِ وَمَاءُ الْبَحْرِ يَشْهَدُهُ *
كَأَنَّهَا مَرَمَرٌ وَاتَّاهُ مُورَدُهُ *
وَقَبْلَ صَرْحِكَ لَمْ يُولَدْ مَنْصُدُهُ *
مَحْرَابُهُ الْيَوْمَ مَا هَوْلٌ وَمَرْبَدُهُ *
وَلَا تَشَاءَبَ عَنْ بَيْتٍ يُشِيدُهُ *
عِنْدَ السَّرَى صُبْحُهُ الْوَضَاءُ يَحْمَدُهُ *
عَنْ زَائِرٍ جَنْبَاتِ الْبَيْتِ مَعْبَدُهُ

يَحْفُهُ قَوْمُهُ وَالْخَيْرُ غُرَّتْهُمْ
مَنْ نَبَعَهُ هَلْ مَاءُ الْعَيْنِ مِنْهُمْ رَأً
يَوْمَ الصَّلَاةِ لَهُ مِنْ أَمْسِهِ مَثَلُ
الصَّدْرُ أَوَّلُهُ وَالصَّدْرُ آخِرُهُ
مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِي أَكْنَافِهِ يَنْعَتُ
قُطْبُ الرِّيَادَةِ فِي حُلٍّ وَفِي سَفَرِ
جَوَانِحِ الْفَلَكَ الدَّوَارِ رَاصِدُهُ
سِبْطُ الرَّسُولِ رَفِيعُ الشَّانِ طَارِفُهُ
إِذَا تَمَلَّتْ عَيُونُ الْقَلْبِ طَلَعَتُهُ
فَإِنَّ بَدْرَ تَمَامٍ مَا لَهُ شَبَهُ
أَلَيْسَ أَنَّ بُحُورَ الشَّعْرِ عَاجِزُهُ
هَيْهَاتَ يُنْصَفُ فَنُ الْقَوْلِ سِيرَتُهُ
الصَّمْتُ نَاطِقُهُ وَالنُّطْقُ صَامَتُهُ
تَسَابِقُ الرِّيحِ فِي يَوْمِ سَفَائِنِهِ
مَسِيرَةُ قَبْلِ أَمْسِ الْأَمْسِ مَوْسِمُهُ
كُلُّ الْحَيَاةِ صَلَاةٌ لَا أَنْتِهَاءَ لَهَا
لَا أَمْدُحُ الْحَسَنَ الثَّانِي لِمَآثِرِهِ
شِعْرًا مِنَ الْقَلْبِ، بَلْ ذَوْبًا عَصَارَتُهُ
فَلْيَسْمَعْ الْكَوْنُ إِنْشَادِيكَ يَا حَسَنِي
فَإِنَّ قِيَامَةَ الْإِلَهَامِ تَسْكُنُنِي
وَلَيْسَ إِلَّاكَ لِلْإِلَهَامِ يَقْدَحُهُ
لَوْلَاكَ لَمْ يَغْتَرَفْ مِنْ نَبْعِهِ بَشَرٌ
تَآزَرَ الدِّينُ وَالْدُنْيَا فَبَيْنَهُمَا
فَمَا تَقُومُ بِهِ هَذِي يُعْضِدُهُ
يَشُدُّ مِنْ أَرْزِ هَذِي عِنْدَ مَحْنَتِهَا
فَاللَّهُ عَاصِمُهُ مِنْ كُلِّ مَنَقْصَةٍ
مِنْ جِرَةِ السُّوءِ، مِنْ نَفَاثَةِ عُقْدَا
وَلِيَحْفَظِ اللَّهُ شِبْلِيَّهَ بِمَا حَفَظْتُ
وَلِيُعْدِقِ اللَّهُ مِنْ آلاءِ رَحْمَتِهِ

مَنْ رَامَهُ بِالْأَذَى جَافَاهُ مَرْقَدُهُ
يَسْقِي الْعِطَاشَ وَيُذَكِّي الرُّوحَ مَوْرَدُهُ
اللَّهُ يَحْرُسُ سُلْهُهُ وَاللَّهُ يُنَجِّدُهُ
وَالنُّورُ مَهْبِطُهُ وَالنُّورُ مَضْعَدُهُ
وَطَيْبُ الذِّكْرِ قَدْ غَنَى مُغَرَّدُهُ
رَأْسُ الْفَصَاحَةِ سَامِي الْفِكْرِ مُفَرَّدُهُ
مَيِّمُونَ طَالِعِهِ وَالسَّعْدُ مَرْصَدُهُ
حُبُّ السَّلَامِ وَحُبُّ الْخَيْرِ تَالِدُهُ
وَفَاخِرَ الْعَسْجَدِ الشَّمْسِيِّ عَسْجَدُهُ
يُزْرِي بِكَوْكِبَةِ الْأَفْلَاكِ فَرَقْدُهُ
عَنْ مَدْحِهِ، فَكَأَنَّ الشَّعْرَ يُحْسِدُهُ
وَلَوْ تَجَمَّعَ فِيهَا مِنْهُ أَجْوَدُهُ
فَلَا يَغِيبُ عَنِ الْحَالَيْنِ مَقْصَدُهُ
فَفِي مَرَاثِي أَقْصَى الْأَرْضِ مَقْعَدُهُ
وَقَبْلَهُ مِنْ مَزَايَا الدَّهْرِ مَوْعَدُهُ
أَمَّا الْمَكَانُ فَمَثْوَاهُ وَمَسْجَدُهُ
إِلَّا وَتُلْهِمُنِي أَمْثَالَهَا يَدُهُ
يَشِي بِهَا عِنْدَ إِنْشَادِي تَنْهَدُهُ
وَلَيْلَتُهُ بِأَوَارِ الشَّعْرِ مُنْشِدُهُ
وَصَاحِبُ الْوَحْيِ مَوْصُولُ تَهْجَدُهُ
فَالشَّعْرُ مُسْنَدُهُ وَاتَّاهُ مُسْنَدُهُ
وَلَا تَلَاقِحَ بِالْأَرْهَارِ مَعْهَدُهُ
حَلْفٌ وَثِيقٌ رَضَى الدَّارَيْنِ يَعْقِدُهُ
وَمَا يَقُومُ بِهِ هَذَا يُجَدِّدُهُ
وَيَرْفَعُ الضَّيْمَ عَنْ هَذَا وَيُبْعِدُهُ
وَاللَّهُ حَافِظُهُ مِمَّا يُنْكَدُهُ
وَمَا يُرَوِّجُهُ فِي النَّاسِ حَاسِدُهُ
بِهِ الصُّدُورُ كِتَابًا طَابَ مَوْرَدُهُ
عَلَى الَّذِي فِي جَنَانِ الْخُلْدِ مَرْقَدُهُ

فهرس العدد

افتتاحية العدد.....7

ملف العدد

المجالس العلمية السلطانية بالمغرب

الدروس الحسنية الرمضانية أصالتها ومميزاتها

ذ. عبد الحق المريني11

المجالس العلمية السلطانية بالمغرب

ذ. عز الدين المعيار الإدريسي.....17

المجالس السلطانية في العصر المريني

ذ. أحمد بلخيري29

المجالس العلمية على عهد الدولة العلوية مشكاة للتحصيل الدراسي ومنازة للإشعاع الثقافي

ذ. عبد الإله لغزاوي43

المجالس العلمية في العصر العلوي الأول: مجالس السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف

ذ. أحمد إيشرخان65

المجالس العلمية السلطانية: الاستمداد والامتداد

ذ. إلياس بناني.....77

نماذج من قضايا فكرية نوقشت في المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية

ذ. أحمد الأزمي87

المجالس العلمية السلطانية السليمانية رسالة في "قال" في سند الحديث لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بنيس ت 1214هـ

103.....ذ. خالد سقاط

نظام المجالس العلمية السلطانية في الدولة المغربية

115.....ذ. محمد طابخ

عرف ترك قراءة حديث الإفك في مجالس السلاطين العلويين، السلطان الحسن الأول نموذجاً

145.....ذ. عبد القادر سعود

رحلة محمد أبي راس المعسكري إلى فاس زمان السلطان مولاي سليمان العلوي

155.....ذ. أحمد العراقي

مقالات داعمة

في الحركة العلمية بالمغرب

المغرب وشنقيط.. متانة الروابط العلمية والثقافية والروحية

163.....ذ. بوها ولد محمد عبد الله

أدب الجدل الديني من خلال "رحلة الشهاب إلى معانقة الأحباب" لأحمد بن القاسم الحجري

173.....ذ. مصطفى الصمدي

المكتبات في الأندلس في عهد المرابطين والموحدين

183.....ذ. فايزة البوكيلي

قراءة في كتاب:

المجالس العلمية الحفيظية للشيخ المكي محمد بن علي البطاوري

203.....ذ. عبد الرزاق وورقية

ديوان العدد

قصيدة: في مجلس الأخيار

215..... ذ. احمد الإدريسي

قصيدة: كل الحياة صلاة لا انتهاء لها

217..... ذ. عبد الكريم الوزاني

219..... الفهرس

شروط النشر بالمجلة

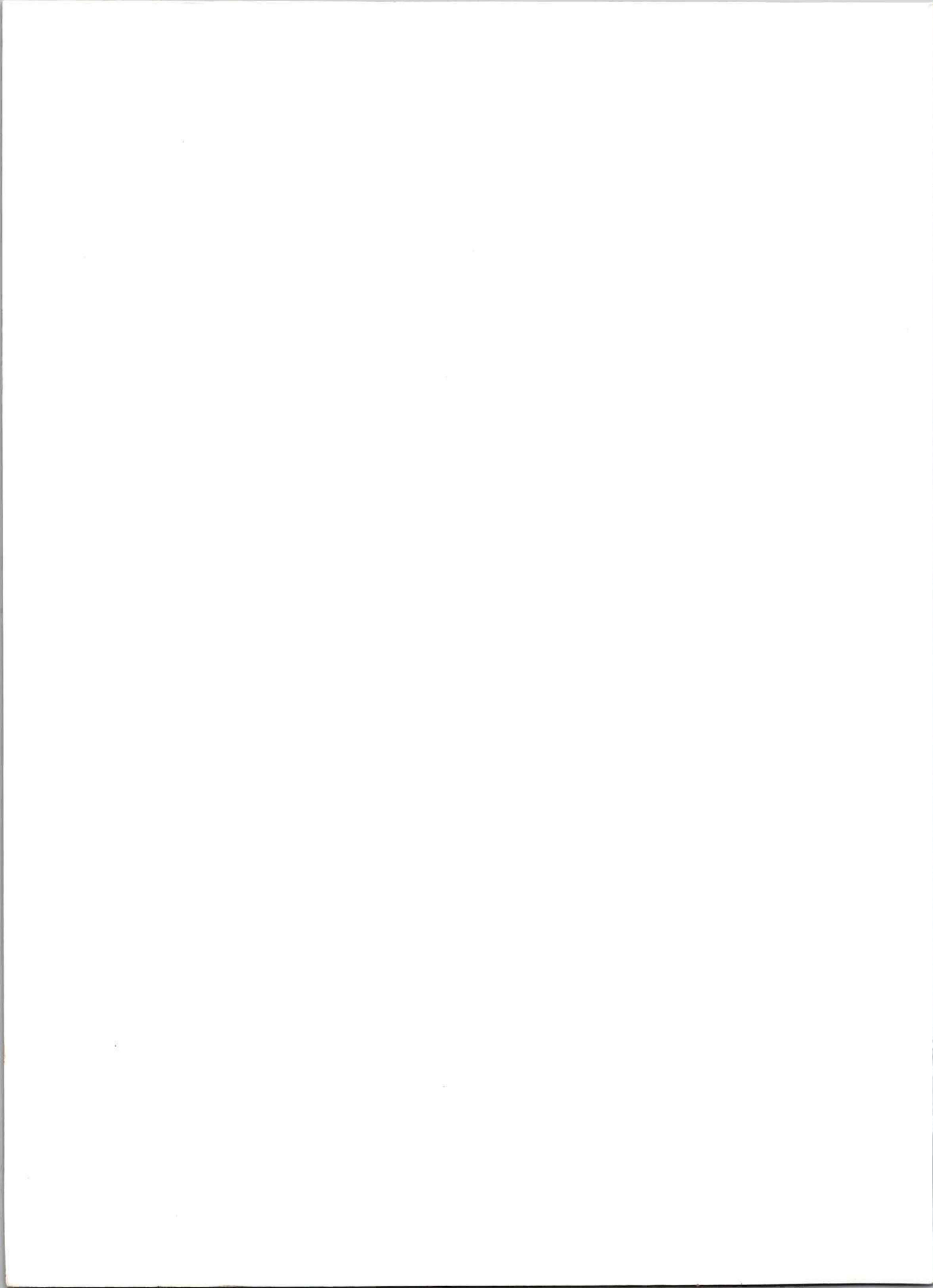
تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاور الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. ذكرى عيد العرش المجيد
2. ذكرى ثورة الملك والشعب
3. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي
4. جهود المغرب في تكوين القيميين الدينيين



دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمل
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية